

نَحْوُ النَّزْرِعِ السَّوْدِي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

www.mlazna.com

^ RAYAHEEN ^

الجزء الأول

www.mlazna.com-RAYAHEEN

(رواية ١٩٥٣)	البحث عن جسد
(مسرحية ١٩٥٣)	جمعية قتل الزوجات
(رواية ١٩٥٣)	قد ينك يا ليل
(قصص قصيرة ١٩٥٣)	ليلة حمر
(..... ١٩٥٣)	حصة عابرة
(رواية في جزأين ١٩٥٤)	رد قلبي
(قصص قصيرة ١٩٥٥)	لبال ودعوى
(رواية ١٩٥٦)	طريق العودة
(مقالات ١٩٥٧)	أيام لمر
(..... ١٩٥٨)	من حيالي
(..... ١٩٥٩)	لطمات ولثبات
(رواية في جزأين ١٩٦٠)	نادية
(..... ١٩٦١)	جفت الدعوى
(مقالات ١٩٦١)	أيام مشرفة
(..... ١٩٦١)	أيام وذكريات
(..... ١٩٦٢)	أيام من عسري
(رواية في جزأين ١٩٦٤)	ليل له أسر
(مسرحية ١٩٦٦)	أقوى من الزمن
(رواية في جزأين ١٩٦٨)	نحن لا نزرع الشوك
(رواية ١٩٧٠)	لست وحدك
(مقالات ١٩٧٠)	من وراء الغيب
(..... ١٩٧١)	أيام عبد الباصر
(رواية ١٩٧١)	انقسام على شفتيه
(رحلات ١٩٧١)	طارق بين المحيطين
(قصة ١٩٧٣)	العمر لحظة

جميع حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الإهداء

إلى فاطمة شيخون
التي سألتني قبل
موتها أن أضعها
في مقابر الأسرة
فأوحى إليّ بهذه
القصة ؟

« يوسف السباعي »

مقدمة

هذه القصة ...
شريحة من حياتنا ...
حياة الذين لا يزرعون الشوك ...
ولكنهم يحصلونه ؟
« يوسف الباغي »

من بعيد

من بعيد .. يبدو النيل شريطا يلعب في أشعة الشمس المتحيرة في الأفق ..
 من بعيد .. تبدو البيوت والأشجار كالدمى ..
 كل شيء يبدو هنا من بعيد .. وكأنه صورة أحداث أيامها الغائرة ..
 لا شيء يبدو قريبا .. سوى جدران المقابر المرسومة في صفح الجبل ..
 إنها تبدو في وضوح الحقيقة ..
 وهي لا تشع منها خوف ولا حزن ..
 على النقيض .. إنها تحس هنا .. سكونة المستقر .. وراحة المضجع .. بعد كل
 هذا العدو في طريق .. أدنى شوكة قدمها .. شوكة لم يكن لها يد في زرعته ..
 فمن لا تزرع الشوك في طريقها .. ولكن يهتق القدر كما بيت الزهر ..
 ولا تملك كأحياء .. إلا أن تخوض الطريق .. بأشواكه وأزهاره .. وهدمى
 الشوك أقدامنا .. وتناهى الزهور عن أهدنا .. وتظل لسعة الشوك حقيقة ..
 وتنفخ الزهر وهما كالسراب ..
 أترى أعلامنا أكثر .. من قسرة الحياة ؟ ..
 ولكن هل تملك المنازل عن أعلامنا .. وهي أجمل ما في الحياة .. للرضخ
 لواقع القدر ..
 إما أن نعلم .. أو نتسلم .. والأمان حياة .. والاستسلام عدم ..
 ولقد كانت هنا أمان .. ظلت كالسراب .. لم تطبق بدعا من الأمانة إلا على
 الشوك .. وتهددت الأمانة .. ولم تبق إلا لسعة الشوك .. حتى استقرت أعورا
 بجوار الأمانة .. لم تطبق عليها بدعا .. حتى لا تتبدد ..

لقد أقبلت على السراب .. ولم تمسك به .. بل جلست على حافته .. حتى يظل دائما حقيقة .. لا يلزوها الخوض فيه والإسكاب به ..

تلك هي قصة حياتها .. وهي تجلس في انتظار الحافاة .. تسمع ذقات أجراس الرحيل .. وهي سعيدة .. فهي ترحل بغير لسة شوك .. أو حبة أمل .. فهي لم تطبق على الأمانة حتى يلمسها الشوك ولم تحض في السراب حتى ينقشع بريقه وتغيب لمعته ..

وأمنيتها الأخيرة .. لم تعد مستحيلة المثال .. ورفقتها في مقابر الأسرة بسفح الجبل .. لم تعد حلما من أحلام الحياة .. سران التفتيح .. بل باتت مقرها المريح بعد رحلة طويلة شاقة ..

لقد وعدنا بذلك .. وهو لم يخلف وعده قط ..

لقد منحها كل ما جسرت على أن تطلبه ..

أما ما لم تجسر على طلبه .. فقد بقي في نفسها مجرد أمنية .. من سران الأماني .. تطويها الأيام في صدرها .. حتى تنوى .. دون أن يدري بها .. ودون أن يكرمها القدر بمنحها إياها .. كما منحها كل ما منح من أسباب الشقاء والأسى ..

وهي ترقد رفقتها الأخيرة .. في سكونية وارتياح .. بمنحها الأمل في مشوى .. قد يضمه وإياها .. بعد ستين طويلة .. شعور يؤنس وحشة طريقها ويضيء ظلمة آخرها ..

كانت سنواتها الأخيرة .. أجمل أيام عمرها .. كلفتها الحياة فيها مشقة الهني ومنحتها نعمة الاستقرار .. بلا إحساس بالحرمان أو شعور بالوحشة والضياع ..

لقد أحست أخيرا .. بأنس الأهل يحيطون بها .. ودفع المستقر بضمها .. أضفى لها ابن حبيب .. لم تجده .. يحنو عليها .. يتألم لألها ويحزن طويتها .. بمنحها كل ما يسعددها .. ويحبها كل ما يشقىها ..

وأبوه .. أمنية العمر .. لقد بات ملء حياتها .. سيدها .. وعائلتها .. ورب أسرة أضحت هي أحد أفرادها .. لها عليه حق الرعاية .. ككل من يحيطون به .. لم يرد لها طلبا .. من هذه الأشياء الصغيرة التي كانت لا تلقأ تطلبا منه .. متاديل الرأس .. وصديريات صوفية .. وطعام للعصافير .. وبن وحلوى وفاكهة .. إلى آخر هذه الأشياء التي تحتاجها لنفسها أو توزعها على بقية الخدم .. وبين آونة وأخرى يشتري لها قطعة حلى ذهبية كلما تجمع عندها قدر من المال .. لتضيف إلى مجموعة الحلى الذهبية التي ما زالت تحفظ بها .. لوقت الحاجة .. أو لليوم الأسود ..

وزوجته .. لم تكن قط سيدة .. بل كانت أقرب إلى أن تكون ابنة رقيقة .. تمنحها من العطف والمودة ما يجعلها تتلطف على خدمتها .. ومعاونتها .. وتجنب كل ما يضايقها ..

لقد منحها الله موضعا بينهم ما كانت ترجو غيرا منه .. موضعا كريما .. آسنا .. يعطيها كل ما تفتته .. أو معظمه .. وكان يمكن أن يدوم حتى آخر العمر .. أو على الأصح .. دلم حتى آخر العمر .. ولكن آخر العمر .. هو الذي .. قرب ..

قرب بطريقة .. مفاجئة لم تتوقعها .. بحيث جعل آخر العمر .. ليس آخره .. بل يكاد يكون أوله .. إذا احتسبت عمرها .. باستقرارها بينهم .. ومع ذلك .. لم تنقض باقرباره .. ما دام الطريق إليه غير محفوف بالألام والأوجاع ..

وهي تحس حتى هذه اللحظات .. أن القدر قد نوى أن يجنيها الآلام .. وأنه قد اكتفى بما منحه إياها خلال عمرها .. وأنه سيمنحها آخره بلا موانع .. وحتى الآن لم تشعر إلا بأنها قد أخذت تعاف الطعام .. وأن قواها تحور يوما بعد يوم .. وجسدها يرق ويضمض كأنه ورق جف أو عود يس .. وأنها ترقد على الفراش بلا قدرة على الحراك .. وكأن شيئا غليا يستنفد قواها .. ويتركها

عاجزة .. خاطرة ..

ولقد استمعت إلى الطبيب يهيم إليهم وهو يغادر غرضها التي ترقد فيها
« لا فائدة » وسمعت ابنها الحبيب يسأله في صوت خافت حزين « هل ستأتم »
وأجاب الرجل « أرجو الله أن يرجعها قبل أن تتأتم » وسمع الابن يدعو من قلبه بعد
أن انصرف الطبيب « يا رب لا تجعلها تتأتم » .

ولا جدال في أن الله قد استجاب لدعاء الصغير .. الطبيب .. فحتى الآن لم
تشعر بألم ما .. لا شيء أكثر من الضمور والفزأل .. والعروف عن الطعام ..
والاقتراب من حافة القناء ..

وهي تحس أن حياتها تتسرب كالغاء في إناء مثقوب .. وعندما أقبل عليها
السيد سأله في استعفاف :

— لي رجاء عندك .

وأجابها هاشا في ابتسامته الرقيقة :

— خير ...

— أن أدفن في مداخلكم .. عندما أموت .

وبدا الطلب مفاجئاً له .. وغامت على وجهه سحابة حزن .. وساد الصمت
برهة وقد بدا عليه الشروع .

وأحسست بلسعة الندم وهي توهم أنها قد طلبت ما لا حق لها فيه .. وعادت
تتمتع بصوت خافت :

— أحسست أني قد أكون في ونس بجوار الأسرة كلها .. مع المرحومة
الغالية .. وسيدى الكبير .

وأجاب السيد وهو يربت ذراعها في رفق :

— أنت واحدة منا .. ولكن لا داعي لهذا الكلام الآن .. ربنا كريم ..

يشفيك ويمسحك طول العمر .

وبدت لها الأمانة مستحيلة وعادت تستوثق من أميتها القريبة .. الشقولة .

وهتفت من قلبها :

— كل ما أفتاه ألا أدفن بعيداً .. عنكم .

وظنفت على بعدها مؤكداً في ثقة :

— ستبقى معنا دائماً .. أنت واحدة منا .

وملأت السكينة قلبها .. وشردت بصرها من النافذة .. إلى الأفق البعيد ..

إلى شريط النيل الذي يرق في أشعة الشمس .. والبيوت والأشجار مرصوفة
كالدمى .. وجدران المقابر القاتمة واضحة في أسفل الجبل ..

ومن النافذة الأخرى هتت نسمة رطبة من الحديقة .. تحمل شذى
الياسمين .. وبدت الكرومة يعانقها المدلاة .. والأوراق الخضراء تتكاثف وراء

نافذة . والسم بصفر في غصون الجازورينا المحيطة بالحديقة .

وأطلقت تهبدة لرياح .. وتركت جسدها الفلأوى يسترخى على الفراش .

جميل .. أن تكون نهاية المرة .. في مثل هذا المكان .

وجميل أن تذكر كيف استقرت فيه .. عندما انتقلت الأسرة من بيتها في شبرا

إلى المقطم .. وأقبل عليها الصبي الصغير .. ابنها الحبيب .. ينضمها إليه ..

ويسأها أن تبص معه لأنه أحضر العربة لثقلها .. وسارت تستند إلى ذراعه ..

وهو يكاد يحملها ..

جميل .. جميل .. أن تشعر أن هناك من يحبك .. ويحشى عليك .. حتى ولو

كنت في طريقك إلى النهاية ..

وجلس في العربة متهاككة بجوار الصبي الخنون .. وهي تستند إلى كتفه ..

وقد أحاطها بذراعيه .. والمراثيات تتوالى أمام ناظرها متلاحقة .. وهو يسأها

بين آونة وأخرى :

— هل تشعرين بألم ؟

• وتغير رأسها هامسة :

— أبداً .

كيف تشعر بألم .. وصدره الخنوق يستعدها .. وفراعه تضامنها .. لقد اشتدت ذراعه الصغيرتان .. اللتان خمتاها وهو رضيع .. منذ أن تولت رعايته في مرضه .. وأضحى منذ ذلك الحين ابنها الحبيب .. وأخذت العربية تصعد الجبل وتدور في منحباته .. حتى توقفت أمام البيت .. ووجدت السيد والسيدة ينتظران وصولها .. وقال الأب باسمها وهو يرى الصبي يستعدها في رفق وهي تسير في المر إلى حجرها .

— هل تدريين أن محمد هو الذي أعاد الحجرة وربتها ؟
وأردفت السيدة تقول :

— أول مرة يفعلها حمادة .. لم أره يفعل شيئا مقيدا في البيت . وأحست بالفرحة تقعم قلبها وهي تستمع إلى الأبنين وتسير مستعدة إلى ذراع الصبي حتى وصلت إلى حجرها واستقرت على الفراش . وتعودت في رفقها أن تقلب البصر بين الحديقة .. والأفق البعيد الممتد وراء سفح الجبل ..

النبيل محمد كشرط يرقى .. والبيوت والأشجار كالدمى .. وكل شيء يبدو من بعيد .. وكأنه أبهامها الغائرة ..
كله يبدو .. كالوهم ..

الحقيقة الوحيدة .. هي هذه القابض الملاحقة لسفح الجبل .. والتي ستلوى بباطنها ذات يوم ..

الموت .. قد بات وحده .. هو الحق .. وما خلا .. زيف وباطل .. وهي لا تغشاه .. ولا تجزع منه .. ما دامت ستلقاه بغير أوجاع .. ولا آلام ..

ولقد دعا ابنها الحبيب الله .. أن يهبها الألم .. وهو لا شك مستجيب لدعائه .. ولم يعد عليها .. إلا لأن تنتظر في سكون .. وتدأ بكل ما يحيط بها من حنان .. حتى تغل النهاية .

ليس عليها إلا أن تقلب البصر .. في هذه المراتب البعيدة في الأفق .. التي تتضائل كأنها أحدثت حياتها ..

حياتها .. بكل ما فيها .. من آمان .. سراية براققة .. وواقع مكفهر مرير . حياة .. كل إنسان .. فرضت عليه تجربة الحياة .. ولم يملك إلا أن يتوخسها ..

ولكن هل حياتها حقيقة .. حياة كل إنسان .. بهذا الواقع الشقي يلاحقها كللع السياط .. والأمل السرائي يفلت منها كخفيضة وهم أو حفة هواء . خمسون عاما .. حملتها على كتفها .. حتى ناعت بها .. عدا بضع سنوات في الأوائل .. لم تستطع الذاكرة أن تعي منها حتى مجرد طيف .. وبضع سنوات في النهاية .. منحها نعمة الاستقرار .. وراحة اليأس .

منذ الخامسة أو السادسة .. تذكر بيت أبيها .. عم جابر .. وزوجته دلال .. في عيش الماوردي تذكر أباهما بلحيته التي وغطها الشيب . وزوجة أبيها بدلاها وتبرجها .. وأمهات التي لا وجود لها إلا في كلمات خاطفة وأحاديث عائرة تنم عن أنها كانت ولا شك موجودة .. في أوائل سنوات عمرها المطبوسة من ذهابها ..

كانت موجودة في يوم ما .. وإلا لما وجدت هي نفسها .. وكان ذكرها يثار خلال المناقشات الحادة التي تدور بين أبيها وزوجته . أو في نيمات أبيها عندما كان يخلو إلى نفسه ويترحم عليها وعلى أبهامها .

لم تكن أكثر من موضوع نقاش يثار بالصدفة .. ولم تكن هي نفسها تأبه كثيرا .. لما يقال .. فما دامت لم يعد لها أثر عليها بالضرر أو بالنفع ... وما دامت لا تستطيع أن تقيا قرصات زوجة أبيها أو صفعاتها .. وما دامت لا تمك أن تمنحها مليشا أو ملبسين تشتري بهما دومة أو جزرا أو براغيت الست أو مصاصة .. أو .. إلى آخر كل هذه الرغبات التي تلح في أغرائها بجوار الكوبرى أو حول الجامع .. أو في الطريق إلى ورشة أبيها .

ما دامت أمها كشيء غير موجود .. لا غفث لها ضرا ولا نفعا .. بل لا غفثت حتى أن تقبها الضرع أو تنزع النعع .. فهي لا تعبأ كثيرا بما إذا كانت تذكر أو لا تذكر ولا تعبأ كذلك بأى شيء تذكر .. ثم .. هبها عبات أو لم تعبأ .. فعماذا غفثت من قدرة التعبير وهي لم تكن قط طرفا في النقاش .. أو تصور أحد أن لها حق التعليق عليه .. كانت المسألة تبدأ كذلك .

يرفع أبوها جلباب الشغل بين فراغيه ليدخل رأسه في فمخته .. ويعبئ به القائلة ذات الثغوب والسروال الطويل المضطاض فا الشكة المذلاة ذات الشراريب . فيجد فيه مرقا فينادى في ضيق :
— يا دلال .

وتسمع قطعطة الفراش .. وزوجة أبيها تثقل عليه دون أن تحبب . وتترك الصبيحة الثانية تمر بانقلابية أخرى تعضى مزهدا من المصقططة .. وفي الثالثة لزوء في تيزم وفي صومها حشرة النوم :
— ها .

— الجلباب كما هو .

وترد في القضايب :

— طيب .

ويقول الأب في غيظ مكتوم :

— ألم أقل لك عيظيه ؟

وتحبب الزوجة وهي تحاول أن تعالوذ النوم وتنبئ الموضوع :

— طيب .

— طيب يعنى إيه .. لماذا لم تحببيه ؟

— الى حصل .

— وكيف أذهب للشغل ؟

— كما تذهب دائما .

— بالجلباب محرق .

— أجل .

— أمام الناس ؟

— ولم لا .

— كنت دائما مستورا .

— عند متى .

— زمان .. عندما كان هناك من يرعى أمري .

ويرتفع صوت دلال .. ويحول استرخاء العاس من صوتها .. وينطلق ردها .. في حدة .. كأنه الطلقة المفاجئة :

— جاتك ليلة عليها .. القرشانة .. الخبيجة .

ويكون الجلباب قد استوى على جسد الأب والنعل قد دس في قدميه ويحيى رده مستسلما كأنه يضع حافة للنقاش قائلا في صوت مسترحم مغلوب :

— الله يرحمها .

وتأتى دلال إلا أن تكون صاحبة القول الأخير فتجيب في إصرار :

— الله يرحمها مطرح ما راحت ..

هذا هو نموذج الحوار الذى كان يدور حول أمها .. لا تعرف هي أين كلمتها فيه .. ولا هل مطلوب منها التعليق عليه ثم تكتفى بالمشاهدة والإنصات .

ولا يقول بها الضحك حتى تسمح صرخة باسمها منبعثة من مرقد دلال :

— سيده .. بت بالى تفرصى ..

وتتب من فراشها الأرضى الذى استقرت عليه في الصالة الصغيرة التي وضعت بها الطفلة والوفيه الأحمر (آخر لون دهنه به أبوها منذ أسبوع في يوم عطلته) .

تفقر الصغيرة من الشلابة بمجرد وصول النداء إلى مرحلة (بالى تفرصى)

(نحن لا نرى الشوك جد)

فقد كانت المرحلة التالية هي أن تنقرص فعلا .. وزوجة أبيها أخصائية في القرص فيما تسميه باللياليب وهي باطن الفخذ .. تدأصابعها إليها بسرعة البرق .. فلا تتركها .. حتى تترك على الفخذين بصماتها الزرقاء .. كأختام الحراف المعلقة في عظام الجزر .

وتنهى سيدة في جزع وغوف .. من المرحلة التالية .. لتواجه زوجة أبيها .. وقد جلست على الفراش . بجسد ممل .. وقد تدلت ساقاها البيضاء المثلثتان . وبدت وسائل الفتنة في جسدها . مبرقة .. كل ثدى في ناحية .. ومتدبل الرأس قد انزلق على مؤخرة رأسها .. وانتضخت جفونها واعتلطت عموط الكحل في عينيها .

وكان هذا الجسد .. المكوم فوق الفراش .. مشحنا مهيلا .. مبعث فنة أهل الحى .. عندما يوضع كل شيء فيه في موضعه وتلمه الملاية اللب السوداء .. بشدة على الردفين .. تبرزان رجرجتهما في كل خطوة .. وقحة بين التدين تكشف عنهما .. عن عمد وسبق إصرار الزلاق الملاية من فوق الكتف إلى الذراع . وطارقة البهانة بين الشدين . وضحكة راضية .. أو زجرة ناعرة .. تجاه .. كل تعليق .. يطلق من جانبي الطريق .

وكان أول تعليق يصادف الجسد الملقوف المهتر من بائع البطاطا المستقر بعرته على ناصية الحارة .. بتصفيقة منتظمة من كفيه .. وصيحة يملؤها الحماس في نداء منغم :

— معسلة قوى .. يا بطاطا ..

ثم يميل تجاهها قائلا بصوت أقل ضجعة :

— بتصح .

وترد دلال في غبطة :

— صباح الخير .. يا عزوز .

وتبدو النشوة على عزوز وكأنه نال أمانة عزيزة ويردد في حماس مصحوب

بالتصفيق :

— يا صباح الفل .. يا صباح القشطة .

ويواصل الجسد المهتر سمره في الحارة .. بين التصفيق والتحيات وتلعيب الحواجب ..

وتسمع الصغيرة .. تعليقات مختلفة .. عن زوجة أبيها لم تكن تعرف وهكذا منهاها بالضبط ..

كان البعض يقال أمامها علنا .

كالحوار الذي دار ذات مرة بين يهنى بائع الكازوزة والثلج على باب الحارة . وبين أم عطوة بائعة الفجل والجرجير والكرات . عندما وقفت سيدة تشتري بنكلة كرات من أم عطوة . وصاحت بها تستحثها :

— يا لالا يا أم عطوة .

ونهرتها المرأة قائلة :

— مسروعة على إيه ؟

— مرات أبويا .. تضربني .

— تضربك إيه .. جاها عابط في نفوخها .. لو عاشت أمك .. ما استطاعت أن تدخل الحارة ..

وتدخل يهنى قائلا :

— الحق على المعلم جابر . الذي آواها .

ومصصت أم عطوة شفيتها :

— كان الرجل في حاجة إلى من يرعاه ويرعى الصغيرة التي معه .

— أم يجد غير هذه الملعب ترعى ابنته .. كان يجب أن يبحث عن شيء من توبه .

ولم تكن تعرف يوم ذاك .. ماهي الملعب .. ولا تعرف ماذا يقصد أن زوجة أبيها ليست من توب أبيها .. ولكن الشيء الذي كانت تعرفه هو أنها لم تكن قط

مصدر راحة في البيت .. بل كانت مصدر قلق لأبيها .. وعذاب لها .
كانوا يقولون عنها في الخارة إنها ملعب .. بحسبها الرقص المتأرجح .
واحتفالها من البيت خارج الحارة الساعات الطويلة . وعودتها أحياناً في ساعات
الليل المتأخرة في إحدى عربات الأجرة .

وكانت تعلم أن لها أعداءها الواضحة التي تسوقها لأبيها عن غيابها . مرة
عمتها غضبت مع زوجها وكانت توشك أن تنطلق . وقد اضطرت أن تمكث
معها . ومرة اضطرت أن تبيت لكي تطلع القرفة مع عائلتها .. ومرة كانت تعد
فطير الرحمة .. وأخرى كتبت كتاب نوسة بنت الشيخ زكي . وفي كل مرة لها
حجة . ولكن أهل الحارة .. لم يكونوا يدرّون شيئاً عن هذه الخجج ولو دروا لما
أقنعهم . فلقد كان لهم رأيهم الخاص في دلال الملعب . كانوا يقولون إن جابر لها
من الطريق .. وأن أمها كانت امرأة بطالة تعمل في دحيرة المذبح وأن دلال
كانت تحضر جميع قصاصة الورق من مضعة برعي وورشة التجليد التي كان
يعمل بها جابر في أول شارع السد البراق . وأنها قد راقت جابر بعد أن ماتت
زوجته لأنها حلوة وبنت حلال وبنيمة .

أما إنها حلوة .. فنعيم ..

أما أنها بنت حلال .. فأهل الخارة .. لم يصدقوا هذا الزعم من أول الأمر ..
فلقد كانت من يومها .. ملعب .. شكلاً وموضوعاً .

ومع ذلك فإن أحداً من أهل الحارة .. لم يجسر أن يقول رأيه فيها .. بل وحتى
إذا كان يجسر فلم يعرف كيف يقوله له .. ولا ما هي أدلته ..

هل كانت تكفي طرفة البياضة وهز الردفين .. في الحارة .. سبباً للالامام .. ثم
الاحتفاء والتأخر في العودة .. كيف يستطيعون أن يقدموها دليلاً على سوء
السلوك .. إذا كان هو قد أقر هذا السلوك ورضى عنه .

ثم .. ما هم .. ولها .. وله ..

إن لديهم من مشاغلهم ما يكفيهم .. وبكفي أن يعلق كل منهم على

ما يمس .. بما يريد ..

تلعب حواجب .. وتصفق أهد .. وصيحة إعجاب .. من المعجبين ..
وتبيدة سحق .. ولوية يوز .. وإشاحة قرف .. وأحاديث تشجيع .. من
الساعطين .. ومغضى كل إلى حال سبيله .

أما هي فلم يكن يهيمها في الأمر .. إلا أن تنفي من المرأة .. ملعب .. أو غير
ملعب .. قرصات البظ .. ولطعات الخنق .. ومن الرجل أبيها .. اللاليم التي
كان لا يفتأ يمنحها إياها .. بين أونة وأخرى .. وفيما عدا ذلك .. لا تريد سوى
أن تترك في حالها .. تفعل ما تشاء ..

ولقد كان لها في حياتها وتلك .. على كل ما فيها .. من مظاهر الحاجة
والخرمان .. أوقات متعة .. هي أوقات اللعب .. والانطلاق في الحارة .

ولم تكن ساعات البقطة في الصباح قطعاً .. إحدى ساعاتها الممتعة .

كانت تنام عندها تأمرها زوجة أبيها بالنوم .. في الليالي التي لا تكون فيها
خارج الدار ..

كانت تصيح بها من الشباك وهي تجلس مع أترابها على الرصيف يتناولن ما
اشترينه من كناسة المقلة الموجودة بجوار المطبعة في شارع السد .. أو يلعبن
السجعة أو يستمعن إلى حوادث أم عطوة عندما تأوى إلى حجرتها في المنصورة ..
وتنطلق صبيحة دلال .. من النافذة بالدور العلوي الذي سقط بياضه
فكشفت عن خشب جداره البغدادي ..

— بت يا سيدة .. مش كفياكي سهر ؟ ..

وقبل أن تمنحها فرصة الرد .. تنطلق نداءها .

— بت ياللي تنقرصني ..

وتندفع سيدة بأقصى سرعة .. وهي ترد صائحة :

— جاية .. يام ..

كانت تناديا به يام .. هكذا علمها أبوها .. وهو يطلب منها أن تبلغ

روحته طلبا ما . قائلا :

— قولى لأمك دلال . ألا ترسل غداء اليوم . لأنى سأكل فى المصمت مع

الحاج برعى ..

أو :

— قولى لأمك دلال . إلى لى أعود فى المساء . لأنى سأذهب إلى حلقه

الذكرى فى الماوردى ..

وهكذا عرضت عليها أم . . ولم تجد ما يجمع من قبولها . لأنه لم يكن لها

غداء سهل . ولم يكن لها أى شيء . يمكن أن تستحق منها الغداء .

وتصعد سيدة السلم المحمى وثبا وهى تشبث بخشب الدرابزين الذى طامنا

استعملته بطريق الرحلة . حتى تصل إلى الشقة وتسمع صوت دلال يأتى من

حجرة اليوم التى يتوسطها السرير الذى ترقد عليه بجوار أبيها وتستقر الكفة

أسفل نافذة المظنة على الحارة ويواجهها الدولاب ذو المرأة الكبيرة التى تسترق

سيدة النظر بها إلى نفسها كلما سحبت عرسة .

وتصبح دلال بسيدة عندما تسمع وقع خطواتها :

— الأكل عندك على الطلية . اقبل الباب .. واتمضى كل . واتمضى

بنى وكفاية صرخة فى الحواري ..

وبعزرد تجلس سيدة أمام الطلية . لتأكل بقايا الطعام الذى تخلف عن عشاء

الزوجين . كما تعودت أن تعمل . ولم تكن تذكر القايا . فقد كانت بعزرك

أفضل ما يمكن أن تحصل عليه إذا ما جئت هى وأبوها على الطلية . فقد كانت

وحدها تملك حرية أن تأكل ما تريد . وتترك ما لا تريد . وهى تترك الطليح البارد

دا المسس المحمر .. الذى يكون طبقة شمعية حمراء فوق سطح الطليح . وتتركه

الرر البات الذى يصطبغ بإصبعه بحمرة الحلة التى قالت لها أم عطوة ذات

مرة إنها سم . وحديثا من تناول الرر البات فى الحلة . ومع ذلك فهى لا تملك

رفض أى شيء يقدم إليها وهى تجلس مع أبيها وروحته . حتى ولو كان سما

حتى تصحب زغربات دلال .. وقولها فى غيظ .

— بت . ما له الأكل . اتسمى .

وكانت سيدة تفصل سم الأكل على سم الكلام . وكان عبدنا أن تردرد

كل ما يقدم إليها . راضية . حتى لا تصب فى خلق مشادة بين أبيها وروحته

من أجلها . فقد كان الأب كعادته يخرج منها معبود على أمره .. مستمعاً فى

مرارة

ومن أجل ذلك كانت تفصل أن تأكل وحدها أى شيء . حتى ولو

كانت القايا . مجرد فتات خير .. وذقة . أو فجل . أو رأس سمكة .. فلقد

كانت تستطيع أن تملأ بطنها الحواى بسهولة . من هذه الأشياء البسيطة التى

لا تعدم وجودها فى بقايا الطلية ..

وعندما تنتهى من الطعام وتلم بقايا الطلية .. فى صعيحة الرمال . كان عليها

أن تستلقى على الشقة المروشة بجوار الطلية . وتحرق عبدنا الغطاء . فكم فى

المطبخ فى الشتاء أو تستلقى كما هى إذا كان الجو صيفا ..

وتحرق مرة قد تطول أو تقصر وهى محدقة فى سقف الحجرة . ثم تستغرق فى

الوم حتى توقظها صرخة روجة أبيها فى الصباح .. أو تقف أحداً من قرعة ملة

العراش فى الليالى التى يعلق باب حجرة اليوم دوسا . وتسمع الباب يفتح

ويعلق . وتحس بخطوات تروح وتحب بين الحجرة والحمام .

وأحيانا توقظها حركة أبيها عند الوضوء والذهاب إلى جامع الماوردى

لصلاة الصبح . وأحيانا أخرى يعلبها اليوم فلا توقظها إلا رصة فى ظهرها يقدم

زوجة أبيها ..

وصباحها لم يكن فط . صباح خير . رغم ما كانت تسمعه من أفواه كل

الناس .. عن صباح الخير ..

فمن صرخة دلال . إلى مسح والكس . ولانطلاق لمشتري احتياجات

الدار . والعودة لاستبدال بعض ما أحضرت لعدم صلاحيته . ورفض

الإبدال .. ثم علفه تأخدها في الهابة خيتها . لوجهها الذى يقطع الحميرة من البيت .

وعينا بعد أن تنتهى من كل هذا أن تحمل الطعام إلى أبيه في مطبخة برعى . ولعل هذا أحد انشاور المنعة بالنسبة ها . فقد كانت غالبا ما تعود منه بصحة ملائم . تستطيع أن تحقق بها الكثير من أمانيها والتي لا تعدى الحلوى والأطعمة التى تطالها في عراء على قارعة الطريق .

وفي المطبخ كانت تلقى بعض الحب من الماح برعى . ثم كانت تستطيع أن تجد من أبيها نوعا من الأتس والبشاشة تفتقد لها في البيت وسط التوتر وجو الإرهاب الذى كانت دلال تثيره حوها ..

وعندما تعود إلى البيت كان حير ما تلاقىه . هي ألا تلاقى دلال . فعندما يظهرها أخبر أن أبيها اعتقت باب الشقة وحررت وأنها علمت منه أن يأخذوا ما به من البيت عندما ترجع ..

وتنطق الست لتشارك بيت الهارة كل ما يمارسه من أحد به حبل وحيلة . واستعانة . وشعبه على كوبرى السكة الحديد الواصل بين الماوردى والميرة ..

تلك هي أيامها الأوائل في بداية حياتها . وتلك هي الصورة التى يمكن أن تنوتر على ذهنها . حتى حرح أبوها هي الصورة . وتعرضت للحياة . ووجدت نفسها معاة وحدها . بلا أب وبلا روجة أب وبلا أى شيء أبدا

(٢)

يوم حافل

كان يوم مولد الماوردى . ومد أسبوع والحى كله تشيع فيه البهجة أصواء حول الجامع . ومراسم وألعاب الشبهة ربهدة . وفتح عبيك ناكل ملهى . وعلى نور .. وعاء ورقص وهبة ما بعدها هبة . كانت أيام المولد .. هي أكثر أيام السنة بهجة وطربا . وكانت عاقبتها هي الليلة الكبيرة .

ومد الصباح استيقظت سيدة . تشيع في نفسها فرحة تلعب كل ما عدها من مشاعر حيق أو خوف تصاحب بقطتها الطيعة كل يوم . فقد كان اليوم حافلا بأشياء مبهجة .

وقد وجدت نفسها تفتح عبيها وتفر دواعيا وتشد جسدها الصغير في غلط يد يد وتقبلت على وجهها ثم اعتذلت على طهرها . دون أن ترعها صراحة روجة أبيها الباهرة بأن تقر

وكان صوء الصبح قد أخذ يتسرب من الباردة وشعاع أحمر رفيق قد احش الأرض متسللا من نافذة المطبخ ونحمة معال قصيرة تأتي من باب عرفة أبيها . وصحت دلال تقول في صوت نائم :

— انقل للشباك يا جابر .. الدنيا بردت .

وكانت سمه صباح سيمر تيب باردة . لا تتم عن قيط النهار وفقرت سيدة من مرادها وهي تود أن تطلق ليلدا يومها الحافل .

وقبل أن يتحرك أبوها ليعقب الباردة . كانت هي قد اندفعت إليها قائلة . — أقضه أنا يام .

ولم تحب دلال .

وعاود جابر الاسترخاء في ارتياح قائلا لسيده :

— كتر خيرك يا سيده .

ولم تعرف بمدى تحب سيده وأعلقت رجاء النافذة .. ثم همت بالخروج من الحجرة عندما سمعت صوت دلال يتسائل :

— إيه اللي صحاك من النجمة .

— الشمس طلعت يام .

— كل يوم بتطلع .. وانت غصودة .

— انت ركية مرات اخج برعى . حاتفرق العول والعيش بدرى

— وانتي مالك .

— قالت في المباح .. أن أحضر لمساعدتهم في التعريق

— قولى كده .. همك على بطيخ .

وقبل أن تعاد سيده الحجرة .. علا صوت في الحارة ماذها يصيحه تشق
سكون الصباح :

— بيض النحاس .

واعقدت دلال في فراشها وهتفت بسيده .

— لمى النحاس من المطبخ .. ونزله لعل للبيض .

وفي حرة بشطة اندفعت سيده إلى المطبخ وأملت من النافذة الصغيرة لتصبح
مادة .

— عم على .. يا عم على .

ورفع الرجل الأعرج الحبل رأسه إلى مصدر الصوت وهو يردد اللاء .

— نبيش النحاس .

وعادت سيده تهتف

— استنى يا عم على ..

وتوقف عم على ثم أنزل نخرج عنه البياض من فوق كتفه ، وبدأ يساقط
عصاوي تبرك من سروال لا يعرف له لون من حرط ما علاه من حياض
وتراب ، وفائلة محططة . كانت فائلة كره فيما مضى من الرمان ويرر عنقه من
فتحة الفائلة وقد ركب عليه وجهه كأنه إحدى دمي العرائس واتسعت شعثاه في
ابتسامه راضية تأثرت حوها كتلة من الشعر الأشعث احتلط بها شعر الشارب
بالحية بالرأس وهتف بسيده بعد أن ميز صوتها :

— انزلى يا سيده .. جهل استغناحك لى .. يا بنت جابر ورقية ..

وهبطت سيده تحمل فوق كتفها مجموعة من الخلل وحبية الفلفل والمنصاة
ووضعتها أمامه وهي تحبب في بشاشة قاتلة .

— صباح الخير يا عم على .

— صباح الخير يا سيده .. ازاي أبوكمي .

— الحمد لله ..

— لم نره في الجامع هذا الصباح .

— ما زال نائما .

— سلامته .. ليس من عادته ألا يصل الفجر حاضرا ..

— أنه متعا .

— أيام المرحومة . لم يكن يموتها الصبح أبدا .. كانت صحته كاحصان ..

وبدا على في إخراج الأحبة والفقادوم وأخذ في إعداد الحفرة التي سيدفن فيها

فرحة النعاج ورعى فوقها بصعة قوالب طوب . وواصل حديثه قائلا :

— كانت له أيام . لقد أغلق مرة شارع السد بحاله وضرب رشواك فتوة

المديح حتى جعله يعلو أعمامه .

وأخرج على من الخرج كومة من العجم بدأ يرصه في الطرف الآخر من

الحفرة وهو يقول :

— لم يبد غير موت المرحومة . كانت مت ولا كل المستات . الحمى

حلصت عليها . بعد ما ولدتك بكام شهر .

ولم نجد سيدة حديد، فيما قلناه على المبيض ففقد سمعته منه ومن أهل الحي كثير . وكانت تعرف ما سيقوله بعد ذلك . وبعد أن رجع الرجل المرحوم بدأ في قوله .

— هذه موت المرحومة أمث . وأكملت عليه الولية دلال . لست أدرى ما الذي لهُ عليها

ومد على يده وجذب سيدة وأجلسها بجواره قائلا :

— أنا أعرفها يا سيده جيد .. أعرفها هي وأُمها من دحيرة المديح لم أخفض صوته وهو يقرب شفطي من أُنْها عاسا :

— كنت مع أمها مرة في لئال رينيه .. وكان الوقت ظهرا والشمس تلتسع القفا . وهبطت أنا وهي في إحدى الحفر بستر من الأظفار ونستظل بظل الحفرة . ولم يكذبنا حتى فاحأنا عساكر الفحاة . وتركت عدة البياض في الحفرة . وانطلقنا هارين . واستبقاها العساكر .. وأطلقوا سراحي بعد أن غفروا كرابجين ما زال أثرهما على ظهري حتى الآن .

وبدأ على يحرك المناع ليشتعل النار في القمح ووجدت سيدة أن هذا الخراء من حديث عن المبيض جديد عليها فأرجمت سمعها جيدا .. وتساءلت قائلة .

— وبعدين يا عم على ؟

— ولا قبلين راحت على العدة . ونبت إلى الله . من مشاوير الحبل ..

وصمت برهة وهو يخرج القصدير من الجراب وعاد يقول :

— وأصبح نذهب إليها في البيت .. وكانت دلال قد كثرت وضحت ..

وبدأت تدخل في الكار .

وهو رأسه في أسف وأردف .

— وبعد ذلك رمينا بتقدير . في حريق أبيث . واستعاضت أن نلهم .

ومروجا .

وأُعيد على يدك الحفرة وهو يتهد قائلا :

— دنيا .. من كان يصدق

ترجعت سيدة أن الحديد في حديث عن قد استعدت وصحت من جوار

الرجل وهي تهم بالعودة في البيت

ورفع على رأسه مسائلا :

— إلى أين ؟

كانت سيدة قد تعودت أن تشترك الرجل دائما عصية البياض كان البع في الشار يستويها . وكانت تمارس عملية الوقوف في الحلة وتحريك القدمين في كفافا من لعبة الحفنة . وبسط لحبل . ولكنها اليوم كانت تشعر أن لديها أشياء أكثر جدية من معج باللمعاح وبخورد في حبل .

ورددت على سؤال الرجل قائلة .

— البهارة المولود يا عم على .

— وما له . هو البهر لسه طلع

— ست ركية مرات العج برعى حاترق فول وعيش

— وانت مائت

— حاساعدها

وعملت أساليب الرجل ورد قائلا .

— متاق لنا برعيعين .

— طبعها

وبعض على وجديها من ذراعها ثم همس في أُنْها مسائلا .

— حاترق عمة ؟

— ضروري .

ورفع على كفيه إلى السماء وقد اتسعت شفتاه عن انضمامه عربيه كشتت

بقايا أسنانه ودعا إلى الله قائلا :

— يجعل استفتاحك لبن

ثم استدار يهيم في أذنها قائلا :

— حايكون لنا نصيب ..

وبدا التردد على سيدة قائلة :

— أنا لا أقدر إلا على القول يا عم على .

— ابقي اسجري رغيف لحمه على جب .. حفيكى ماضحة احقيه في عيك .

وانطلقت سيدة تملو إلى الداخل تثب فوق درجات السلم ولم تكذب تلعب الدور الأول حتى سمعت وقع أقدام عيط الدرج .. استطاعت أن تميز فيها خطوات أبيها بطيئة متعاقلة .

وعلى البسطة انتفت به يقف في مواجهتها ووجدته أمامها طويلا عريضا . وذكرت قول علي الميصر . كيف كان . وكيف أعلق شارع السد وصر بفتوة المديح . ولم يطل تكثيرها في ذلك كثيرا .. فقد ذكرت ما كانت تحتاج إليه .

كانت تريد قرشا ..

قرشا بأكمسه .. فهي لم تستطيع الاستمتاع بالمولد . إلا وهي تملك هذا الشيء الساحري . الذي يستطيع أن يفتح لها أبواب المولد .. يدخلها السرك . ويركبها المراحيل ويضعها الكدة بالشطيطه . وعلى لور . و . و .

كل هذا يمكن أن يعمله القرش ..

أجل .. لا بد لها من شيء أكبر من اللقيم .. والشكلة ..

ورفعت سيدة رأسها إلى الرجل الطويل وقد بدت على شعته ابتسامة حنون وقالت في صوت يملأ التردد والحشية ..

— آيا .

— نعم يا سيدة .

— عابرة .

ثم صمتت برهة . وهي تستكثر على نفسها ما توى أن تطلبه . وعادت تقول وقد تلاحقت أنفاسها :

— عابرة

— عابرة إيه يا سيدة ؟

— عابرة قرش .. أصل الباردة المولد . و .

وقبل أن تكمل حديثها ميرة أسبب طلبها دفع الرجل يده في جيبه وأخرج كيسه .. ثم أخرج قطعة نقود ومد بها أصابعه قائلا :

— حدى قرش .. يا سيدة

ثم رفع رأسه إلى أعلى في شيء من الحذر . وأردف قائلا :

— لا تخبرى أمك دلال .

— حاضر يا يا ..

ورفعت إليه عينين ملؤهما الفرحه .. والشكر ..

ومد ذراعيه ووضع كفيه تحت إبطيها ثم رفعها إلى صدره وأحسنت بمسها ترتفع إلى محاذة وجهه فمدت ذراعيها الصغيرتين وأحاطت بهما عليه ووضعت وجهها في لحته . وقلته . وهو يهيم بها قائلا :

— اشترى ما تريد يا سيدة .. لا تبقى من النقود شيئا .

وسمع صوت دلال من أعلى يصيح ماديا :

— سيدة . بت يا سيدة .. سيدة ياللى تنعمرى .

وصاحت سيدة وهي عيط من ذراعي أبيها قائلة :

— حاية يام .

ثم انطلقت تصعد السلم وهي تقول لأبيها :

— سألقى بث على المظطة .. لأساعد الست أم عباس في تفريق النعوم

ووجدت سيده إلى الشقة لجد دلال واقفة بالباب تنظر إليها بانفرة

— بتبني إليه تحت ؟ ..

— أعطيت الحاس للبيص .

— سة ؟ !

— مسافة ما دق الحجرة .. و .

— وانتي مالك تعمدي لعابة ما يدق الحجرة . قلت لك مين مرة . عطل

حشرة في الرجالة . يا ملفوعة ..

ومدت يدها فجذبتها من شعرها إلى الداعل

وكانت سيده قد استطاعت مد ذلك الخيط أن تمى . معنى كلمة السباب

التي يعتبها بما كانت نصاحبها من مترادفات تطلقها دلال ببساطة .. وكأنها أوصاف طبيعية لا تقبل الجدل .

وكان عليها أن تبني عملية الكس والمسخ قبل أن تطلق إلى الورشة . وكانت

في الأيام العادية يمكن أن تستغرق منها إلى الصبح أو حتى إلى الظهر . إذا

كانت راحة أبيها عالية عن الدار بكل ما يتخللها من وقوف في البادية .

ولعب في أذراع راحة أبيها ومحاولة تقيدتها في وضع الأحمر والكحل في وجهها

وتأمل نفسها في المرأة والنوم على الفراش والماء ومعاكسة الباعة

والجارة والخيول إلى آخر كل ما كان يتفق معه ذهبا وهي تقوم بمهمة تنظيف

البيت .. وحدها

ولكنها اليوم كانت في عجلة من أمرها . وفي سرعة البرق استطاعت أن

تسكب مياه على الأرض وتمسحها بعم كسر . وبعد رهة كانت بغف أمام

دلال وهي تمسح شعرها بالعلاية البيضاء متسائلة في همة .

— أروح بقى للست أم عباس يام ؟

— ملحوفة على يه ؟

— قالت لي امبارح . تعال من يدري . لكني مفرق العول والعيش .

— ألم تأت بسيرة اللحمة ؟ ..

ولم تكن سيده سمعت شيئا عن اللحمة . ولا تعرف هذا كان الحاج برعى قد

بوى أن يفرق أرعة اللحمة هذا العام أم سيكنى بالمول والعيش .. ولكنها

أدركت مدى ما يمكن أن يكون لحمة من جدية في نفس دلال . ومدى

ما يمكن أن تسهلها الانطلاق من البيت .. فلم تلبث أن رددت في ثقة :

— سمعتها نقول للحاج برعى .. اعمل ترتيك .. حانقرق اللحمة بكرة مع

القول .. للحباب .

ولم يكن هناك شك في أن عم جابر وأسرته يدخل في نطاق الحباب . ومن

وراء شعرها المدل على عصبها تتخلله أسنان العلاية . نظرت المرأة إلى سيده قائلة

في لهجة محسرة :

— ترجعي على طول على البيت .. إوعي تروحي بالحاجة ها واللأها .

ونظرت سيده متسائلة في خوف .

— لكن أذهب إلى المولد ؟

— هاتي اللحمة .. وبهين روعي في داهية .

ودست سيده قدميها في القيقاب المصوغ خلف الباب وهيبت بصع

درجات تطرق حشر الدرج بخشب القيقاب . ولم تكد تصل إلى البطة

الأولى .. حتى سمعت القيقاب من قدميها . وامتنعت ظهر الدرابير ..

تقارص ثوبى مصات اليوم بالانزلاق حتى النناء ..

وبالأيام مرت بمن البيص . وكان قد بدأ عملية جلي الحاس بالحجرة وبدأ

الوقوف في قاع إحدى الحلل تمهيدا لدعكها بقدميه . ولم تستطع سيده أن تغاوم

إعراء العملية الراقصة التي كانت تعاونها عم على دائما . خلال عملية

ألياس

فدعت الصعاب من قدميها وأراحت الرجل جانبا لم تقصرت إلى داخل الحمة

(نحن لا نزرع الشوك جدا)

وبدأت تحرك قدميها بسرعة وهي نهر جسدها الصغرى بمسة ويسرة . كانت
مرصتها الوحيدة في ممارسة الرقص دون أن تتعرض للنهر من أحد

وبعد برهة مد على يده ليوقتها قائلا

— كفاية يا سيدة . عدى الحلة الثانية

وبكى سيدة تذكرت المشوار اعصب إلى مصها . صفرت من الحلة ودست
القباب في قدميها الصغرى قائلا .

— عى إضلك يا عم على .. ورايا شغل . التارده المولد .

وهتف بها على وهي تطلق في الحارة .

— لا تنسى اللحمة .

وقبل أن تصل سيدة إلى آخر الحارة أحسنت أن القباب يعوقها عن الحرى
صحبته من رجليها وأمسكت كل فرقة بيد . وعاودت الحرى ..

ووصلت إلى شارع الخليج . وبدأ الجامع عاصا بالهيام والمراجيح . وم يكن
الرحام قد بدا بعد .. وكانت حركة الناس بعيفة متكاسلة . ورائحة الشواء في

عربة الحكمة والكتاب الرجاجة البيضاء لم تتصاعد بعد . وم يكن أثر هالك
نصيبة الكدة . ولا لمرية على نور . لا شيء من المهرجات أكثر من عربة

الجواقة .. التي تغلب رائحتها على كل ما عداها

وسألت نفسها ..

تشتري جواقة يا سيدة ؟ . وتصيبي الملووس ؟ .. وما زال أمامك الكثير
مما تعلمه ؟

وصرفت نظر عن مسألة الجواقة رغم رائحتها الفخادة التي تخترق
حياتها

ولكن فادا لا تمر في طريقها بشجرة الجواقة بيت الأسويلى ثم بالخفة في
بيت الشاوى . لقد أعاد اليك في الاحرار . وتستطيع بطوبة أن تسقط بعضا

منه .

ولكن كل هذا ليس في طريقها . ويحتاج إلى لفة طويلة لا . ليس
هذا وقته .

بها يا سيدة إلى الورشة . حيث العول والعيش .. ومن يدري . ربما
اللحمة ..

وإذا لم يكن الحاج برعى قد موى أن يعرق لحمة هذا العام فمادا تقول لروجة
أبيها ؟

« تتعلق » . تاكل فول وعيش كفاية عليها ..

وبهذا سيدى أبو الریش بقتة المخططة حيث تتراحم عربات الحصار وتتعالى
بدايات الباعة متفارة مخططة بصباحات الناس ونجحت يسار مع ترام ه المتجه في
سكة المذبح وصمعت صوت دورانه فوق القصبان .. شيئا أشبه بالأنيق
الصارخ .

وبدت ها الدحديرة على اليمن بعد شارع العيسى . تبدو كأنها العالي بمحتر
مها الماء الأس وتكوم على سطحها القادورات . وبدت الأكواح أعلاها في
عصوس منير . كانت تعرف أنها لا تستطيع أن تصعد إليها فقد سبق أن سمها
أبوها من الاقتراب منها .

ولقد سمعت اليوم من على الميضى أنه كان يذهب إلى أم دلال هناك بعد أن
طارده عساكر الهجاة من إحدى حفر تلال رينهم عندما كان يختبئ هو وهي .

لمادا كان يختبئ ؟ ولماذا بدأ يرورها ها .. فوق تل القدمة والماء الأس ؟
كان يفعل أشياء .. عيب ..

ولماذا عيب ؟ وأبوها يقطعها ولا شك داخل حجرته .. مع دلال .. عندما
يعلقان الباب عليهما ..

لا شك أنها لا تفعل بطور زواج ..

قطعا . لم يكن عم على روجا لأم دلال . وهما يختبئان في الحفرة فوق تلال
زعمهم . وإلا .

لما احباً ..

ولكن لماذا لم يتزوجها .. كما فعل أبوها مع دلال ..

ولكن حتى أبوها ودلال يطلقان الباب ..

إنها لا شك .. مسألة صعب .. لا تقارس إلا عاقبة ..

ولكن لماذا يمارسونها ..

وبدت المسألة كلها عاصفة ..

أسئلة بلا جواب .. لماذا ؟ لماذا ؟

ولكن لماذا ترهق نفسك هي .. في الأسئلة ؟

وانحدرت في شارع السد .. وبدت على اليسار الفلاحة المعلقة في مدخل

الرفاق المسدود .. مطبوعة برعى مطبوعة وورشة نجيد ..

ودخلت سيدة الرفاق .. وبدت لها واجهة المطبوعة .. وقد انفرج بابها

لخشبي العريض عن المصطبة التي يجلس عليها الخاج برعى ويواجهه أبوها على

مصطبة مقابلة وصمت عليها القوام الخشبية التي رصت أسفلها الملازم التي

تصممها النجارة المشدودة .. ووراءها أبوها يضع المذمة فوق المذمة ويهدد عليها

الخط ويخواره إتمام أسود ملء بالشيا المطبوع .

وفي الواجهة بدت مطبوعة اليد وبخوارها صندوق الخروف وعلى اليسار

ماكينة القصب ذات السكين الحاد الخفيف الذي حذرهما من الاقتراب منه وإلا لعب

أصابعها . كما غفل أصابع عثريس وأسفل الماكينة أكوام من قصاصات الورق

التي كانت تترك لها حرية العبث فيها .. وحمل ما تشاء فيها .

ووقفت سيدة أمام الخنج برعى بعد أن نقت الفيقاب من كفتها إلى قدمها

وختف الرجل العجور الطيب وهو يحرك مسبحة بين أصابعه .

— صباح الخير يا سيدة .. ماذا أتى بك ميكر ؟

— أتيت لمساعدة ست أم عباس في تفريق العول والعيش .

— كل سنة وانتى طيبة .

— وأنت طيب .

— هي فوق .. اطلعي لما .

وكان سرل الخاج برعى يقف فوق المطبوعة بباب و الرفاق على يمين الباب

الكبير . وباب آخر من داخل المطبوعة .

وقبل أن تتجه سيدة إلى الباب الخارجي . ختف بها الرجل

— تعال يا سيدة .

ثم مد يده في جيبه فأخرج كيس النقود .

— خذى .. هذا . اشترى لك حاجة من المولد .

وأسكت سيدة بالفرش .. لتحصسه في فرج .

هذا يوم ملتزج .. حافل ..

معها الآن ثلاثة فروش .. يجب أن تجلس لتوصف حالها على مهل .. مستدخل

أولا .. إلى السوق .. ثم ..

ولكن ليس هذا وقته ..

بعدى . عندما تنتهي من مهمتها مع الست أم عباس وتحمل الأمانة إلى روحه

أبيها .. وتغلك حريتها بعد ذلك .. تستطيع أن تجلس وتفكر .. وتضع برنامجها

كاملا .. لهذا اليوم الحافل .

والآن .. إلى فوق ..

— اقمى هذا لغاية ما نعى الشفق وتروح معاها لسيدي الماوردى .
— اليك سيدي مستعمل لك ما تريدس . ومتشعب معك إلى سيدك الماوردى .

ثم نظر إلى سيدي مستحدا

— والا إله يا سيدي

— على عيسى ورأسى يا سى عباس

— سيبى نقى يام

وأطلقت الأم سراحه .. حرك نجاه سيدي هابطا السلم وتوقف أمامها مرة وهو يتأملها بغرة فاحصة وعجأة مد يده وقرصها فى صدرها بسبائه . وإيمانه . فصرحت سيدي فرجة

وصاح عباس صاحكا .

— مالك يا بت تخضيتي كنه .

ومرة ثانية عاد يجلد بها من صدرها مقبها .

— بكرة بقوا ويقوا الور

ولم تعرف عاداً تقيب سيدي هل تفرح لأن صدرها (حابى ويقي نور) أم تعصب أم تحفل . ونظرت إلى أنه مستحدا . فوهرت عليها أنه الرد بصياحها فيه ناهرة

— إلهى تشفح يا عباس يا سى برعى . ليس وراك سوى الحرس والمصاح .

وأشارت إلى سيدي فى لحظة حارمة . كأنما كانت سيدي شريكة فيما حدث من جرس وفضاخ

— عشى يا بنت .. هالى سبت العيش وتعالى ورايا .

وبدأت أحلام سيدي تتبدد رويدا رويدا .. بدخلوها الشقة .. عندما اكتشمت أن المساعدة المطلوبه منها لم تكن مجرد نوع من تفارغ الولد الذى يمكن

(٣)

لماذا عدت ؟..

انطلقت سيدي تنب فوق درجات السلم بقدر ما يسمح لها القناب . ووجدت أم عباس تقف على البسطة وأمامها أسيّة العيش وبجوارها عباس تصبح به :

— لا فائدة منك أبدا .. طول عمرك يارده .. وانت كنه .

وبدأتها سيدي بالتمحية قائلة :

— صباح الخير يا خالتى أم عباس .

— صباح الخير يا سيدي .

— أنا جاية أساعدك .

وقبل أن تتم حديثها قاطعها عباس قائلا :

— سيدي مستعمل لك ما تريدس .. هالى الشلى ودعسى أذهب .

— تذهب إلى أين ؟

— قلت لك سأذهب إلى السبنا الأهل ..

— نصف فركك كفاية

— هات يا شبعة .

ومد عباس يده فاخطف كيس النقود من صدرها وأخرج ما يريد ثم وضع الكيس مكانه وهم بالوثوب إلى السلم . ولكن أم عباس أطبقت على كم جلبيه صائحة :

— والنسى ما انت دارل ولا شايف السكة بينك .

— ويهدين معاكى يام .

أن تقتصر على حشو الأربعة بالثول واللحمة ثم الخروح لتوربها بجوار مقام سيدى الماوردى . بل كانت يوما شاقا من التقيض والكس والسح . بدأت بحمل الأربعة إلى السطح وهرشها مقلوبة على وجهها ثم دعكها ببطء الحلة لإخراج الأثرية . حتى احمرت ركبتيها من اللب والدوران بالعطاء على ظهر البلاط الخشن .

وغولت بعد ذلك إلى مسح البلاط بالفرشة وأم عباس ورائها ترقى الأرض بانهاض بصفيحة بين يديها . وهى تأمرها بأن تعيد دعت كل بلاطة حتى كاد البلاط يوش وبناكل .

وتلا تنظيف البلاط مسح رجاح التوائد بالجراند القديمة ..

ولم يكند يتبى مسح الرجاح حتى جرتبا إلى الحمام لتأخذ معها عسب ..

وأحست سيدة كأنها فى دوامة . وبدت لها دلال روجة أبيها بحة . لأنها لم تلق بالاقط إلى بضاة المنزل . وكانت تتركها تمارسها كيما شابت . فقد كانت أكثر اهتماما بنفسها . حسدا ووجها . كان الحمام والتمشيط والريسة هى الأهم . ولم تكن تطلب من سيدة أية مساعدة فى هذه المسائل .. اللهم إلا إشعال وابور احار ومنه الصبحة وأحيانا دعت ظهرها بالليمة . أو المساعدة فى تمشيط شعرها بعد الحمام . وهى كلها أعمال نافهة إذا قيست بهذه الأشغال الشاقة التى فرضتها عليها أم عباس .

وأخيرا وبعد أن كاد ظهرها يقصم . وبعد أن انتهت من مساعدة أم عباس فى نشر آخر قطعة عسب فوق السطح قالت أم عباس وهى تنصص عن يدها قطرات افاء وقد بدا الوشم الأعصر فى أسفل كعها عند باطن الرسع .

— نزل بقى نوضب الثول والعيش .. وناكل لقمة .

وكانت حقيفة فى أشد الحاجة إلى اللقمة . إذ كان الوقت قد جاور الظهيرة . ولم تعرف ماذا يمكن أن تقول دلال عن غيبتها الطويلة هذه ولا كيف ستلقاها

المهم أن تأخذ لها بعض أرغعة اللحمة .. إن كان هناك لحمة .

وهبطت الدرج فى أعقاب المرأة الطويلة القائمة العريضة المسكين القوية الذراعين كأنها رجل .

ودلفت ورائها إلى المطبخ وأحدثت المرأة تكشف الحلل الكبيرة المروصعة على مضطربة خشية قاتلة :

— بضع اللحمة أولا فى الأربعة الطرية الموجودة فى السب .

وتنصت سيدة الصعاء .. وأحست بأنه لم يعد هناك ما تخشاه .. من تأخيرها فى العودة ..

ستحمل الأربعة إلى دلال .. وستخصى واحدا منها .. لنفسها .. وواحدا .. لعل المبيض . وثالثا لأم عطوة ..

ولكن ماذا سيبقى بعد ذلك لزوجة أبيها .

سترى كم تعطينا المرأة من أرغعة بعد الأشغال الشاقة التى حكمت عليها بها طوال اليوم .

واتنصت لإعداد الأربعة .

ومدت أم عباس يدها بشقة بها فول . قاتلة ببساطة :

— كل هذه يا سيدة ..

هكذا . بعد طول التنب .. تمنحها شقة فول . كأى شحاد على باب الماوردى .

على أية حال ستعرف كيف تأخذ نصيبها من أرغعة اللحم التى ستحملها إلى البيت .

وأخيرا بدأ الموكب فى السير . حملت هى سلة على رأسها وحملت المرأة سلة أخرى . وأمرتها بأن تبعها . وكانت السلطان فول .

ولم تعرف متى ستعطونها نصيبها من اللحم .. فقد تركت سلة أرغعة اللحم كإحدى .

وانته الموكب الصعير إلى مقام الماوردى . وكان الرحام قد بدأ . وصوت
دراجيح يتعالى غلظا بصيحات المجاديب وسدايات الباعة ودقات طبول
السرك .

وأحدث أم عباس تشق طريقها وسط الرحام بالدراع والساد .
وتعالت صيحاتها الناهرة وسط الجموع :
— وسع بالي تشك في لسانك ..

وتتلو الصبيحة المنيرة نداء صارخ لسيدة

— قرى يا بت .. هو انتي ماشية على قشر بيض .

وأحمر ابع موكب الشائى يحمل السلين باب انقام وأمرلت أم عباس القعة من
على كتمها وجدبت الأخرى من فوق رأس سيدة ورصت الفنتين أمامها .
وبدأت عملية التوزيع .

واندفع روار الماوردى من المجاديب واحتملين بالمولد على الفنتين ولم يد من
الموكب الصعير شيء . احتسى كله في الرحام . وفي عصية عين لم يت في
الفنتين قطعة غير .

وتاهت سيدة وسط الرحام . ولم تعد تعرف أبى أم عباس . ولم تشعر أن
لديها رغبة في معرفة . بعد أن فقدت الأمل في أرفة اللحم . وبعد أن أصاحت
يومها في الأشغال الشاقة بمول الحجاج برعى .

على أنه حال لم يضع اليوم سدى . فقد كسبت من الحجاج برعى ثرشا . وهو
بشكل بالإصافة إلى ما أحدثه من أنها ثروة مستطيع أن تحقق بها كل آماني العمر .
ولكن ماذا ستقول لدلال .. عند عودها للمزل .
وماذا يدعوها إلى المزل .. الآن .

إذ العلفة مصمومة . فساد لا تؤجلها حتى تستمتع بيومها . أجل .. ليس
هناك ما يدعوها أبدا للعودة إلى البيت
لنطلق الآن في المولد وليحدث بعد ذلك ما يحدث .

ماذا تفعلين يا سيدة

يجيب أن تدبر أمرها ..

ولكن الأمر لا يحتاج إلى تدبر ..

عربة على لور تقف أمامها . يجب ألا تصعب أى وقت في التفكير .

ودفعت الصبية المخططين بالعربة حتى وصلت إلى حاجتها وصاحت بصاحبها

— يا عم .

ولم يجيبها الرجل فقد كان مشغولا في وضع الملقوق في عم أحد الرمال من الصبية

المخططين بالعربة . ولم تنتظر سيدة الرجل ومدت يدها إلى المؤشر الحديدي الذي

يتحرك في محور دائري فوق الصبية المقسمة إلى عدة أقسام تكون كل منها حلقة

مستقلة تلتقي في مركز الصبية الذي ثبت فوقه المؤشر وقد وضع على كل حلقة

رقما يبين عدد المرات التي يتناولها اللاعب إذا ما وقف المؤشر على الرقم .

وبدأ المؤشر ينف حتى وقف فوق رقم أربعة وصاحت سيدة بالرجل :

— أربعة .

ونظر إليها الرجل زاجرا :

— الفلوس يا بت .

وصاحت به سيدة ترد على زجرته برجة أكثر حدة .

— غدا .. ملأنا نظن . أنصب عليك .

ودفعت إليه بالقرش الذي تناولته من الحجاج برعى .

وحصر الرجل القرش جيدا ووضع في جيبه . وعادت سيدة تصيح :

— هات الباقي

— بكلم تريدين .

— دورى .

ومد الرجل يده في جيبه فأخرج بضعة مبيعات سلمها إليها وهو يعاود وضع

الملقعة في فم الصبي قائلا له :

— آخر ملوة لك .

— والزوائد .

— وسع .. لفرك .. عابرين نشوب شغلنا .

ثم وضع الملعقة في إحدى العلب وأخرج ملوة من حلوى الليبون المرشوش عليها القرفة والمرصعة باللوز .

وبظرت سيدة إلى الملعقة صالحة :

— حط عليها لوزة .. واملاها ..

— عهدي يا بت أنا مش قاضي لك .

— والله ما عدها .. إلا باللوزة .

وعاد الرجل يصح الملعقة في العلبة ويخرج بلورة صالحة .

— يظهر إنك مساكفة .

ودفع بالملعقة في عيب إلى فمها المنحوس استعدادا لآتيها ما بها .

وانتهت سيدة من أكل اللؤلؤ وانطلقت وسط الرحام وهي تفيض جيدا على البقود في جيب جليها .

وبدأت سيدة نظري مجموعة المراجيح الخطايرة في الهواء .. وبدأت تفكر وهي تنقل بصرها بين الصناديق المهترئة والمتأرجحة

لركبي الوزة يا سيدة . والا لركب . والا الساقية .

تدهى إلى السورك يا سيدة . أم تدخلي لثري الشبخة ربيدة أعجوبة رماها .. المرأة التي لا تريد على حجم طفلة صغيرة ..

تأكل الكبدية لم شطيلة .. أم تأكل الكشرى بمية الدقة أم تجاري وتأكل كفتة وكباب . وكانت رائحة شئ الكباب تتصاعد من العربة البيضاء فملاً حو ابولد كله .

والسجق ولحمة الرأس .. يا سيدة !!!

ولاحت لها عربة السجق . وتذكرت مظرة على المصيبة التحاسية بتوسد

فرشة من البقدوس في شارع السد في الخلل الذي يحتلط فيه بريق صوائ التحاس بالمرابا الزجاجية .. وتذكرت فحتها على قطعة سجن .

ووقفت الصبية حائرة . الأمان تدور في ذهنها .. والأصوات تتراحم في أذنها .. والروائح تختلط في أنفها .

وحزمت أمرها واتدفعت إلى المراجيح .

تأخذ لها دورا في مرجحة الوزة .. ثم يحملها ربما .

وبدأت المرجحة تقفدها في الهواء ، وبدا المولد حاملا حولها بالأخواء والأعلام وصياح المجاديب . وصرخات الباعة . ودقات الطبول وأصوات المزمار . ورنين الصاجات .

ديا حائلة . ووسط كل هذا يقوم الصرخ . أو المقام كما يسمونه . وأسفله يرقد . أو لا يرقد .. سيدى المارودي ..

كل هذا من أجله . وهو قطعاً لا يدري . وإذا درى .. فمادام بهمه حقيقة أن بعض المجاديب يادونه في صرخات محمومة .. ولكن ماذا

يستطيع أن يفعل لهم . وبعض المصايين والمخروبين يادونه للتوسط لدى الله في قضاء حاجاتهم .. وإزالة كربهم .. ولكنه لا يعرف كيف يتوسط لهم .. والله يسمعهم ولا شك .. قبله . وهو من غير شك لا ينتظر في إقامة عدله .. وساطة .. ميت .

المهم .. لقد بدأ .. الصراخ فوق قبره مباشرة ..

بدأ الترخ والاحترار . والصباح .. للمسعى بالذكر .. وهو يوم دخل المقام فوق رفاته .. إن بقي منها شيء .. أو إن وجدت أصلا .

والترخون الصارحون لا شك يعتقدون أنه موجود .. وأنه يشعر بهم .. وإلا لماذا اختصوا صرخته بهذا الترخ الصاخب . وهم يقرصون فيه أن يحصل

صخبهم وصياحهم طلال البيلة ويطلبون بمد هذا وساطته وشعاعته عند الله . لئلا يهملهم . لو أنه يشعر بهم .. لما استحقوا معه سوى دعوة إلى الله بأن

بأحدهم إلى جواره حتى يركبه ميم ولو كان لا يشعر . فلماذا كل هذا الصباح .. فوق قبره .. وعلى أنقاضه

وتوقفت المرحيجة بسيدة .. وصاح بها الرجل :

— انرى يا بنت .

وبرلت البت ..

لماذا يصرخ عينا الجميع وكأنها لم تدفع ؟ ..

وأحسنت بفرصة الجوع في بطها . وعادت تسائل نفسها .

سحق يا سيدة .. والا كياب .. والا كشرى .

يا سلام على رائحة الكعكة والكياب .. رائحتها هائلة .

ولكنها .. محيطة .. إنها لا تعصى ماذا يمكن أن تستهلكه من قروشها

حقيقة أب تغفل ثروة . وأنها قادرة بها على فعل ما تشئى .

ونكى الكياب .. يبدو أكبر من قدرة ثروتها وهي تخشى أن تطيح أكلة

الكياب لو فكرت فيها بكل ما تبقى منها . أو ربما كان ما معها لا يكفى لأكلة الكياب

لأن أم عباس سحبت بعض أرعة اللحمة . أو حتى شقة واحدة ثما لاكل ما كلفتها به من أعمال شاقة .. لوهرت عليها ثمن الكياب وكللفتها مشقة الحيرة

ولكن لماذا لا تأكل كيابا . وتتحدى أم عباس بملوسها .

اعقل يا سيدة .. لا تتهورى .

ووجدت ساقيا تقودانها إلى عربة الكشرى . ما له طيق الكشرى عينة الدقة . والثقلية

وفي طريقها إلى عربة الكشرى مرت بباب الضريح .. وأبصرت أباهما مع الحاج برعى .. صبي المترعير في حبل المدكر .

وم يرها هو بالطبع فقد كانت عياه معمصتين . ورأسه بهتر وحسده

يتأرجع . بلا مرجحة .. وصياحه يتعالى مع بقية الشاكريس .

« الله حى . » « الله حى . »

وانتهجت إلى عربة الكشرى ..

ومن جديد علاوتها الحيرة .. وقفز إلى ذهبها السؤال :

كشرى .. والا مكرونة ..

ولم تظل بها الحيرة حتى صاحت بالرجل ..

— واحد كشرى .. وواحد مكرونة ..

حد وانعد منها حاجة ..

وأكلت سيدة الكشرى والمكرونة .. ودخلت السوق وشاهدت شول وهو يلعب عصلاته صائحا : أنا شول بطل إمابة في ورد الرهشة : وشاهدت

الشيخة زيدة .. وصحبتها وهي تتحدث ..

فعلت سيدة كل شيء حتى آخر مليح .. وبعدها .. يا سيدة ؟

لم يبق شيء غير العفّة . تنتظر في البيت على يد دلال . بما .

عودي من سكان إلى البيت لتساوينا ونمى . وتعلمي بها وبكى ما معنته في المولد .

وأحسب أصوات المولد تحمت وأصواته تهبت من ورائها وهي تنجى إلى البيت مطأطأة الرأس ..

ولم تكذب تباعد عن المولد . وتشعر بالسكون بخيم من حوها . حتى اكتشفت أنها تنمو حافية .. بغير قيقاب .

صاح القيقاب يا سيدة ..

أين حلته ؟

حلته . عد المراجع .

ولكن هل يمكن أن يظل مكانه وسط هذا الزحام ؟

وانطلقت سيدة تجرى عائدة إلى المولد . تشق طريقها من جديد إلى

المراجع

وعشا حاولت أن تجده وسط أكوام البشر .

وكان عسبا أن تعود من عبر قباب . لتترقع بدل العلفة علفتين . الأول
عاحة للعباب طيلة اليوم من البيت والثانية أجلة عدد اكتشاف روجة أبيها
لصباح التيقاب .

ووصلت سيدة إلى البيت .. وأحست بالحارة كلها مفرقة في السكون .
كنهم قد ذهبوا إلى المولد ..

أترأها ستجد دلال في البيت ؟

هل يمكن أن تكون قد ظلت طول اليوم وحدها دون أن تخرج ؟
لأنها لا تجد لها ..

ولكن ماذا تفعل إذا وجدت الشقة مغلقة ؟

تعود إلى المولد ؟ .. إلى متى ؟ ..

حتى يتسنى أبوها من الذكر وتعود معه .. وتدعى أنها قد أتت من يدري
ولكنها لم تجد أمها دلال .

هذه حير حل لمشكلتها .. وبدأت ترفع يدها إلى السماء لتدعو الله ألا تكون
دلال في البيت .

وصعدت الدرج . تسترق الخطى بحر شهاب حتى وصلت إلى الباب .
وروقت أمامه برهة ..

وأحدثت أعباسها تلاحق . لقد بنا من أسفل الباب بصيص ضوء يدل على
أن دلال موجودة .

أو ربما أوقدت النسيمة ثم خرجت .. من يدري .

إن عسبا أن تطرق الباب .. لا داعي لأن تلج في الطرق .. يكفي طريقة
أو طرفتان ترصى هما صميرها .. إن كانت دلال موجودة فستفتح لئلاهما
الصفحة . وتنتهي .

وإن لم تكن موجودة . أو كانت مائتة . فإن عليها أن تعود إلى أبيها في
المولد

وقبل أن ترفع يدها لتطرق الباب .. سمعت حركة .. صوت اهتزاز
مراش .. لا شك أن دلال موجودة وأنها تنقب عن المراش .

ولكن الصوت كان منتظما .. كذلك الذي تسمعه في الليل عندما يعلق باب
الحجرة دوبا .

وأرغفت السمع ..

أجل .. أجل . إنها تميز جيدا تلك الاهتزازات المنتظمة .

ولكن .. أبها غير موجود .. وهذا الصوت لا تجده دلال وحدها .

ورفعت سيدة يدها وطرقت الباب .

وسكن الصوت .

ومضت فترة صمت ..

ثم تلتها حركة مضطربة ..

ثم سمعت وقع أقدام تقترب من الباب .

وعلا صوت دلال يتسائل مبجوحا متحرجا .

— من ؟

وردت سيدة وأنفاسها تتلاحق :

— أنا سيدة .

وأحست سيدة كأن تهيدة قد انطلقت من صدر دلال وسمعت صوتها
يتسائل في حدة :

— عابرة إليه يا بت .

— عابرة إليه !! عسبا ..

عابرة تدخل .. لتلقى العلفة .. لهايبا وتأخرها ..

وعادت دلال تسأل في حدة والباب ما زال مغلقا .

(عن لآزوع الشوك ج ١)

— فيه يه يا بت ؟

ه يمسى حايكون فيه يه ؟ ؟ .

مادا يمكن أن يكون أكثر .. من أنها تعود إلى البيت بعد عية طول النهار
تنتفي المعلقة المستطرة

ومع ذلك تغف روعة أمها وراء الباب لتسأها فيه يه كأنها . مخلوق
عريب .. لا ينتظر عودته أو دخوله إلى البيت ..

ولم تجد سيدة ما تقوله أكثر من :

— أنا سيدة يام .

وردت عليها دلال بأحر ما يمكن أن تنتظره صارحة في عبط .

— لماذا عدت ؟

مدا عدت ؟ إذن فهي ليست متأخرة .. وليست مدنية .. إن هيئتها هي
الدار ليست دبا . بل إن عودتها تبدو وكأنها هي الدب

ولم يدرم تريب . ماذا عادت ؟ لقد كانت تسمى ألا تعود ولكن حوفاها من

المعلقة هو الذي دفعها إلى العودة

وومرت عليها دلال مشقة الإجابة عندما صاحبت بها :

— روحى يا بت الفرجى على المولد .

هكذا بدل المعلقة على التأخير . تسأل لماذا عادت وتأخذ أمرا بالمرجة على
المولد .

مد متى كانت دلال .. بكل هذا الحرص على مصتها ..

ومادا لا تريد أن تفتح .. ولماذا هذه الأصوات التي سمعتها عندما طرقت
الباب .

وسمعت صوت حطى دلال يتعدى الباب ولم يكن أمامها إلا أن تستدير هي
الأخرى لتبسط الدرج عائدة إلى المولد . وفي رأسها دوامة من الأسئلة المأثرة

وقبل أن تخطو لتبسط الدرج سمعت صوت ضجيج في الحارة يقترب من باب

البيت . أصوات مختلطة . لعط وصراخ .. عجبا . ماذا حدث . هذه ليلة
غير مقولة .

وأحست بخوف يملأ قلبها ..

ولم تستطع أن تعود إلى الشقة والباب مغلق دونها .

وكان عليها أن تبط لتري سبب الصراخ والضحج .. الذي أحست به
يقتررب من الباب ، ثم بعد بل الغاء . وسمعت صوت حطى تتراحم في الغاء

وتصعد الدرج .

— تحركي يا بنت .. شوقي ماذا جرى .

وهت سيدة من جديد بأن تخطو نحو الدرج ولكن الرحام داهمها .
والتمت ورائها لتجد على الميصر يقف على البسطة بجلبابه الطويل وشعره
الأشعث المختلط ببقعه ولحيته .

لم تعرف من أين تبت صبيحة ؟

قطعا لم يكن بين الوجوه الصاعدة المتراحة على السلم فقد جاء من الخلف ..
ولكنه لم يلبث أن احتلط فيها وناله في رحامها . ولم يدع أحد من المتزحمين أى
اهتمام بأن يعرف من أين جاء أى إنسان منهم . فقد كان اهتمامهم كله موجها إلى
شيء يحملونه فوق أكتافهم مغطى بعباءة سوداء .

وصبيحة انطلقت صرخة مدوية من روائها .. وبدت دلال وقد تقدمت من
الباب إلى بسطة السلم وهي ترفع ذراعها تمتد إلى الأمام في حركة منشجة
« يا دهوى ٤ .

وسيت سيدة كل شيء عن على الميصر وناله في دهبها وسط الرحام . من أين
جاء . ومن أين ذهب . ولماذا كان يفعل . وسيت كل شيء عن الحركات
التي سمعها وراء الباب وسؤال دلال لما لمادة عادت وأمرها بأن تعود إلى المولد .
لم يعد هناك مكان لكل هذا في دهبها . أمام هذه الأشياء العجيبة المروعة التي
تحدث أمامها .

الرحام .. والصحيح . والشيء المحسوس على الأكتاف المتنصف بالملاية
وصرخات دلال الحادة . ووجهها للتشجيع بلا دمع في عينيها .

ودلف الذين يصعدون الحمل على أكتافهم إلى الداخل واتجهوا إلى حجرة أبيها
ثم سمعت فرقة العراش تحت ثقل يوضع عليه .. لم تشك في أنه ذلك الشيء
المحسوس على الأكتاف .

وضاعت وسط الرحام .

ولم تعرف ماذا تفعل ..

(٤)

وحذك .. يا سيدة !

استمرت الأقدام تصعد الدرج متراحة . ووقفت سيدة مسمرة القدمين
وسمعت وقع أقدام دلال تغترب من حديد نحو الباب وتصرخ في حدة .

— فيه إيه يا بنت .

وأجابت سيدة في جزع :

— لا أعرف يام

وأحدث طلّاح الرحام نيفو عن الدرج . وحوه جرة مكهفرة .
وصباحات محتلة غير مفهومة « يا ساتر يا رب ٤ . « رحمت يا رب ٤ ..

كلها دعوات تتعلق بالرب والسر والرحمة

ولم تستطع سيدة أن تدرك مطلقا ماذا يمكن أن تعني هذه الصيحات وهذا
احشد المدفع فوق السلم . وأصاب خوف شديد من خطر يوشك أن يطبق
عليها واستدارت نحو الباب لتصبح بدلال :

— الضحى يام .. ناس كثير طالعين .

واصرح الباب ببطء . وبدا وجه دلال يطل مستظلا في حائط من الدهشة
والارتباك وهي ما زالت تتسائل :

— فيه إيه يا بنت ؟

ولم تكن هناك حاجة إلى جنة ثبت فقد وصلت إلى مسامعها الصرخات
المختمة المتصاعدة من بين السلم المقترنة من باب الشقة .

وغير أن تمنع دلال الباب أو تخرج لاستطلاع الأمر . استدارت برأسها
وهست بصيح كلمات وكان إنسان يقف خلفها ثم صاحبت سيدة :

شيء يخيف لا شئ قد حدث ..
وهذا العمل الذي يعمونه والذى وصعوه على فرائس أبيها . لا شك أنه
أبوها ذاته .
ووسط الرحام أحسنت يبد تطلق على دراعها وتجرها جاتيا محاولة أن
تبعدها عن الزحام ..
ورفعت رأسها فأبصرت وجه الحاج برعى وقد احمرت عيانه وارتجعت
شعابه وهو يصمها إليه قائلا :
— تعالى يا سيدة .. تعالى ..
ثم صاح بى حوله :
— يا جماعة .. حذ ياخذ باله من البيت للطلباته .
وبدأت الأباذى تربت ظهرها فى عطف .. وترددت كلمة مسكية بضع
مرات . وغرج البعض من حجرة أبيها وهم يتمتمون :
— الله يرحمه ..
وصاح أحدهم انعطف . كان يسير بحوارى فى أتم صمعة .
وردد ثالث :
— ربنا أكرمه .. مات فى سبيل الله .
— مات وعلى لسانه اسم الله .. الخى .. القيوم .
بدل فلقد مات أبوك يا سيدة . مات كهؤلاء الذين تسمعين أنهم ماتوا
مات كالخج رصوان .. والولية سبة العمسة . وغيرهم . من تردد أمامها فى
الحارة أنهم ماتوا . وأنهم يحملون فى صاديق حشبية والساس بيروولون
وراهم . والنساء يطلقن الصرخات المقتوية من أجلهم .
وأحسنت وهي تقف بحور الحاج برعى وقد صمها إلى جانبها كأنها تقف
فى عراق موحش . وتلكها خوف شديد
مات أبوك يا سيدة .. والذين يموتون لا يعودون ..

يذهبون فى صمعة .. ويخلفون الفراخ والصمت . ويذكركهم بعض الناس
بعض الوقت . ويطلبون لهم الرحمة . ثم تصيح ذكركهم فى رحام الحياة .
ويتوهون فى داكثرة الرمس . وتصيح أنهم مشاعل العيش أشعل للناس من أعر
ذكريات الموتى
أبوك .. مات يا سيدة ..
مات كهؤلاء الذين ماتوا فى الحارة . والذين كبت تقعين لترقى عملية
رحيلهم .. أو ترحيلهم . مع بقية أولاد الحارة .. كسوع من النسبة
كالخاوى أو السعيرة عريرة . وشاهنون رحمة الناس . ودق عواميد
الشاهر .. وتسلق الرجال على قبتها لربطها وتغطيتها .
ووراء الشاهر توضع النسبة .. تصيح عيا القهوة يندمها رجال سود
حزمت قفاطينهم البيضاء بالأحزمة الحمراء .
وعندما مات الحاج رصوان . دبح غروف أمام البيت . وبالليل طبعوا
كما يشعلون فى الأفراح .
عندما سيقف أطفال الحارة . ليطرخوا على موت أبيها كما تفرجت هى معهم
على موت الناس .
ولكنها لن تقف معهم .. لأن أبيها هو الذى مات ..
وليس مرفوضا أن تقف لتتفرح . لأن أولاد الموتى كانوا يذهبون بعيدا إلى
مكان ما .
مات أبوك يا سيدة .
« مات . يعنى يه ؟ »
يعنى ذهب ..
إلى أين يا سيدة ؟
لو أنها تعرف إلى أين يذهب الموتى فان الأمر . لذهبت معه أو على
الأقل لتتركه يذهب .. ثم تذهب إليه عندما تريد ..

ولكن الذين يموتون .. لا يعودون .. ولا يصلحون معهم أحدا ..

ولا يعرف أحد أين هم .. ليتعب إليهم عندما يريد ..

مسألة .. سخيفة جدا ..

أن يذهب عكس إنسان .. يكاد يكون جريما سلك .. أو تكاد تكون جزيا
مه .. إلى حيث لا يدري .. ولا تعرف كيف تلقاه .. أو على الأصح تعرف
بالقطع أنك لن تلقاه .. ويخرج عكس فجأة .. ويصبح عليك أن تسلم بعدم
وجوده وأن تعيش بعبء .. كان لم يكن في حياته يوما ..

مات أبوك يا سيدة ..

ذهب أبوك يا سيدة .. ولن يعود ..

وعليك أن تواجهي زوجة أبيك وحده ..

ومن جديد عاودها الإحساس بالعراغ الموحش الذي تقف فيه .. لم يمد يده
ياظرها كل هذا الرحام .. ولا يملأ أدنيا كل هذا الصباح .. فقد كان الناس
أشباحا .. والصراخ صدى ..

وامتدت إليها يد أخرى تتناولها من جوار الحاج برعى ..

كانت هذه المرة .. أم عطوة ..

هفت المرأة وهي تنظر إلى سيدة في حنان من خلال دموعها المساية :

— تعالى يا حبيبتي .. سأخذها عندي يا حاج برعى ..

وتردد الحاج برعى بركة ثم قال :

— دعها تذهب معي .. سأخذها عندي ..

— دعها عندي الليلة .. وخد بالك أنت من الميم

— سأرسلها إلى أم عباس .. فليقد أوصالي المرحوم بالأمر كما ..

وانزرد الرجل ريقه وهو يحاول أن يعالج دمه ثم أردف بصوت يخفه

البكاء :

— كان آخر ما قاله لي عندما سقط بجوارى في حلقة الذكر .. خذ بالك من

سيدة .. لا تتركها وحدها ..

— الله يرحمه .. كان حامل معها دائما ..

وعادت أم عطوة تبحر سيدة في رفق وهي تقول :

— دعها لي الليلة .. ستيت مع ابنتي ربيب .. وخذها غدا .. بعد أن تنسى
الدقة ..

وتراحت يد الرجل الذي يصم بها سيدة وجريما أم عطوة إليها وهي تقول :

— انذهب أنت يا حاج برعى .. واتركها لي ..

وسارت سيدة مسئلة بموار أم عطوة .. وهبطت الدرج حتى وصلت

إلى الخشدة التي تقطها مع ابنتها عطوة وابنتها ربيب .. ولم تكن الخشدة عريضة

عليها .. فقد كانت ملجأها عندما يدها النعب في الحارة .. وتعود إلى الشقة

صحتها معلقة .. وتعرف أن دلال لم تعد من الخارج .. وأبوابها في المحصرة ..

أو في الذكر

كانت كثيرا ما تجلس مع أم عطوة هي وربيب لتفنى الفؤاد الذي سينفد في

القروانة حتى يبيت في الصباح .. لكي تحمله أم عطوة مع مشاة العجل والكراوات

إلى باب الحارة .. لكي تأخذ مجلسها تحت شجرة دق الباشا .. حتى تنسى بيع

المشاة والقروانة ثم تعود في آخر النهار ..

وكان ابنتها عطوة الذي يعمل في دكان الأسطي أمور السباك في تصليح بواب

الجار والمنعيات يعود آخر اليوم بسطلونه الكاكي المرقع وقمصانه الأسود

ليحصل ويرتدي الجلباب المخطط .. حاملًا لفة السلك .. أو الجورة .. أو أي

شيء ..

وتأخذها أمه رافعة كفيها إلى السماء في دعاء حار هائفة :

— ربنا يفتحها في وجهك يا عطوة .. ربنا يحبب فيك حلقه ..

وكان عطوة هو رجل البيت .. بعد أن لحق أبوه تأييده في قضية محدرات

وشروع في قتل وسلسلة جرائم أخرى ..

ووجدت أم عطوة معها هي وأولادها على عيسى الله . وكان عليها إما أن تبسج العسل والذئب أو تشجد على باب السيدة أو تموت من الجوع . حصلت الأولى . وخرج عطوة من المدرسة لكي يعمل مع الأسطى أسور في محل السبابة

وكانت سيدة تحس بالارتياح في شقة أم عطوة . على الرغم من ظلمتها . ورائحة العطن التي تفوح منها . فقد كانت تحس بالأمن فيها أكثر مما تحس في شقتها . لا سيما في وجود زوجة أبيها .

وكان أكثر ما يسليها في شقة أم عطوة . عندما يعود عطوة من العمل ويرتدى الحجاب ثم يدخل أسفل الترابيزة الذي يصعبها بخوار الخائط ويدل من فوقها ملاحة العرش ويصع لمة الحمار ورامها ثم يربهم حيال الظل .

كانت تغلس هي وربب ونجبة ورمضان وربهم وبكر . وغيرهم من أولاد الحماره شاهدة الظلال المتحركة وراء الملائمة وتسمع مشكاح وهو يسأل في صوته العليل المتحشرح : « هي مراني ريمة حنت عددكم ؟ »

ويصبح الأطفال صاحكين : « لا » .

ويعود يسأل : « أمال راحت عين ؟ » .

ويجيب الأطفال : « راحت الزرار »

ويختص مشكاح ثم يظهر ظل ريمة تسأل في صوت رجع : « هو حوري مشكاح عددكم ؟ » .

ويقفه الأطفال : « راح المولد » .

وتستمر الفصة بين مشكاح وريمة . وسيدة وأصحابها يفهمون . حتى يسمع صوت دلال من المنور : « بت يا سيدة مش كفاياكي لعب »

كانت ساعات ممثلة . نبت التي كانت تقصها في شقة أم عطوة . وأحيانا يشاركون الطعام . وعندما كانت أم عطوة تسبح الزمردة . كانت تأكل معهم المورثة .. وتحمل بعضها إلى زوجة أبيها ..

وهي تهبط الآن إلى المدرسة . وصدى الصراحت في آذانها وأشباح الرجال المتراحين في شقتهم وعلى الدرج تتراعى أمام عيناها .

ودعشت أم عطوة الباب . وبدت دهالة لمة الحمار تتراقص على المصدة الخشبية التي تعود عطوة أن يتحد أسفها مسرح خيالاته . وأقبلت ربيب على سيدة وقد بدا عليها الوجع والحفوف وبطرت ربي في حجرة دون أن تعرف ماذا تقول .

ووقفت الصديقتان الصغيرتان تنظر كل منهما إلى الأخرى في وجل وصمت لا تدرى كيف تبدأ الحديث .

وتحدثت أم عطوة ففادت في صوت حاولت جهدها أن تجبه طبيعيا بلا بحة حزن أو احتشاة بكاء :

— سيدة سحيت معنا الليلة يا زبيب .

واستمرت زبيب تنظر إلى سيدة في خوف .

لقد علمت أن أباهما مات . وهي لا تعرف ماذا يفعلون بالدين يموت أبائهم . وقد أفرعها الصحيح وأخافها الصراح . ولكنها تشعر أن سيدة مسكية .. وتود أن تصمها بين دراعها وتكني معها

وبمساعدة مدت ربيب دراعها وصممت سيدة وهي تقول والدموع تحق صوتها .

— مطهش يا سيدة .. مطهش .

ولم تلبث سيدة . فقد كانت الدموع تدور كأطب صلت طرفها إلى ما قبلها والأمانات صلت طرفها إلى شقتها . كان كل شيء فيها حاراً مشدوداً . عازلاً ربقها وشعناها وعيناها . والتمت الكتيب الذي يجيد بها

لا شيء كان يحد سبيله إليها . سوى صدى الأصوات الصارحة والأشباح المتكاثرة يحملها الملعوف بالعناية السوداء .

ودخلت الحجرة التي ينامون فيها على أديم يقوم العرش ذو الأعمدة الحديدية السوداء الذي كانت تلعب هي وربب أسفله وعن اليسار أريكة

مخفظة يام عليها عطوة

وتسألت أم عطوة :

— أجب لك لقمة تمشي قبل ما تنامي يا سيدة .

وهزت سيدة رأسها . فقد كانت لا تريد أن تفعل شيئا أو تقول شيئا .

وعادت أم عطوة تلح :

— حاتامي من غير عشا .

ولم تعرف سيدة ما إذا كانت ستنام بدون عشاء أم أنها تعتبت لقد طمس

من ذاكرتها كل ما فعلته خلال اليوم إلا اللحظات ذات المصيح والصراخ

والرحام على اللرح . والحمل المكثف بالماء السوداء فوق الأكفاف .

وصعدت الفراش فقد وجدت أن هذا غير ما تستطيع أن تعمل بل هو كل ما

تستطيع أن تفعل وانزلت على المرتبة حتى وصلت إلى الحائط وتكورت تجاه

الحائط حتى كادت ركبناها تنسد دقتها وأغمضت عينيها ولكن بدا كل شيء

مصبيا .

لم تستطع أن تسدل جفنيها المطبقين متاريا يحول بيتها وبين هذه الأشياء

الترجمة .. الصارخة بالصراخ ، ولم تجد عارفا بين ما تراه وهي مفتوحة اليأس

وبين ما تراه وهي مضطهبا .

واستمر كل شيء يدور كما هو . الرحام على اللرح .. والأصوات

الصارخة .. والدعاء بالستر والرحمة .. وربنا أكرمهم .. مات في بيت الله ..

و .. و ..

حتى غلبها النعاس ..

ولم تعرف متى غلبها النعاس . ولكنها تعرف أن المناظر المحددة ..

والصرخات المعروفة .. قد تحولت إلى أشياء مهمة مشوشة .. ورأت مصها في

أماكن غريبة .

مرة في حجرة في نلال زهم .. مع على الميحي .. وعساكر سود يطاردونها

بالبساط وهي تملو مرتاعة في فرج .

ومرة تصعد المحلر المتصرع من سكة المذبح .. وأبوها يناديها وأعي

المحلر . تسمع طيولا . وأزير مراجيح .. كأن هناك مولدا وتستمع في

تصعود حتى يحجب صوت أبيها . وهوى المحلر تجد فراغا موحشا ..

لا مراجيح .. ولا طيول . ثم تسمع فجأة أصواتا مدوية .. وترى أشياء تملو

من وراء المحلر .. وتجد على الميحي يحمل دلال . والناس تصرخ وراءها

ومرة أخرى تجد مصها مكبة على البساط المقنوب تدعكه بغطاء الخبطة ..

وتجد عباس يقرصها من صدرها فتصيح به . ولكن وجهه يتقلب فإذا به على

الميحي .

وأشياء كثيرة متداخلة . مراجيح تلف بها . وطبول تدق حولها .. وهول

نات . وعلى نور . وما كية قص الورق تدور بسرعة مقبضة على أصابعها .

وأخيرا . وبعد يوم .. امتلأ بأحداث البقطة . انتهت من يومها .. على

صرخات تدوى مع نور الليل . لتعرف من أم عطوة أن اقتراب أبيها .. لم تسمع

عهم .. قد أتوا للرحاء . وأدركت أنهم يتبادلون الأصوات مع دلال .

وحس باب الصالة . أخذت تبصر أقداما تصعد وأقداما تنزل .. وصغمت

صوت هسي يقول :

— يا جماعة خلصونا .. عايزين الشهادة من الصحة .

وصوت الأسطى أنور السباك يرد عليه :

— قالوا ستأق حالا .

وعاد هسي يقول :

— إذن ادخلوا المصل .

ورد عليه أنور ناهرا :

— مستحيل على إيه .. وراك البدوان ؟

— يقول بلحق الطراوة .. قبل الشمس ما تجمعي .

وفجأة دخل عطوة يلهث وهو يقول .

— خلاص . الشهادة جت .

ووجدت رجلى طويين بخلال شيا كالصعدة ثبت قوائمها الأربع
لمتحركة والتصفت بها حتى بدت كأنها مجرد قرص حشى واندمعا إلى السلم
وهما يتساءلان :

— ها .. نبتدى ..

وأجابه أنور الصباح :

— اطلعوا .

ثم تساءل :

— حد حضر غم اللوف والصايون ؟

ورد حرور المسجد :

— كله جاهز فوق . النرج جاهز .. وكله .. كله .. ورفع يده إلى
السما مرددا .

— الله يرحمك يا جابر قرحت حصىة . حتى في موتك .. والله الحاجة
ما استجبت مى من ساعة . كل الأبواب كانت مفتحة في وشى . يا رب
اكرمنا ..

ومن الباعة السعى عمت سيدة الصدوق الحشى المارع . هذا هو الشيء
الذى حملوا فيه كل من ماتوا ..

وصعدهم كنهم في مثل هذا الصدوق . ولعمومهم على أكتافهم .. وظاروا
هم وعدوا عماما وكانهم أراحوا عنا من فوق أكتافهم ..
وأبوك يا سيدة سيوصع هنا وسمرحون به إلى حيث لا رجعة .
إلى أين يا ترى ؟

وسمعت صوتا يصيح وكأنه يرد عليها .

— حاشى من السد على السيدة لعابة القلعة ومعدن على المجاورين

ولم يد الرد حفيدا لها ..

ماذا ييمها هي أن يسروا من السد إلى القلعة إلى المجاورين .

إها يريد أن تعرف أين سيدهون به سيدهونه يا سيدة كما دوسه
عبره ..

هكذا قالوا .

ولماذا لا يأخذوها معه ؟ ..

لن يرضوا بالطبع .. لأنها لم تمت .

ولماذا لا تموت .

ومن أين لها أن تعرف . ماذا مات أبوها . ولماذا لم تمت هي . وعادا لم تمت
دلال مثلا

ماذا يموت البعض . ولا يموت البعض الآخر .

ومن الباعة أبصرت . الصبية والست يتجمعون يتسلوا بمشاهدة لمطر

كما كانت تفعل هي ..

يقعون ليرقوا كل شيء . ولا شيء . بس يدخلون وباس يخرجون
ولمعد وصرحات . ويجوز الحذر بدت غروق موحية . ومصاصه فصب
وبذا يا ضامم نقطة تشم كرم القصة — ومقاعد مرصوفة أمام البيت تجلس
عليها بعض الناس ربوسهم معطأة وفي أيادي بعضهم مسابيح تترق حبات بين
أصابعهم .

وسمعت الصحيح يرداد على الدرج . وانطلقت بصع صرخات مدوية
وأقبلت عليها أم عطوة تسحب من يدها وتجرها إلى الدحل والدموع ملء
عيناها .

— تعالى يا سيدة تعالى يا حبيتي .

وتم تجده سيدة في نفسها رغبة في الدخول . كانت تريد أن ترفه
إن كانت قد شاهدت رجلا كل هؤلاء الذين ماتوا . ألا يشاهد رجلا

أبها ؟ ..

إنه ليس مسلما . كرحيل الآخرين . إنه يشد كل شيء فيها ويطبق عليها .
يجمع ريقها .. وشعنها .. ويشد حنكها . ونفثها من حولها . ولكها تريد
أن تراه

إنها لا ترقبه في استرحاء وبسامة قد تمنع شعنها وكلمات قد تتادها مع أحد
النسبة . كما يفعل هؤلاء الذين يقعون خارج الدار بخوار البيت المقابل .. ولكها
ترقبه مشدوعة في بحر شديد .. وكأنها توشك أن تفعل شيئا .. تقهر مثلا
لتعطف أباه من الصديق الخشبي الذي سجدوه فيه . وتنبو به إلى حيث
لا يعرفون . وإلى حيث تعرف هي وحدها .. بدل أن يأخذوه إلى حيث
يعرفون ولا تعرف هي .

أو .. تقهر لتستقر بخومره . ونصمه إليها . كما صمت آخر مرة عندما رصها
من إبطها بين ذراعيه وصمها إليه عرسا وجهها في شعر حبت البيصاء
الظيفة ..

كانت تحب حصصه دائما .

فلماذا لا تقهر لتضع نفسها بين أحضانها ..

وعادت أم عطوة تنقب بها في إصرار .

— بالله يا سنى .. بالله يا حبيتى .. ادخل مع ربيب في الحجرة
وهزت سيدة رأسها ، وكان هذا أقصى ما تستطيعه .

— ليه يا حبيتى .. حاششوى إيه بس .

ثم نهزت إلى ابتها ربيب قائلة .

— غديبا يا ربيب وادخل إلى الحجرة .

ومدت ربيب يدها وأمسكت بدراع سيدة . ولكن سيدة لم تتحرك ولم

تلتفت يمنة أو يسرة بل ظل يصرها مطلقا بالدرج

وحمت الصديق الخشبي يحمل قارعا إلى أعلى

ومرة أخرى انطلقت بضعة أصوات حادة ..

ثم سمعت طرقات متوالية .. كأن شاكوشا يذق مسامير .. دقتين .. ثم
دقتين .. ثم ثلاثا .. ثم ساد الصمت ..

وانطلقت بصع صرخات ..

ثم بدأت مهممات وأصوات قزاة . أحدثت تتعالى رويدا رويدا . كأنها
أصوات القراءة التي تسمعها من وراء أبواب في مقام الموردي .. وسمعت
القزاة .. وتالت الصرخات .

وأحدثت الأقدام تتراحم هابطة من الدرج . وتذاع أهل الحارة إلى
الخارج . وبدا الصديق الخشبي ملفوعا في فواصل مقوش يحذر من الدرج
على أكتاف كل بشرية متحركة . تناسل على حمله

وسار من النساء إلى الطريق .. وإزداد التراحم من حوله بتنافع أهل الحارة
بالمساك كل يقضي ثواب حمل التعش .

وصاح ببس في مجموعة الصبية والبنات ودفعهم بيده صارخا :

— بالله يا واد منك له .. هي فرجة .

ثمما .. كما كانوا يفعلون معها وهي تقف لمشاهدة مواكب الموتى

كانت تراها وقتذاك فرجة .. وأى فرجة !

وأحد الموكب يتجه إلى الشارع . وبدا أهل الحارة كلهم . قد اندفعوا
وراءه . بين حامل ومشيح ..

دموع الرجال تتحدر في صمت من عيونهم .

وأصوات النساء تطلق بلا دموع من حلقهن . وأحاديث طويمة تروى

عن جابر الأمير الطيب . الودود . الوديع الذي لم يؤد أحدا ولم يدس على
طرف أحد .

ويملأ كل هذه الأصوات .. صوت دلال ..

بكل ما تمكث من قدرة — سيدة أدرى الناس بها — على الصراع .

(نحن لا نرعى الشوك حـ ١٦)

ولم يعد كل هذا في شيء ..

لقد تحرك الصندوق بحمسه . لم توقه الدموع ! ولا الصراخ ..

و لم تعمل سيدة شيئا .. سوى الحلقة المشدودة . لم تحمل الصندوق وتطير .. ولم تقهر إلى داخله وبدأ الصندوق يتلفى .

وهمت سيدة بالاندفاع وراءه . ولكن يد أم عطوة أمسكتها في حرم :
— لا . ما ميش حروح أبدا .

نظرت سيدة إلى الموكب .. يتسرب بحمله . والأصوات تحت .
ذهب أبوك يا سيدة .

ولس يعود . ولن تستطيعي الذهاب إليه ..

وعليك يا سيدة أن تواجهي دلال وحدك ..
هل الدنيا كلها وحدك ..

(٥)

ألا تحبين الموز ؟

اتنقذت سيدة إلى بيت الحاج برعى . فقد أصر الرجل على تنعيد وصية صاحبه جابر الذي كتب به قبل أن يموت بين ذراعيه : « خذ بئلك من سيدة . لا تتركها وحدها » .

ولم يجد برعى صعوبة في أخذ سيدة . إذ لم يكن هناك في الدنيا من يتسكك بها . فقد انطلقت دلال من البيت بعد وفاة جابر حال سبيلها . ولم يكن هناك مكان لسيدة في هذا السبيل .. ولا حاجة لها بها .

ولم يحاول الأقارب الذين ظهروا فجأة .. وأطلق سائرهم بصع صرخات أن يصرخوا بمحرد إيوائهم لها . بعد أن اتضح لهم أن جابر لم يترك شيئا مفيدا .. ولم يكونوا هؤلاء عطاء فلا أخذ .

وسرعان ما انطلق كل منهم إلى حال سبيله ..

واستقرت سيدة في بيت الحاج برعى ، أو على وجه أصح . في بيت أم عباس .

ومد ذلك اليوم فقدت سيدة حريتها . ولم تكن تعلم من قبل أنها أُمسكت ما يمكن أن يمتلك إنسان .. بعد القصة .. والخدمة .

وليس أجهل من أن تخلو لنفسك .. لتجد نفسك حرا في أن تفعل بعض ما تشاء لبعض الوقت .

ولم تكن سيدة تظلم في أكثر من هذا .. كانت مع أنها ودلال . تجد مسحة من الوقت تفعل فيها ما تشاء . وأبوها في العمل أو في الذكر .. ودلال مشغولة بزبها . أو مصطفة بخارج الدار . وهي تمارس سيادتها على نفسها .

وسلفاتها عن وقتها . وحربتها .. في أن تعمل ما تريد هذا الوقت . تلعب . وتجري وتسي . وتتحدث .. وتسمع إلى حديث العير .. أو تصمت .. وترح .. أو تنام . أو تعمل أى شيء من هذه الأشياء التي لا تحتاج إلى تقود .. والتي لا تتطلب منها أى ثمر . سوى أن تفعلها .

ولم يكن يظهر بها أنها يمكن أن تحرم من هذه الأعمال البسيطة .. التي تعتبر جزءا من الحياة .. والتي لم تكن تضر بها أبدا ..

وم تشر حلال الأيام الأولى من انتقالها إلى بيت الملاح برعى .. أن شيئا قد ينقص من احتياجاتها .. وأن حربتها في ممارسة حياتها البسيطة قد ضاعت . كانت الوعاة ما زالت ساعية .. وعطف الناس من حولها — ومن بينهم أم عباس نفسها — ما زال حارا . وكانت نظرة الإشفاق .. ومعصمة الشمامسة . وفتيات الأسي .. هي نصيبا من معاملات الغير ..

وكانت بلا شك أهلا .. لهذه المعاملة .. شكلا وموضوعا .. أما الشكلي . فقد جعلتها صدمة أحداث الوعاة .. شاردة الطرات . مطاطة الرأس . بمطر احسد المصوم على الاكتاف .. يلاحق عبيها .. والصراخات تشق صمت النيل .. تلازم أذنيها .

كانت مأخوذة بما حدث . بكل ما فيه من مآثر مفاجئة صاحبة . غير مأثومة .. مد أن طرقت باب البيت وصحمت هرات الفراش ثم خطوات أمها وراء الباب وهي تمتص بها حافنة « لماذا عدت » .. حتى خرج الصدفق من باب الدار . وتسرب في الطريق مشيعا وسط الرحام بالصراخات .

ولم تكن تشعر بأنها تريد أن تعمل شيئا سوى الصمت ..

وكانت حربتها في الصمت . في بصعة الأيام الأولى .. مكفولة .. بكل ما يحركه شكلها اللبيل المشدود .. من عطف .. وبكل ما يشوه يمتها وصياها .. من رثاء وشفقة .

ولكن حرية الصمت والشروء . والازدواء .. لم تلبث أن صاحت ..

وبدأت تطرات الشفقة غمحي وغمات الرثاء تخفت .. ولم تعد تشغل بمصاها أحدا .. بل بات وجودها هو ما يشغلهم .

بل حتى وجودها . بدا وكأنه لا يشغل أحدا .. سوى أم عباس . كمستولة عيا .. ومستعبدة بوجودها .. أو على وجه أدق . كمستعبدة بوجودها أولا .. فقد كان ذلك هو أساس تعامل أم عباس معها . فقد كانت مسئوليتها عيا . نابعة من استعادتها منها .. أولا . وقبل كل شيء .

انتهت حريتك يا سيدة .. وبات عليك أن تعمل لكي تعيش ..

لقد أعذك . الملاح برعى . في رعايته . كما أوصاه أبوك . ولكن أم عباس .. لا تحترف بعملية الرعاية . وبات عليك يا سيدة أن تعمل — على حد قول أم عباس .. لما تتصور عيك .. لكي تأكل لنفسك .

ولم تكن سيدة تظن أن اللقمة يمكن أن تكف مثل هذا الجهد .. لقد باتت تنسى لو أضحت في عسى من هذه اللقمة . فهي بحر جدال .. لا تستحق كل هذه المشقة . وهي ليست لقمة حقيقية . وإنما بقايا لقمة . ومع ذلك فلم يكن لها بديل . فهي لا تعرف . من دنياها الآن . سوى هذا المكان .

مرت الأيام . وانتهى أعمال المصاب — ومصاب الآخرين لا يوجدوا أكبر من لحظات ثم تجرعه من عوسا أبسط متاعا — ذات صباح استيقظت سيدة برصة في ظهرها . وهي ترقد معترشة حصيرا صميرا فوق بلاط المطبخ . وصحمت صرخة تأتي من فوقها من شفتي أم عباس .. وهي تظن عليها بجسدها الطويل العريض المنكبين كأنها حمير الدرك تصبح بها ماهرة :

— أم بكفك يوم .. كل يوم نحاجين إلى من يوظفك ..

وفي لحظة حاسمة أزدفت صلاته :

— انتهت .. عدى الطبق وهاتي بقرش مول من عم منصور .

وجلست سيدة فوق الحصير تدعك عنينا ومردت ذراعها لتمطى ولكن قبل أن يصل تمطيا إلى نهايته شمعت يدها أم عباس تمتد لتقبض عليها من شعر رأسها

وتجلبها إلى أعلى .

وتطالبت بقايا اليوم وكسل الاستيقاظ من عيسى سيدة وأطرافها . ووجدت نفسها تقف على قدميها أمام أم عباس التي أعدت تستحمها :

— بالله يا بنت . آخر مرة أصحىكى .. غدى الطيق وانزلى بسرعة .. وتناولت سيدة الطيق . وكان الوقت ما زال مبكرا . لم يستيقظ أحد من أهل البيت سواها وأم عباس . أما عباس والحاج برعى فكان كل منهما ما زال في غرفته . وحاولت أن تدس قدميها في القيقاب الذي وصحته وراء باب المطبخ ولكن أم عباس حذبتها من دراعها لتدفعها إلى الخارج في عجلة :

— غفوى من غير قيقاب ..

ثم تسالطت في لجة ساعرة :

— والا على رجلينك نقش الحنة .

ولم يكن على رجلها نقش الحنة .. ولا كانت في نفسها لمعة على لسان القيقاب وإنما كانت تبسم بحكم العادة عندما كانت في بيت أبيها ..

وانطلقت سيدة يهبط الدرع حائقة .. بالطيق في يدها . والقرش في اليد الأخرى .. وبدا الزقاق حائيا .. إلا من عبده عامل المطبعة وقد انتهى من كس المطبعة وبدأ عملية الرش بالخرطوم أمامها . وبدأها عبده بالتمحية هاتفا في بشاشة ومرح :

— صباح الخير يا سيدة .

— صباح الخير يا عم عبده .

— إيه صحاكي بنرى .

— حاشترى القول

— ولماذا لا يشتريه عباس .. والا عامل به .

ولم تكن سيدة تعرف أن عباس عامل به . وإنما كانت تعرف ببساطة أنه يام . فردت وهي تصبه إلى الشارع .

— لسة يام .

وصحمت صوت عبده بصيح من وراءها :

— لا شغلة ولا مشغلة . لا مفرسة ولا شغل في الورشة .. أمه مندمعه .. وأبوه رهن من صر به .. الله يرحمك يا حاجر . كنت شايل المطبعة على كتفك .. لن نجد الحاج برعى صتايل مثلك أبدا .

ووصلت سيدة إلى شارع السد ، وبدت معظم اخواتها ما زالت معقة والبعض ما زال أصبحها يمارسون عملية الكس والرش

عم حرس الخراز يعلق بقايا خراف يخرجها من التلاجة ليشكها في الخطاطيف ورجل بدلى وطرطور ومبخره يدبرها في يده والدخان يتصاعد منها يلف من حوله ويطلق صيحات غير مفهومة . ولا ينصرف حتى يصنع حرين الملب أو الكلفة في يده . صالحا به :

— كفاية يا شيخ متولى .

وحاولت المانياتورة ما زال معلقا . وعمود المرين لم يفتح بعد . ولا عيذ ربه المكهاى . الذي بدت الصديق الحشيشة والأقفاس حائوة أمام حائوته .. على المطاطرى هو الوحيد الذى بدأ بشاطه . أوقد المر . وأعد يقسم كتلة المعجن قطعا في حجم قبضة اليد بقلها في التريت ويرصها متجاورة قبل أن يبدأ في فردها ونشرها بين يديه رقاقة كالورق .

وتوضعت سيدة أمام الرجل الربعة المتأرجح مجدعه الأعلى بمة وبسرة . ونمت أن يبدأ عملية الفرد والشر . فقد كان صنع العطور إحدى الصميات الجديفة لديها . وكانت دائما تتلفع عن إحداها بوجهها اللامع الذى لعمه المر . ولكنها كانت تفع من اللهعة بمحرد المشاهدة . كانت العطورة بقرش كامل . ولم يكن من السهل أن يتحمد لديها هذا الملع ولم يكن لديها الصبر لكي تتحوش ثم العطورة فقد كانت الأشياء الصعري كبراعيت الست وبيوت العمير واللب والسودانى وغيرها مما يمكن شراؤها بالملاليم .. أشد جدانية من أن

تتركها توهر ثمنها حتى يتجمع لشراء عطورة .

ثم هذا كان في زمن مصرى .. عندما كانت .. تأخذ الملايين من أبيها وهو يهبط الدرج قبل دهبه إلى الثورشة دون أن تراها دلال . ولكن الآن من الذى سيعطيها هذه الملايين ربما لو طلبت من الحاج برعى يعطيها . ولكنها تجل من أن تطلب . وأم عباس لا يبدو عليها أبدا . أنها ستعطيها شيئا مبيدا أو ممثما بهذا الموقف السبى الذى تفتقه منها والذى بدأ اليوم . بالرمسة وشهر والسباب .

وعباس لا يبدو قاسيا . ولكنه أيضا لا يبدو مبيدا . إلا لنفسه .. فهو دائما .. يريد .. لم تسمعه إلا طالبا شيئا .. ثم تراه أبدا يعطى .

ما عليك يا سيدة .. المهم أن تتركوك في حالك .. ولو لحصى الوقت . تذهبن إلى الحارة لتلقى مع ربيب وبنية الأولاد . عند أن تركت الحارة وأنت عروية في البيت . تكسبن وتغسبن أو تملسين . أو تجلسن في صمت لترضى أهل البيت أو صوبهم .. يتحدثون عن أشياء لا تعرفها ولا يهتم أن تعرفها . لم تنطى الليل مدمدة . ولا لعبت الحجة .. ورفاق للطبعة يبدو غاريا .. ليس فيه أولاد يعبون . لا يدخله سوى ناس يحملون كتباً أو عربات تحمل ورقا .. أشباه لا تهتمك أبدا ..

وبدا على العطارى يبرد الرفاقة .

منى ستأكلين العطور يا سيدة .. لقد كانت لديك فرصة وأبوك موجود .. أما الآن . فقد أصحى الأمر مستحيلا . اللهم إلا إذا اشترى الحاج برعى عطورا .. وأعطوك منه .

ولكنها لا تتوقع من أم عباس غيرا .. أبدا .

لم تكن أم عباس تحبها فرصة الخيار في الأكل . كان كل أكلها طيبخ .. في الظاهر تعرف أم الطيبخ في طبق صاج عويط رالت عنه معظم قشرته البيضاء .. ولم تنق إلا أرصيته السوداء . ولقد خصص لها هذا الطبق بحيث أصبح طبقها ..

تصع ها أم عباس معرفة الطيبخ في قاعه وتعطيه بأحد الأربعة الرجوع التى أرمستها لشرائها من سوق العصر . وتصع لها مع الطيبخ أحد العروق أو قطعة من الشمت التى كانت تصر على إحضارها من المعلم حبرى فوق اللحمة والتى يمدنها الرجل من بقايا الشمت فوق الأرمة . ويقطع لها بعض العروق البيضاء من اللحم الملق ثم يملها في ورقة باعتبار أنها « أكل القطعة »

لم يمد هناك أمل في العطور . أو في غيره من أنواع الطعام الذى كانت تشتتله من دلال . والذى تعود أبوها أن يحضره معه عند عودته في المساء كالسلك .. أو لحمة الرأس . والسحق . فقد اقتصر أكلها منذ أن حلت بمقرها الجديد على الطيبخ ظهرا ومساء وصباحا . ولم يمد لها مفر من أكل السمسم المحمر والرز البابت في الحلة المبررة

وأحسنت سيدة أن الوقت يمر بها وهي تقف أمام حادوت العطور فانطلقت نعدو إلى عم مصور . فقد كانت تعلم أن التأخير عن أم عباس لن يفتقر بسهولة . وهي في صربها لا تصرب كأمراة ولكن كرجل قوى قاس .

كانت دلال تصربها وتقرصها . وترغدها . ولكن رغبة أم عباس وشدة شرها كانت شيئا آخر ..

ووقفت أمام حادوت عم مصور . القدرة الحاسية ماثلة على إحاصل المستدير المحيط بوابور الحار .. والبخار يتصاعد منها والكبشة في يد عم مصور متحركة . يدخلها في حوف القدرة ليجلسها الصحن والصحون والسلاطين التى تتدافع بها الأيدي الممتدة أمامه . يتناول الصحن الفارع ويسمعه مبيدا ويتناول القرش ليضعه في طبق أمامه .

والصبيبة الحاسية المربعة الحرف تتوسد الطعمية المخصوصة موقها فرائش من أموال البقدوس الحصراء والطاسة بخوارها يعى بها الزيت وتطشطن فيها الطعمية وهي تهبط على سطحها ورالحتها المربعة تملأ الخياشيم .

وصاحت سيدة وهي تملأ خياشيمها برائحة الطعمية :

بقرش قول يا هم منصور .
ودعت بالطبق محاولة أن تدس نصيبها وسط بقية التراصين أمام القدرة .
وصاح بها منصور :
— انتظري يا بت .. بلاش صرخ .
وعادت سيدة تنظر إلى الصبية اللأخي بالطعمية .
لو أن معك منيما يا سيدة لاستطعت أن تشعري طعميتين وتأكليهما
وحلك .
ملهم يا سيدة ..

لو كان أبوك موجودا . لكانت الطعمية الآن ملء فمك .
ولكن لماذا لا تمد يدها وتأخذ واحدة . إن أحدا لن يحس بها .. فالككل
مشغول بأمره . منصور مشغول بعرف العول في الألباق وصيه مشغول بقل
الطعمية .. والأولاد الذين حوفا لا يكادون يأخذون الطبق من يد منصور
ويعطونه القرش حتى يظلقوا إلى حال سيلهم ..
مدى يدك يا سيدة إلى الصبية ولا تحالي .
ولو رأيك أحد .. فمذاق يفلتون بك ..

بهر بونك ؟ يا رب . إهم سيلمونك إلى العسكري .. والعسكري
يذهب بك إلى الجن . ولا تعرفين ماذا سيكون مصيرك بعد ذلك
لا يا سيدة .. لا داعي للمفارقة .
ومدت يدها مرة ثانية بالطبق صالحة :
— أعطني بقي يا هم منصور .
— انتظري يا بت شوية .. عندما يأتي دورك .
وعادت رائحة الطعمية تنفذ إلى خياشيمها .. نفاذة رائحة .
مدى يدك يا سيدة وخذى واحدة .
أجل هكذا .. ارضي يدك حتى تصل إلى حافة الصبية .

لن يقول لك أحد شيئا فأنت تسدين يدك على الصبية ..
انتظري قليلا . حتى ترى كيف أحس بك من حوائك . حسا . لا أحد
يشعر بك مطلقا .
مدى أصابعك للسودة على حافة الصبية .
أجل هكذا . لقد مست أصابعك الطعمية .. ولا أحد يحس بك
أو يشك في أمرك .
أنت تسدين يدك على الصبية وأصابعك مفرودة .. ومست الطعمية ..
ماذا في ذلك ؟

بالكثير .. سيفول لك منصور أو صيه :
« اهدى أصابعك يا بت عن الطعمية » .
وتعدين أصابعك .. واتهينا .
ولكن أحدا . لم يقل شيئا . الككل مشغول بها .. وأصابعها ما رالت غس
أقراص الطعمية ..
الآن تستطيع أن تحرك أصابعها وتسحب بها ما تصل إليه من أقراص الطعمية
الثمينة . تمسك بها في قبضتها . وتستطيع بعد ذلك أن تجمعها في يدها
سهولة . دون أن تأتي بأية حركة مثيرة بظنون والشباب
وانزلت أقراص الطعمية من أصابعها إلى كمها . واستمرت كمها مغلقة بما
فيها على حافة الصبية الصفراء .

وصتت برهة وبظرت حوفا . والطعمية في قبضتها الصغيرة
لا أحد يراك يا سيدة ..
اسحبي يدك إلى أسفل .. بحملها الثمين بين أصابعك ..
وإذا صطقت أحد .. والطعمية في يدك .. بعيدا عن الصبية ؟
اتركها غلت من يدك . وكأنها سقطت عموما من حركة يدك . أجل .
أجل .

هيا يا سيدة .. اسحقى يدك ..

رويدا .. رويدا ..

أجل .. هكذا ..

أفراص الطعمية قد أصبحت في يدك يا سيدة .. ملكك وحدك . لا شريك لك فيها .. تستطيعين أن تلتهبها كلها . حاف . بحر عيش وأطبقت سيدة بأصابعها على الطعمية .. وعادت تصيح :

— يا لله يا عم منصور ..

وتناول منصور الطبق من يدها . وعلاه بالعول ثم أعاده إليها بعد أن أخذ القرش .

ولم تطلب ريادة . فقد كانت تريد أن تطلق بسرعة .

وسارت سيدة بانطبق في يدها .. واليد الأخرى تطبق على الطعمية .

وعبرت شارع السد إلى الجباب الآخر الذي به الفرقاق .. وعلى الرصيف الآخر .. أصبحت بالأمان ..

تستطيع الآن أن ترفع أحد الأفراص .. إلى فمها .. دون أن تخشى شيئا ولكن .. لماذا لا تبقها حتى تتناولها بالرصيف بدلا من الطبخ البائت دى المس الجرمز .

ولكن ماذا تقول إذا أهرقها أم عباس في يدها ..

ولماذا تريها ها . إنها ستخسها حتى تجلس لتأكل وحدها في المطبخ .

ووصلت إلى البيت وصعدت السلم ..

وعلى باب الشقة وجدت أم عباس وقد اكتمر وجهها وبدا عليها المصعب وصاحت بها :

— أين كنت .. كل هذا الوقت ؟

— عند عم منصور ..

— صبة .. عند عم منصور ؟

— كان عند زحلم .

وتناولت أم عباس طبق العول ونظرت إليها في مرهق من المصعب .

— يكفم هذا ؟

— بقرش

— هذا أقل مما تعود أن تحصره لا يمكن أن يكون بقرش .

— والله العظيم بقرش .

ووصحت أم عباس طبق العول على المنصدة ثم جديتها من يدها . وجرتها إلى الداخل .

— كل هذا الغياب .. ثم تعودين بهذا القدر من القول ..

وصرخت فيها وهي تنكمها في ظهرها لكمة جعلتها تنكمي على وجهها وجعلت الطعمية تفلت من يدها .

وه تذكر أم عباس تبصر أفراص الطعمية تندرج على الأرض حتى انقضت عليها صارعة .. كأنها اكتشفت جريمة كبرى :

— إذن فقد اشترت طعمية لمسلك وسرقت منها من قرش العول

وصاحت سيدة بالكية :

— أيتها والله العظيم .

— أيتها يا حرامية .. إذن من أين أحضرت الطعمية ؟

ولم تعرف سيدة كيف تجيب فقد كان الأمر كله مفاجأة لم تستعد لها ولم تجد أمامها سوى الإجابة الساذجة :

— عم منصور أعطها لي فوق النول .

وارداد هياح أم عباس وهي تحد نفسها تكتشف سلسلة جرائم . من السرقة والكذب . وصاحت وهي تمسك سيدة من شعرها .

— منذ متى عم منصور يفرق طعمية .. يمكن عاشقك

وهوت عليها بصعقة من يدها الثقيلة كالطارقة .

وصرخت مريضة .. وتذفع عباس من حجراته متسائلا :

— ماذا حدث يا م .

وأثنى صوت الحاج برعى محفلا من الحمام :

— مالك يا أم عباس

وصاحت أم عباس :

— ألى تندر سرقى ثمن العول .. وجابت به لئسها طعمية . أصلا

ناقصينا .. مش كفاية أوبناها .. وليناها

وتدخل عباس متسائلا :

— أنت سرقى ثمن العول يا سيدة ؟

وردت سيدة باكية :

— أبدا والننى .

وصرخت أم عباس محنة :

— والطعمية .. من أين أتيت بها ؟

وتفجعت سيدة .. بعد أن أدركت أن حجة مسحتها لياها بواسطة عم

منصور لن تكون مجدية .

وأجابت محاولة أن تقول شيئا .

— أصل .. أصلى ..

وتسأل عباس ناهرا :

— أصلك .. ليه ؟

وأعيها الصكر ولم تجد ما يسمعه بها ذهبى سوى المعنى الأول معادى تردده

فى إصرار قاتلة

— أصل عم منصور .. أعطاهما لى .

— عم منصور أعطاك الطعمية .. فوق العول ؟

وهزت رأسها بالإجابة والدموع تترلق على خديها .. وبدأ الحيط يتقل من

أم عباس إلى ابنا . وهتف سيدة وهو يمد عنقه من فتحة الجلباب ويرفع يده

مهددا .

— يا بنت الكفاية .. قول الحق .

— والله العظيم . والننى يا سى عباس

وهوت صمعة ثانية من كف أم عباس وهى ترى إصرار سيدة على الكذب

وصاحت بها :

— ننى ما يتشقق لك .. يا نورية .

وعادت سيدة تقسم . وهى تشر أن مصورها قد بات معقا بقدرتها على

القسم .

— والقرآن الشريف .

وبدت المسألة لئس كأها معركة عاد فاندفع إلى سيدة يبرها من يدها إلى

الباب قاتلا :

— تعالى ..

وصاحت أمه متسائلة :

— إلى أين ؟ ..

— سأذهب بنفسى إلى عم منصور .. وأسأله .

وقعت يا سيدة !!

بهاك أسود ومطير على دماغك يا سيدة ؟ ..

هذا الأخير المدع . لو سار بها حقا إلى عم منصور .. ليسأله هل أعطى لها

الطعمية مسودى بها فى داهية . لن تعود المسألة مسألة كذب .. أو انقاص من

ثمن العول لتحصير لئسها طعمية بميم أو مليون . ولكنها ستصبح سرقة

وسيدهبون بها إلى القسم والسجن ..

ولكن تقتصر النصيحة على بيت الحاج برعى وأهله . بل ستعدها إلى

الشارع كدمواسمتر الأخير يدعها أمامه فى تحد وإصرار وهو يهتف فى غيظ .

- سأرى كيف يعرق عم منصور الطعمية . يا كذابة يا بنت الكذابة .
وصاحت أمه به تحاول أن ترجمه عن اندياقه .
— تعال يا عباس . ليس لدينا وقت لكل هذا .. سأعرف كيف أربها .
سأعرف كيف أقور عيها ..
ولكن عباس لم ينصت إلى أمه .. بل ظل يدفع سيده أمامه على الدراج حتى
وصل إلى الرفاق . وعلى باب البيت وقعت سيده والدمع يهمر من عيها .
وهفت مستعظمة .
— حرمت يا سي عباس ..
— حرمت ماذا .. ألم تقولي إن عم منصور أعطاك الطعمية
— لا .. كنت أكذب .
— إذا لقد سرقت ليس القول .
— لا .. سرقت الطعمية .
— سرقت الطعمية ؟ .. كيف .
— مددت يدي وأخذتها من فوق الصينية وعم منصور يعرف لي القول .
واضح ان غضب من وجه عباس وارتسمت على شفتيه ابتسامة ما لبثت أن
تحولت إلى قهقهة عالية أردفها بقوله في إعجاب .
— يا بنت الأبالسة . تلطشت الطعمية . أمام عين الرجل
لم جرها من يدها عما ولا أن يعود بها إلى أعلى قائلا :
— تعال .. لماذا لم تقولي هكذا من أول الأمر .
وتسمرت سيده في مكانها وهتفت متسائلة ؟
— أقول ماذا ؟
— تقولي إنك سرقت الطعمية من عم منصور .
— ولكنها كانت متصربي .
— تظهر لك لماذا ؟ .. ما دمت لم تسرق منها .

- ولكن سرقت .
— أمي لا يهمها أن يسرق الناس العير .. بل قد يربحها بوع من الشماعة .
ولكن المهم ألا تسرق هي ..
— هل تظن أنها لن تصربي إذا عرفت إلى سرقت من عم منصور
— طبعاً لا ..
— ولكنها ستعرف أني سارقة .
— وماذا يهلك ..
— ستهمي بأن سرقت .. أي شيء يضيع .
وهز عباس رأسه في إعجاب قائلا :
— لا .. ناصحة ..
ثم صمت برهة وهو ينظر إليها متأملاً :
— إذن أنت لا تريد أن تعرف أمي أنك سرقت الطعمية .
— أجل .
— تعال .
وسحبها من ذراعها مرة أخرى متحدا إلى الشارع قائلا ..
— نمتني قليلاً . كأنما ذهبا إلى عم منصور ثم يعود ليخبره أنه أعطاك
الطعمية ..
وظهرت سيده إلى عباس في دهشة وشك متسائلة :
— هل ستقول لها هذا حقيقة ؟
— لم لا .. ما دمت أخذت الطعمية بلا غش .
وسارت سيده بجوار عباس حتى بلعا شارع السد .. ووقف عباس
مرتداً . لا يعرف إلى أين يذهب بها ليقصي الفترة المبرور أن يستلزمها
الذهاب إلى عم منصور .. وبدت عربة محملة بالبور تقف بجوار الرصيف قرب
الناحية وقد انتهكت صاحبها في إعداد القراطيس الفارعة . وهو يصيح بين آونة
(بح لا نزع الشوك ح)

وأخري . يقرشين الأثقة يا بلاش . سبيع بلاش يا عالم .. يا مارحست يا أكمل
البنوات يا مور .

وكانت صبيحات الرجل قد بدأت تجذب الناس حوله .. ونظر عباس إلى
كعوف المور السوداء الداكنة مرصوفة فوق العربة ، ثم جذب سيدة يديه
قائلا :

— تعالى يا بنت .. ورضي شطارتك ..

ولم تعرف سيدة أبة شطارة تلك التي يريدها أن تربها له . ولكنها لم تجد بدا من
السير معه تجاه عربة الموز ..

وأردف عباس يقول :

— جري بدل الوقفة .. أن تلطشي كعب موز .

وبدا الجزع على وجه سيدة وقالت في خوف :

— كيف ؟

— كما لطشت الطعمية .

— ولكن .. الطعمية .. كانت ..

— كانت ماذا ؟ إن كعب المور أسهل من الطعمية . ألا تحب المور

— أجل أحبه .. ولكن ..

— تعالى . وخليها على الله .

— ولكن عذ عم مصور . كان الناس مترجمين .

— لا عليك . سأساعدك أنا .

(٦)

نظرات تخترق الشباب

وقفت سيدة أمام عربة المور ..

وقفت لترتكب جريمتها الصغيرة الثانية . هذه المرة عى عمد وتدبير .

ولم تكن تعرف كيف تبدأ ..

المرّة السابقة ، كان معها نقود . وطبق . وكانت تريد أن تشتري مولا ..

ولكن هذه المرة ما عندها في وقتها أمام عربة المور وهي لا تريد أن تشتري

مورا ، ولا تملك ثمن إصبع منه .

ولكن ما لها هي .. إذا كان عباس سيدير الأمر ؟

وإن أمسكوا بها ؟ هل ستقول إنه هو الذي قال لها ؟ . هل سيذهب معها إلى

قسم البوليس وسيقتدها من العسكرية ؟

وصاح عباس بالرجل الذي كان قد أمسك ميراب في يده يرد شروة لأمريته

تفما ببوله تقول إحداها للأخري :

— نطلع به القرافة ..

— تطلعي القرافة بمور يا رتوية ؟

— أرخص م البرتغال والبلح الأبرهي . رحمة ومور على المرحومة .

— المرحومة كانت تحب الجوز والملاحة

— لأنها لم تكن تقدر على شراء المور .

وعلى هذه المناقشة ، والرجل مبهت في ورد المور . وعباس يسأله .

— بكلام يا عم الأثقة ؟

— وأجابه للرجل في نداء منغم :

— بقرش يا موز .. يتيج بلاش يا عالم .. أوعص م الجواصة والبلح
يا موز ..

حلال كل هذا الصحيح . مد عباس يده وسحب أحد كموف الموز .
وسلمه لسيدة أسفل العربة .
وأجاب عباس :

— بتلاتة ابصر يا عم .

وصاح الرجل في غضب :

— روح لحالك يا واد ..

فصرخ : له ؟

— روح يا بني ماحدش غاضبك .. روح الله يسهلك .

وتحرك عباس وهو يصيح يده عل كف سيدة ويدعها أمامه محاولا سترها
بعصده

وسارت سيدة وقد وصعت كف الموز في حجرها . وأمسكت بمذيل
الخبيب بين أصابعها ، ولم يكاد يذحلان الرفاق ، حتى هتف عباس فرحا :

— هالي يا بت

وأمسك بكف الموز في يده ورع أصبعين أعطاها واحدا ثم قشر الآخر ودسه
في فمه مرة واحدة وهو يصيح :

— يا سلام يا سيدة . دامت لفظة . ولا كلاب الصيد .

وأمسكت سيدة بأصبع الموز في يدها . وصاح بها عباس وهو مبتلئ بأصبع
الموز :

— كلّي يا بت .

وقشرت سيدة أصبع الموز وأخذت تلتهمه في استمتاع ..

ربك كريم يا سيدة .. حرمك أم عباس من الطعمية . فمحك يدها
مورا .

موز مرة واحدة يا سيدة ؟ ..

أحد الخمرات عليك يا سيدة .. التي تربتها من بعيد ولا تقربها .. الموز
واللجنة .. والكباب والكفتة . والعطير والقشطة .. والبيض .. والسردين في
العلب .. والبسطة . أشياء كثيرة جدا موجودة في هذه الحياة . ولكن لا وجود
لها بالسمة لك . أكلت أصبع موز يا سيدة . أصبح كامل مرة واحدة ..
ومد عباس يده بأصبع آخر بعد أن ازدرد في فمه أصبعين وهو يقول بعمه
المتل :

— كلّي .. حد واحد منها حاجة ..

وأكلت سيدة الأصبع الثاني .. لتلهذ .. لتلهذ ..

وجرها عباس تجاه البيت قائلا :

— بيتا .. نمطى بقية الكف للست الوالدة .

وسألت سيدة في خزع :

— وماذا ستقول لها ؟

— أي شيء .. إنها لا هم كثيرا بالسؤال عما تأخذ . لأن ما تلعنهم هو

ما تعطى ..

— ولكن ماذا ستقول لها إذا ما سألتك ؟

— اشترجه .

— م ؟ ..

— بفلوسى .. حدله عدى حاجة . أروح السما .. أكل موز .. أروح

وش البركة .. أنا حر ..

واستطاعت أن تفهم سيدة . أن يكون سيدا حرا في الذهاب إلى السبيل ..

أو في أكل الموز . أما أن يكون حرا أن يذهب إلى وش البركة . فلم تعرف لها

معى .

ما هو وش البركة هذا . الذى يؤكد عباس حرته في الذهاب إليه ؟

وسألت سيدة مرردة :

— تذهب إلى وش البركة ؟

— أجل .

— لماذا ؟

— لأفعل ما يفعل الناس في وش البركة .

— وماذا يفعلون ؟

— ألا تعرفين ؟

— لا .

— الظاهر عليكى .. هيلة .

وتوقف بتأملها في نظرة فاحصة وهو يتمم قائلا :

— سأريك في يوم .. ماذا يفعلون هناك عندما يصبح عليك الرمز .

وعادةً مديده ، كما فعل في مرة سابقة . وفرصها في صدرها قائلا وهو

ينفقه :

— لما ينفوا دول ..

وأدركت من قوله أن ما يتحدث عنه . له صلة بالأشياء الخفية التي كانت

تجربى في حجرة أبيها . والتي كان يعملها على المبيض مع أم دلال في تلال

رهم .. أو مع دلال نفسها .. في آخر مرة . عندما أبصرته يور حفاة على

بسطة السلم ويندج في الرحام .

ووجدت أن عيبها أن نهر عباس لكيلا يكرر هذا الشيء معها مرة ثانية ..

نصاحت :

— عيب يا مبي عباس .

— عيب إيه يا بت . إيش عرفك انتي .. هو غيه أئذ من العيب .

هن حقيقة العيب لديه ؟ . هكذا قال عباس . ولكنها لا تعب أن تصدق

ما يقول .

أجل يا سيدة . خدى بالك من هذا الولد الكبير الذي يقول عنه أبوه :

إنه مفسود ، ولا طائفة منه .

ولكنه مع ذلك يستطيع أن يفعل أى شيء ..

أخرجها بسرقة . وأعادها بسرقتين ..

ذهب ليؤكد كذبها وبشت حريتها . وعاد بها مرة من كل جرم ..

وسيدخلها إلى أمه بريئة من سرقة الطعمية التي لم تأكلها . بريئة من سرقة المور

الذي أكلته

وأحست كأن عباس مسحها بعصر وقاخته وجرأته . وتبدد من نفسها الدهر

الذي كان يملأ نفسها وهي تخرج من البيت متهمة بالكذب والسرقة .

ودخلت الشقة وكانت أم عباس قد هدأ غضبها واحتاج برعى على وشك

البرول إلى المطبخ . وغف أبه شتمتين لأنه غير نافع . لا في المدرسة ولا في

الطبيعة ثم تركه وهبط .

ولم يعلق عباس على كلام أبيه . وصاح بعلى براءة سيدة قائلا :

— حرام عليك يا م . الرجل مصور قال لي انه وجدها بت علبانة صصت

عليه .. أعطاهم كم طعميانية . أصغه كان يعرف أبوها الله برحمه ..

ولم يكن حديثه قابلا للمناقشة . لقد أنسى به الموضوع . ولا سيما عندما

دس مسألة أبيها الله برحمه . محاولاً أن يذكر أنه بأن البيت بئمة .. وأن الناس

يطعمون عليا . وأنها يجب أن تكف عن قسوها معها ..

ولم تجد التذكرة مع أم عباس بأكثر من تجاورها على التهمة المنطقية .. وصاحت

بها في تهديد :

— اتقضى النهار وعسى لم نفعل شيئا . ادخل الحمام خدى العسيل فموى

واتشره

وهكذا تبدأ دوامة كل يوم . العسيل والشر . والكس والمسح .. وتوليع

وابور الخار وتقشر الحصار . ونسمع أشباه لا تلبث في اليوم أن تنطفئ لكي

تسمع ثانية .. غطيان القلب ، والصبيحة الحامس .. وإبريق الماء والطشت ..
أشياء عديدة . كانت وظيبتها في الحياة أن تمسحها المرشد من العمل حتى يقبل
الليل . ونحس بحسدها مجهدا وقدمها لا تقوى على حمله . ولا تعود لديها من
أسية أكثر من أن ترعى على الحسرة وتقمض صبيها .

ويسير الزمن بسيدة حرة معقودة ، وعسل شاق ، وكلمات ناهرة ،
ولطيمات راجرة ، وإحساس بأن الحسرة تغطيها من كل جانب . وأنها عدوة
كل إنسان .. الباعة يبيعونها أشياء لا تقيها أم عباس ، وترجعها بها ..
فلا يرجعوا . ويرى أم عباس والباعة . يتنهي الأمر بملقة لها وإتمام بأنها رعت
وقطران .. وأن وشها يقطع الحسرة من البيت .

وعباس يسألها بين آونة وأخرى عن أخبار سرقاتها ، وكأنها قد احترقت
السرقه .. وفي عملة من أهل البيت يتحصن جسدها .. وبقرصها هاو هناك .
قاتلا في سحرية :

— بدأ صدرك بيت واستدار قوامك .. عما قريب تصبح امرأة ..
وتعزى العيب .
ونغمه ناهرة .

— عيب يا سى عباس .
ويرد عليها في استغفاف :
— جانتك بيلة .. هو انت في ذلك الساعة .

ولم يطل ما توقع عباس . ذات ليلة أسأها معص موجه . وعرفت
أم عباس بما فيها فقالت لها في حق وكأنها مسعولة عما أصابها .
— هو يعنى كنا بالقصبة .

وأقبل شتاء ، وصيف ، وشتاء ، وصيف .. وشقق قشع البرد أقدامها
وأدمى يديها في طوية ، ولست أرمض الطريق ويلاط السطح بأصل قدمها
العاريين في قبط بؤونة ، وعرفت الكثير من المسقة والألم . التي لا تيون

مرارها . كلمة طية ، أو بسمة حوى . وعرفت فوق هذا نظرات عجيبه
من الباعة والمارة . تكاد تحرق ثيابها . عند الصدر والردفين .

وفي يوم من أيام الصيف التي تبدأ بالصبح والشمس تكاد تتوسط كد
السما . مكتوم الأنفاس يحرق الصهد . انتهت سيدة من العسل والكس
والمسح . ولم تكن أم عباس تنوى أن تطيع فقد عزم الحاج برعى على أن يطلب
من حزين الجزل أن يصنع له ورقة لحم في القرن .

وفي الصبح بدا كأنها ليس هناك ما تفعله سيدة في البيت . وكا تعودت أم
عباس أن تجد لها عملا .. صاحبت بها :

— خدى الصبيحة ولقى قشر بطيخ للور .

وكان جمع قشر البطيخ من وسط القمامة التي تتوسط تقاطع الطرقات في
البحالة أحد الواجبات الهامة التي تقوم بها سيدة عندما ينفق الور والصراف
الطعام . ولا يكون هناك ما يتوارى من قشر البطيخ في البيت أو في الرقاق
وحررت سيدة بالصبيحة تنتهي لسرها قدع الطل التي ترميها جدران
البيوت أو الشرفات أو الأشجار على أسمنت الطريق وأرصعت .

وخطر لسيدة خاطر جرىء وهي تخرج إلى الشارع :
لماذا لا تلعب إلى الماوردى .. فستمتع باللعب ؟

مند أن تركت حى الماوردى . وهي محرومة من وقت طيب تمسوه فيه مع
البيات والأولاد ، وتلعب ما تعودت أن تلعبه من حيلة وسبحة واستعامة ..
أو ترور أم عطوة وتشاهد حبال الطل . إذا كان لها عطوة ما زال يمارس إعدادها
لصبيحة الحارة .

كل ما استطاعت سيدة أن تفعله . هو هيبات مسرقة من سحبا في بيت أم
عباس . عندما كانت ترسلها لشراء مولد أو جعل أو كرات . وكانت
تعدو لشراؤها من أم عطوة لتجلس معها برهة .. لتعطيا بعض الحب .
أو تعطيهما لحمة المفظة . وكانت تسلك في عودتها سبلا تتعمد أن يربها أكبر

فهر من العواري التي صنتها مع صاحباتها خلال اللعب والمفرو . ودعت بصح مرأت إلى بيتهم القديم . جلست خلالها مع ربيب . ولم تر عطفة سوى مرة واحدة ، وعلمت أن الأسطي أنور قد جح محلا كبيرا في شارع الخليج ، وأن عطفة قد أصحى شريكه في أهل الصغر . وعلمت أن بهسي قد سكن في شقتهم .

كانت كل رباتها حاطمة لا تستعرق أكثر من دقائق . في طريقها لشراء أي شيء كان يمكن أن تشتريه من الخي . وقد أحست اليوم . وهي تخرج لجمع قشر البطيخ أنها تستطيع أن تأخر دون أن تنهم بالعباب . ودون أن تصرها أم عباس . لأن قشر البطيخ قد لا يكون حاضرا في أي وقت أو في أي مكان بل يحتاج إلى بحث في كل منطقة البعالة ، وقد يمتد إلى ربيبهم والمدمج أو يمتد إلى حوري حبة نايش والماوردي . وأم عباس لم تحتاج إليها من الآن حتى مشوار سوق العصر لكي تذهب لشراء العيش الرجوع . ولن تجد فرصة حورا من هذه للذهاب إلى الماوردي . والجلوس برهة مع أم عطفة وزيارة ربيب واللعاب معها ومع بقية الأولاد .

اسهم أن تغد أولا قشر البهيح وتطمش على جمعه ثم تطلق للعب . وبدأت تعكر . هل تنحه إلى شارع الوادي ، وشارع مختار . لكي تنص جمع القشر من بعض قدامات الواضي . أم تذهب مباشرة إلى الماوردي . وقد تجد في طرفها عند أبو الريش أو في شارع الخليج أو في الماوردي معه . ما تريده من قشر .

وم تكذ تصل إلى آخر الحارة . حتى وجدت على ماصته كوما حديثا من القمامة .. يبدو كأنه وصح لها .

وسط الأوراق المبرقة والطلب الصمغ وبدور الماعو وقشر الكومة وعروق الملوغية والبطيخ الحامض . استقر كوم من قشر البطيخ . قطع كبيرة مختلفة . بها بقايا احمرار من آثار البطيخة مصمها .

وحاصت سيدة وسط كوم القمامة .. وهرعت القشط والكلاب من المخالقة التي هبطت عليهم في حرة تشار كههم مائدتهم .. وأخذت تجمع القشر وتضعه في الصمغية ..

ووصعت الصمغية على كتفها ثم اتجهت إلى الشارع العريض .

ماذا تفعلين الآن يا سيدة ؟

غير معقول أن تلجئي بمحلتك إلى الماوردي .

وغير معقول أن تعودى به إلى البيت والأأسكت به أم عباس وصاع عليك المشوار .. وهرعت من اللعب .

غير ما تفعله يا سيدة . أن تسلكي إلى الرفاق . ثم تجلبي الصمغية في بر السلم وتطغفي حبيبة إلى حي الماوردي وتلجئي كما تشائين .

واتجهت سيدة إلى شارع الد وعبرته إلى الرفاق . وهي تدعو الله أن يسترها .. وتوقفت أمام باصية الرفاق .

ماذا تفعلين يا سيدة . إنفارتك الحاج برهي .. أو واحد من عمال النظيفة . التصق بالحائط وتعمل في سرك . أجل . هكذا .

من حس الحظ .. ليس هناك من يقف في مدخل النظيفة .. الكل مبهكون داخلها . والرجل الذي يجلس مكان أبي يعطى ظهره لباب

ووصلت سيدة إلى باب البيت . ودخلت على أطراف أصابعها ، واتجهت إلى أسفل السلم وأترلت الصمغية من فوق كتفها ثم دعتنا تحت البسطة . ثم

أخذت تسترق الخطا من المصاء إلى الرفاق ومن الرفاق إلى الشارع . وأخيرا . يا سيدة .. ملكت حريتك .. ولو لبعض الوقت .

اجري .. يا سيدة .. اجري ..

اجري قبل أن يلحق بك أحد .

ووصلت إلى أم عطفة واهترشت الأرض بموارها وهي تلهث . وسألها أم عطفة في دهشة :

— مالك يا سيدة ؟

— حافظد معاكى يا خالى ام عطوة .. حالعب عندكو شوية .

— قلنى لخاليتك ام عباس ؟

— لا ..

— ولما تلور عليكى .

— هى قالت لى روحى لى قشر بطيخ للوز .

— ولينى ؟

— أبوه .. وعييته تحت السلم لغاية ما رجع .

— وجلست سيدة برهة بجوار أم عطوة . تستمع إلى أخبار أهل الحارة .

وبالنهاية أم عطوة سمعت الخبر من كرم الحلوى المزصوص في الصبية على القصص بجوارها بعد أن استمعت تجارها لتشعل الحلوى والفلاكة إلى جانب العول النابت والقمل .

وأقبل يهنئ بيها في فرحة قائلا :

— سلامات يا سيدة .. ازيك .

— الحمد لله .

— مصمت مدة .. لم يرك أحد .

وأجابت سيدة مقلدة السيدات :

— الدنيا تلاهى يا عم يهنئ .

وأجاب يهنئ ضاحكا :

— والله كبرق يا سيدة !

وبهضت والله وهى تقول :

— عن إذنكم .

— إلى أين ؟

— سأذهب إلى زينب .

— وينب عند عائلتها .

— سأذهب لألعب مع الأولاد .

واطلقت سيدة تغلو . ولم تشعر أنها جعقة كما دت .. لا شك أن هذه البرورات في صدرها وردعها . لم تعد تسحبها حرية الحركة والفقر هوى تحرك وتمتد في كل وثبة وحركة .

ومع ذلك .. اندفعت إلى اللعب بكل ما تبقى لها من جهد لم تستفده أشغال أم عباس الشاقة .. وبقدر ما تسمح لها هذه البرورات الجديدة على جسدها . والتي أصبحت إليها مد تلك الليلة التي أصابها فيها المعص والتي مبرها فيها أم عباس في حلق وعيظ .. كأنها ارتكبت ذنبا !

اندفعت إلى اللعب وسط مجموعات البنت أسفل شجرة دقن الباشا . وفي حوش المنزل فحرت الخيل .. ولعبت الحجلة . وعدت مع الصبية وراء عربة الرش .. يمللون سيقانهم وأجسادهم . مطعنين بها حرقه القيقظ

وأخيرا عادت إلى البيت وكانت الساعة قد تجاوزت الثانية بعد الظهر والشمس تهبط الكائنات بسياط من طب . وأشعبا تعد من كل شيء . من أسقف الشرفات ومن ورق الشجر . لم يكن هناك ظل بمعنى الظل .. ولكن كان هناك رقع سوداء على العريق . كأنها رسوم ظل .

ودخلت الزقاق .. وبدأت تهديء من عطاشها .

ترى ماذا ينتظرها . بعد كل هذا الغياب .

إنها ستقول إنها غابت لأنها لم تجد قشر بطيخ .. ولم تستطع أن تعود بملونه . هل يمكن أن تترك الوز بدون أكل ؟

ولكن ماذا تفعل إذا كانت أم عباس قد عثرت على صميحة قشر البطيخ أسفل السلم ؟

مصيبة !!

ووصلت إلى باب البيت . وبدت المطيعة والفورشة من خلال الباب الشح في

حركة دائمة وتعالى صوت الماكينة الجديدة التي اشتراها الحاج برعى في دقائق
منتظمة متواصلة . ومقرت من الباب إلى بحر السلم . ومدت يدها أسفله
فلمست الصفيحة الميتة بقشر البيض
الحمد لله .. ربما سترها يا سيده .. الصفيحة موجودة وكل شيء على
ما يرام ..

لم يبق سوى أن تلعبها على كتمك وتدخل لتواجهي أم عباس . لتلتقي
شائهما ودعواتها التي لا يستمع إليها الله . وإلا لما بقي حرقا إنسان على قيد
الحياة ..

وصعدت سيده السلم غملا الصفيحة فوق كتمها .. ووصلت إليها
أصوات تصافش في حدة وهي تقترب من باب الشقة استطاعت أن تميز منها
صوت الحاج برعى وصوت عباس .

ودفعت باب الشقة الموارب لتجد برعى يجلس على الأريكة ويجواره أم
عباس . وأمامهما عباس . ولم يهرها أحدهم التفتا . وكأن أحدا لم يرها .
وتعالى صوت الحاج برعى يقول في حدة :

— ست سوات وانت تسقط في الابتدائية .. رهنوك من مدرسة محمد
على غفلتك إلى ررق المعارف . كان المفروض الآن أن تكون في البكالوريا ..
— وماذا أفضل إذا كان حظي سيئا في الامتحانات ؟

— حقا سيئ ست سوات .. ولكن ليس الذنب ذنبك .. دسي لأني
استمعت إلى كلام أمك . التي تريد أن تجعلك أهدى محترم .. من الحد شترل
إلى الورشة .

وتدخلت أم عباس متسائلة في رأس وخشيق :

— ماذا سيفعل بها ؟

— بتعلم أي شيء . لقد بدأت حياتي بكنس المطبعة ومسحها كما يفعل عم
عبد .. وعلمي الأسطى ررق صف الحروف . ثم ظلت يجواره حتى خلقت

عمله وأصبحت رئيس الجمع في مطبعة الاستقلال في مراتب في السيدة .
وحاولت أن أتعلم الطباعة . وحاولت أن أتعلم التجليد . لم أترك شيئا لم أحاول
تعلمه في الطباعة . وكل شيء تعلمته محسب قديرا بين الناس وبين عمال المطبعة
لا بد أن تعلم لكي تعمل . المسألة ليست سهله . ليس هناك من يعملون بهير
علم سوى الشحادين .. وحتى هؤلاء . إذا لم يتصموا من الشحادة ماتوا
جوعا ..

ولم يحجب الأم هذا الكلام ورددت في عناد :

— أنت تريد أن تقضي على مستقبله ..

— مستقبله في أي شيء ؟ في الصباعة .

ورد عباس عتجا :

— أنا لست صائما .

— احرس .. انت صايح .. وسبقني صائعا . إذا لم تزل المطبعة نتعلم
شيئا .. لقد اشتريت المطبعة والورشة بعرق جيسى .. ولا بدنت أن تحاسب عليها
بعرق جيبك . لا بد أن تعمل فيها وتعلم ما بها لا بد أن تكون صايحا .
حتى يحترمك من حولك .. و ..

وقاطعت أم عباس قائلة في إصرار :

— لن يحترمك أحد .. حتى تكون أهدى موظفا ..

وصاح بها الحاج برعى ناهرا :

اخشى يا ولية أنا محترم أكثر من أي أهدى . وأنا أحترم كل الدين
يعملون حولي .. الأسطى جابر الله برحمه . كنت أحترمه . أكثر من أي
أهدى . أكثر من المدير والوزير . لأنه كان يحب عمله . كان يحب الورق
الذي يجلده . والبشا الذي يلصق به . كان يمسك الكتاب بعد أن يجلده ..
وكأنه يمسك قطعة منه ..

وأحست سيده الشوة وهي تسمع الحديث عن أبيها . وانتظرت أن تسمع

بقية إطراء الرجل له . ولكن أم عباس التفت إليها . كأنها لم تشعر بها سوى تلك اللحظة .. وصاحت بها .

— ماذا تفعلين هكذا .. كالخافضة الكدابة .

— لقد أحضرت قشر البطيخ

وبذا كأن أم عباس تذكرت غيابها فصاحت بها

— الآن فقط .. أين كنت طوال هذه المدة

وبدأت سيدة نسرود العذر الذي كانت تعلمه في دهبها وانصرفت تقول :

— دعت حتى وجدت هذا الكوم في آخر شارع سلامة . ذهبت في الأول ..

وهتعت بها أم عباس في استنكار :

— شارع سلامة ..

— أجل . ذهبت في الأول إلى البعالة . دخلت من شارع مختار على شارع

النوموى . وبعدى عن شارع سيم . وبعدى حدود على شارع .

وصرخت فيها أم عباس مقاطعة :

— انتبها . ليس هذا وقتك . سأريث بعدى . انظري فوق حرمضى

القشر .. واصلت نسقى

وقبل أن تتحرك تدخل الحاج برعى قائلا .

— دعيها تتفدى أولا ..

— الور ليس عبد أكل من الصباحة . لارم ساح .

هي أيضا لم تأكل منذ الصباح ..

في لحظة قاطعة قال الحاج برعى :

— كلى يا سيدة .

وكان عليها أن تأكل أولا بهاء على أوامر الحاج برعى . لقد كان الرجل

يصنعها عندما يحس ما يقع عليها من ظلم . ولكن إصعابه لما كان مادرا . لأنه

كان لديه الكثير مما يشغله ..

كان يحب المطبعة والورشة أكثر من أى شيء . وكان ينصف كل من بها .

ولو أن سيدة كانت تعمل في المطبعة . لكان حالها أفضل كثيرا .. ولكنها كانت

تدخل في نطاق عبود أم عباس . وكانت هي وحدها المسؤولة عنها . أو بتعبير

أدق المسؤولة عن عذابها . وتعاسها . فقد كانت تكره أن تراها جالسة .

أو لاهية .. كأنها قد اشترت جهدها فهي لا بد أن تستهلكه إلى آخر رمق .. من

اليقظة . حتى اليوم .

البلاط . وانتهت إلى حجرة الفراخ وهي تتوالت على أطراف أصابعها . وبدا لها كل شيء عرقاً . وأثرت بصيعة القشر ، بجوار الحجرة وقعدت بقشرة كبيرة إلى داخل الحجرة فاندفع إليها الور والفراخ تتراحم حولها .

وبعد رهة عادت بصيعة المياه . ودعت باب العشة وأخذت تحوض بين الور والفراخ تملأ المسافة وسط الطيور المتواتية حولها . ثم جئست بباب الغرفة الخشبية وأسدت ظهرها إلى الباب ومدت ساقها فتقرش قطعة الظل اللطيفة من الجندل على الأرض .

واحتلقت في أسعها رائحة الور والفراخ وقشر البطيخ وأخيرة المياه المسكوبة على البلاط الساح . وأسكت بقشرة تدفع السكين في حافتها تصفره فيها حتى متصمها . ثم تدفع السكين المرة بعد المرة حتى مرقها مربعة تقذف بها وسط العرة إلى الطيور المتلهمة عليها ، وأجست سيدة بنىء من الارتياح .

كان غريب قشر البطيخ من المهام المستعة لها . كانت تمارسها من الطفولة مع أم عطوة كنوع من أنواع التسلية . وهي تمارسها الآن في هدوء وبهدأ عن صراخ أم عباس . وهي تحس والطيور تنكأاً حولها لتناول قطع القشر أنها تفعل شيئاً مميذاً . عملاً من هذه الأعمال التي كان يتحدث عنها برعى .. إنه لا يحتاج إلى علم ولكنه يسعد بعض المخلوقات . ويشعرها أنها راضية بمحنة تقفر وتتوالت في فرحة وتقرب منها في لفحة واستهاس . ولا تفرغ منها أو تغشى من إمسائها إليها .

المخلوقات الوحيدة التي تبدو أنها تحبك يا سيدة .. هي الفراخ والور .. تحبك أكثر من بقية المخلوقات التي تحيط بك .. والتي تحيط بك . والتي ناصبتك المداها بلا مبرر ..

وأنت يا سيدة قد أصبحت أيضاً تكرههم .. إذا كانوا لا يبهوك . فلماذا تحبهم ..

واستمرت سيدة تدفع بالسكين في باطن القشر اللين الغليظ لتحواله إلى قطع

(٧)

في الطريق إلى امرأة ..

أنمت سيدة عدايها في عجلة فقد كانت تعرف أن أم عباس لا بد ستلاحقها بعد أن أعلنت أن الور لم يأكل من الصباح . وتناولت صيعة قشر البطيخ وصعدت بها إلى السطح بعد أن أخذت في يدها سكين المطبخ الكبير لحرق القشر .

وفي طريقها إلى السطح كان الحديث بين الثلاثة قد أوشك أن ينتهي دون أن يتخذ قرار هل ينزل عباس إلى المطبعة أم يستمر في المراسلة أو كما يسميها الحاج برعى التصباغة . ووقف الحاج برعى وهو بهم بالسرول إلى المطبعة وقالت له أم عباس .

— أبل لك شوية .

— والشغل .

— ينتظر .. حتى تسريح .. الدنيا أهلة

— لن أسترخ حتى ينتهي الشغل .

— الشغل لا ينتهي .

— سينتهي عندما تنجز .. أو تموت .

— قال الله .. ولا فالك .

— مصرونا لما .. لن يبقى سوى حملنا .

وعبرت سيدة الباب وأم عباس تصبح بها :

— صمى القشر هو . وارنى لتأخدى المياه .. المسقاة وماني جعت .

وصعدت سيدة الدرج ، ودعت باب السطح .. لتجد اللهب يتصاعد من

صغيرة تدفع بها إلى الور .
وسمعت وقع خطوات تصعد الدرج .. وما لبثت أن أبصرت عباس يقترب
مها ..
ولم ترتع إلى اقترابه . فهو لا يمكن أن يفعل شيئا بها .. وهى مستريحة فى
وحدها مع الور والفراخ .
وتوقفت عباس أمامها وهى تمرد ساقها وتكفى بظهرها على الباب . وأبعد
بنظر إلى ساقها العاريتين إلى ما فوق الركبة .
وم تعجبها نظراته .. فقد كان بها شيء غريب .. شيء كهذا الذى تحمله
نظرات الكوجى والمصرى .. بعد بروز صدرها واستلاء ردها واستمرت
سيدة تحرق القشر دون أن تلتفت إليه .
وقال لها عباس :
— إزيك يا سيده .
بمجرد كلام . يريد أن يقطع به الصمت . ليجرها إلى ما يريد
ورفعت إليه سيده عسيها وهى ما زالت مبهكة فى عملية التخریط ..
وأجابته بلهجة تحمل التحدى :
— رى ما انت شايف يا سى عباس .
وأجاب عباس وكأنه يحاول أن يفتش خطا يقوده إلى ما يريد .
— شايفك كويسة .. عال الحال .. مش بظالة أينا ..
وأحسنت أنه يسدد بصره إلى ساقها وكأنه يحاول أن يحريها وبعد بصره إلى
ما وراء ثوبها .
ولم تعرف مدا تفعل ولا ماذا تفعل . ولم تجد سوى قشرة البطيخ تخفى بها
اضطرابها فارتادت سرعة السكون فى يدها .
وعاد عباس يقول وهو يزدرد ريقه :
— كبرت يا سيده .. وبذلك صدر .. وظهر .

وصمت برهة وهو يتأملها ثم أردف يقول :
— فأكبر لما كان صدرك ممسوح .. وكنت . أقره ..
وأحسنت سيده أن عليها أن تقول شيئا تردعه به .. فهتعت مقاطعة :
— عيب يا سى عباس ..
ولم يكن ردها به أى تأثير رادع .. على البقيس . لقد اندفع عباس بمد يده
إلى صدرها قائلا :
— ورنى يا بنت ..
وأطبقت كفها على إحدى الكتفين الصغويتين المنتفختين فى صدرها والتي
كانت تصبى بهما سيده عندما تمد أو تسط الحبل أو تلعب المحبلة .
وعاد عباس يصيح فى إعجاب وقد تلاشت أمامه :
— يا بنت الغاية .. كل هذا عندك .. وتحفينه على ..
ولم تعرف سيده ماذا كان موعودا عليها ..
أن تدب وترهب صدرها وتقول له : اتخرج يا سى عباس .
إنها تعرف أن هذه مناطق يجب سترها .. ولا سيما من أعين الرجال .. لأنها
تحر إلى العيب .. واليب يعصى إلى المصايح .. والقضايح تجلب المصايب .
حقيقة يفعل الأرواح العيب . ولكن عباس لم يتزوجها . ولا نظمه
سيفعل .. على الأقل الآن ..
ودلال كانت تعمل العيب .. هى وعلى الميضى . ولكن لا شك أنها كانت
تريد .. لسبب ما . لا تعلمه هى .. فهى تعلم أن دلال لا تفعل إلا ما تريد ..
وليس على الميضى الذى يهصبا على ما لا تريد .
تختصر القول يا سيده ..
أنت لا تستطيعين فعل العيب إلا عندما تزوجين أو عندما تريدين .
وأتت الآن .. لا متروجة . ولا .. تريدين . فغور لك إند أن تردى ذلك
الولد الفاسد — كما يسميه أبوه — عن الاستمرار فى فيه .. الذى قد يقوده إلى

فعل العيب .

ولكن كيف ؟ ..

إن الأحمق . قد هبط بجوارها على ركبتيه .. وبدل أن يمسك صدرها من فوق الجلباب مد يده في فتحة وحبط بها إلى صدرها يمسك به فوق اللحم .. وهتف بها وقد تلاحت أنفاسه :

— إليه ده يا بت .. دول حلوة قوى .

وجرت سيدة جسدتها بهذا عن يده .. وغرقت فتحة الجلباب وهي تهيم في جرح :

— يا مصيبي .

— اغضض صوتك يا بت .

— ابعدي يا مبي عباس .. ابعدي أحسن لك .

— قلت لك .. اغضض صوتك .

— ابعدي انت .

ولكن بدل أن يبعد مد يده في جيب جلبابه وأخرج شيئا أعطاه لها وسدنت بصرها إلى يده فوجدت بها قرشا .

قرش !!

ماذا !!

وهتف عباس .. في انفعال وهو يزفرد ريقه :

— خذني يا سيدة .

— آخذ ماذا ؟

— قرش

— لمن ؟

— لك .. اشتري به ما تريد .

جميل أن تأخذ قرشا تشتري به ما تريد . هذا شيء لم يحدث منذ سنين ..

منذ أن مات أبوها في ليلة المولد

ولكن ماذا يريد هو ..

العيب طبعاً ..

ولكن .. لماذا يدفع الرجال نقوداً من أجل العيب ..

أليكون هذا هو ما دفع دلال .. إلى فعل العيب ..

هذا العيب لا بد أنه شيء ممتع للرجال .. يستحق أن يدفع من أجله النقود ..

أجل .. إما أن يتزوجوا يا سيدة .. أو يدفعوا النقود ..

وأنت .. لم تدخل يدي في النطاق الأول ..

عباس لم يتزوجك . ولكنه يدفع لك النقود من أجل أن يمارس معك

العيب .

أنتستحقين هذا يا سيدة ..

ما خطر بك ذلك قط يا سيدة . أنت بت تستحقين أن يدفع من أجلك

النقود .. ويهتف من أجلك الرجال .. وتلاحق أنفاسهم .

حقيقة أن المكروحي والمخضري .. وبائع الخبز . صحوك نظرات فاحصة

معينة . منذ أن برزت إليك التوبات .. ولكن م يخطر ببالك أن يركع أمامك

عباس .. أو عيس .. كما تاديه أمه وكما يحق لك مد الآن أن تاديه — بدل

مبي عباس — متلاحق الأعباس .. بمد يده لك بالقرش في رجاء متعجل ..

يرجوك أن تأخذه ..

لم يحدث في حياتك يا سيدة مرة واحدة . أن رجلك أسد أن تأخذ قرشا ..

لقد كان عهدك بالقرش حتى مع أميك .. أنه يطلب بالرجاء .. ولكنه لا يمح

بالرجاء ..

ولكن عباس .. يجلس الآن بجوارك .. وهو مارأل يهتف ماذا يده .. بالشئ

الأسحر . الذي يبغى لك أن تحصل على ما تريد .. به سرقة ..

أو موصل ..

— عذرى يا سيده ..

وحضت سيده وكأني لا تعرف :

— لماذا ؟

— ألا تريدني القرش ؟

— أجل أريد .

— إذن عليه .

ومدت يدها فأطبقت على القرش ..

هذه فرصة لا تعوض .. يا سيده عذبه قبل أن يرجع عيسى في كلامه ..

وقبل أن تسأله عما يريد هو . من أجل هذا القرش .. مد يده فأطبق على ذراعها ونهض بها وهو يخبئها إلى داخل الحجر .. قاتلا .

— تعال .

— إلى أين ؟

ولم يجيب .. بل استمر يجرها إلى داخل الحجر .. والفراخ تنوالب في مزع .. أمام هذا الانهزام المفاجئ ..

وبدأت هي تشعر بالخوف والاضطراب ..

إياها توشك أن تنارس ذلك الشيء الذي يعمل الناس خفية ..

توشك أن تفعل هذا العيب الذي يفعلونه من وراء الأبواب ..

لو أن أحدا رآك الآن ..

حسبته !!

ولكن من !! من يكر في الصعود هذه الساعة القاتلة والمهب تصاعد من

كل شيء .. حتى من صحيفة المياه ..

ثم عباس !! .. لا تظننا تفكر في الصعود الآن ..

قد تصعد عندما تطرى الدنيا . ومحيط الشمس . ولكن الآن .. في هذا القبط المحرق إياها وحدها . التي يدع بها إلى السطح . إلى جهنم الحمراء .

ليس هناك أحد يحتمل صعوده إذن ..

إن احتال حدوث القضيحة بهيد ..

ولم يد أن عباس .. يكر في أي شيء .. سوى العيب نفسه .. لم يفكر قط في المضحية وما تجره من مصائب .. فقد كان مبهكا في جرها إلى داخل الحجر .

أستدعا إلى الجدار . ومد يده ليرفع ثوبها .

حاولت .. بمقاومة لا إرادة أن تثبت في مكانه . ولكنه جذبها بعنف .. وهو يبل عليها بجسده . صاعطا إياها به وبين الجدار حتى أضحي رأسها مدفونا في صدره . ونفذت إلى غياشيمها رائحة مخملية يرجع أنفاسها .

ولم يظل الأمر . حتى أحست بجسده يشرخي .. وابتعد عنها .. وقد هدأت أنفاسه للتلاصق ..

أهنا هو العيب يا سيده !!

أجل .. لا بد أن يكون .. هو ..

لا شك أنه هو نفسه ما كان يحدث وراء الباب في العرة المعلقة .. وهو ما يحدث .. بين الديك .. والدجاج . بغير أبواب معلقة .. وبغير حياء .. ودون أن يكون حياء .

عجبة !!

ومظرت .. إلى عباس وهو يتجه خارج العرة .. والفراخ تنوالب من حوله .. وقد بدا كأن أمره انتهى معها .. ولم يعد هناك ما يصيبه بها ..

حس !! أهنا كل ما في العيب !!

المهم .. هو هذا القرش في يدها ..

هذه القوة التي تستطيع أن تطلق .. لتشتري بها ما تشاء وبسرعة .. قبل أن تكتشف ثم عباس وجوده معها ..

والا .. حلت الكثرة .

من أين تقول إنها أحصرت ..
 إما أن تحرف أنه غي الحب . أو تنهم بالسرفة .. أو تدعى أنها وجدت في الطريق ..
 وقد تصدق أم عباس .. أو لا تصدقها .. ولكنها على أي الحالين .
 تستعوي على القرش .. ويضح غن الحب .
 وفتاة تصاعدت من أسفل . الصيحة الغيعة .
 — سيدة .. بت يا سيدة ..
 وتوقف عباس أمام باب غرفة المراح وبدأ عليه الاضطراب للحظة قصيرة ولكنه سرعان ما نظر إليها هامسا :
 — ردى ..
 وانطلق صوت سيدة صبيح وهي تدفع إلى باب السطح .
 نعم يا أم ..
 وانطلق الرد من أسفل كأنه طلاقات المدافع .
 — عو لما يشحك .. انتي حالياني عندك ..
 — خلاص يا أم .. فاضل كام قشرة .
 — اعمل لك همة . ودرى . وكفاهاك عياب طول البار .
 — حاضر يا أم ..
 ولم تكن تعرف ما تنادى به أم عباس .. سوى أم . كما كانت تنادى دلال ..
 كان الكل عدها أم .. لا . الأم الحقيقية التي لم ترها وجها . والتي دعيت بها إلى الشقاء .. وفرت هاربة ..
 ومصت لحظة صمت . وكانت الشمس قد أصبحت تميل إلى الأفق ..
 والهب قد خفت حدته .
 ونظر إليها عباس . نظرة شاردة .. خلت من اللهمة .. والتوتر . وبدأ عليه كأنه أبهى مهمة كان لا بد من إنهاؤها .. وقال بانصباب .

— سأزول أنا الأول ..
 ثم اتجه إلى باب السطح وصمت صوت أقدامه مبط المراج .. ولم تكذ تستقر على الأرض في مكانها وتمسك بالسكين وقشرة البطيخ الباقية حتى صمت صوت أم عباس يعلو من أسفل متسارعا في حدة :
 — كنت فون يا عباس ؟
 — كنت فوق .
 — بتعمل إيه ؟
 — باشم الموا .
 — في عز القرة ؟
 — كفى كنه .
 ومصت لحظة صمت ثم صمت صوت أم عباس تصبح منشرة :
 — والله ما انت جايها البر .
 أجرى أدركت أم عباس ما يمكن أن يكون قد حدث ؟
 أمقول أن تصور هذا ؟
 ولم لا .. إنها أدري بانها ..
 أو يكون هذا .. هو رد الفعل عندها ؟
 وماذا تمك أن تفعل غير هذا .. إنه مجرد شك !!
 وإذا كان أكثر من شك .. فماذا يمكن أن تفعل !!؟
 إذا حدث أن رأيتها خلال الباب نفسه !!؟
 فماذا سعمل !!؟
 من غير شك .. ستلهمها علفة ساحة .. تنجليها من شعرها .. وتلقى بها على الأرض .. وترفضها بقلعها .. حتى تكسر عظامها ..
 وهو ماذا سعمل به . ستشتمه .. وتدعو عليه .. كما تعودت أن تفعل .
 ويتبنى الأمر عند هذا الحد ..

وانتهت من القشرة في يدها .. وقطعت بآخر قطع منها إلى الأور .. الذي بدا أقل طعة .. وأكثر رغبة في الاسترخاء .. وأصغرت ترقب إحداها .. وهي قد متقارها في المسافة ثم ترفع رأسها برقبتي الطويلة إلى أعلى .. تاركة الماء ينزل خلالها .. إلى جوفها ..

هذه المرة .. بلا شك في أسعد حالاتها .. ليس لديها من المخاوف مثل ما توجسه هي دائما في كل ساعة .. لقد أكلت وشربت .. وشئشي وتصمق بمحاسنها .. ثم ترقد في استرخاء .. ليس هناك ما تعشى حدوثه .. حتى عملية الذبح التي تصيب إحداها بين آونة وأخرى .. قد خلا ذهبا منها .

والصبي قد يحدث أو لا يحدث .. دون أن يسبب مشكلة .. وقتها تريد وحيتها تريد .. وبلا جوار ولا استار .. ولا حياة ولا خوف من عقاب .. لو أنك كنت وزرة يا صيدة ..

لكنك أسعد حالا ..

كنت تأكلين قشر البطيخ .. جاهزا دون أن تخفى في له .. وغريظه .. ودون أن يسلط عليك بلاط السلطوح ..

كنت تعدين كل شيء تحتاجينه .. دون أن تسمى إليه .. وبغير حاجة .. إلى قرش ما .. لا تاتين بيتك إلا به .. ولا تستطيعين الحصول عليه .. إلا بفعل العيب .. الذي قد يودي بك في دلعبة ..

وأطبقت على القرش في كفها .. لتأكد من وجوده .. وتقرئ من يقاتله ١ . كيف تخفيه يا سيدة عن أم عباس .. حتى تشتري به ما تشائين ؟ .

تشتري به سحق من شارع السد البرالي .. من الخلل المرين بالمرابا والخلل النحاسية الكالكين بعد الحبيبي .. وقبل السيدة ..

أو تشتري به شمانة صغيرة .. عند سيدى الطيبي .. وتأكلها بمحلاها .. أو تشتري بيضا .. تغليه ..

أجل .. نفسها في البيض المنقل .. الذي تغليه أم عباس لروحها .. وابنتها ..

ولم تصكر مرة في أن تغليه لها .. بذل الطيخ المحمر والزر البات وبقايا العود إن تبقى منه شيء .

من أين لك السمس .. والواوور ..

من المطبخ ؟! وأم عباس لو صبطت صناد تقولين ؟!

يحتاج الأمر لعمية أم عباس ..

لو أنها تخرج يوما لسوق الفراخ الذي تذهب إليه كل يوم اثنين لوحدها لكانت فرصة لا تعوض ..

ولكنها تأخذها معها دائما .. لتحملها ما يتنازع من فراخ .. بعد أن تلوعها معها وسط أنفاس الفراخ المتراخمة في الشارع الموازي لرين العباسين ..

وبعد أن تسالوم .. وتكافك .. وتسب وتلعن ..

إن عدا الاثني .. لو أنها تركت في السار وذهبت وحدها ..

ولكن كيف ..

تتأخر ؟! ولكن هل يطل المارمر على أم عباس .. لقد حاولته مرة .. صمدت يدها إلى جنبها ولم تجده ساجدا .. فجدتها من شرها صابحة في عيط :

— قومي يا بنت بلا كهن .. انتي زي الجبن ..

وهي لا تستطيع أن تدعى للمعص .. لأنها تعرف موعده .. وتعرف ما يصاحبه .

مشكلة .

بالص اليصر .. إن أمامها أشياء كثيرة حلوة .. تستطيع أن تشتري في أي مشوار تنعجب إليه ..

أشياء مما تنلهم عينه وتعلم به .. السجق .. والريادي .. والبطيخ

الطيخ بعمه . وليس قشر البطيخ الذي تحت منه ما تبقى من بقع حمراء متحللة عما أتهم من هوقها .

المهم الآن كيف تختصم بالقرش دون أن تعثر عليه أم عباس ..

أفضل طريق .. هو أن تحصى فوق السطح في مكان ما بحجرة الفراع ..
ولكن أين ؟ ..

لا بد لنا من مكان آمن لا تصل إليه الأيدي أو الأبصار هناك .. في هذا المركب
داخل البلاص .. إنه لم يتحرك من موضعه منذ أن حلت هذه الدار .. ومارست
مهمتها في إطعام الورد والفراع .. إنها تستطيع أن تحصى القرش داخله في أماكن ..
إنها تستطيع أن تحصى به هذا القرش .. وعوره من القروش ..
غيره من القروش ؟!

أنظرن أنها ستحصل على غيره ..

هل سيحاول عباس أن يمارس الحب معها مرة أخرى ..

وهل سيتمتعها كل مرة قرشا ..

لم يد عليه عندما انصرف .. أنه يريد أن يعمل ثانية .. لقد تركها في غير
لغة .. كما ترك بقايا الطعام .. تقبل عليه في لغة .. وساعف بقاياها .. عندما
تعمل به ..

ولكننا نعود فنجوع .. ونكسده حاجتنا إليه ..

أترى الحب .. كالطعام .. حاجتنا إليه متجددة .. شبع فنعافه .. ونجوع
محتاج إليه ؟!

لا شك أنه كذلك ..

والأما استمر .. فعل الصب ..

ولكن هل يعود إلى بقايا الطعام ؟!

الطعام الصالح .. بلا شك أفضل .. ولكن إذا لم يجد .. فلا مفر من
بقاياها ..

ولكن أترامها .. الآن .. تمثل بالنسبة لعباس .. بقايا طعام ..

جائر ..

وإذا لم يجد الطعام الجديد .. فسيجود إلى بقاياها .. حتى ..

وسيكون لها أمل في قرش جديد ..

قرش جديد .. من أجل عملية عيب جديدة ..

ولكن أبسط عليها .. ممارسة العملية مرة أخرى ؟!

إيم لا .. إذا تحت مثل ما تحت به هذه .. فلن يكون الأمر مستعصيا .. ليس
عليها إلا أن تستند إلى الجدار وتستسلم .. وتحمل عبء عباس برهة .. ثم يمتطي
الأمر ..

وأطلقت سيدة تبيدة ..

كل شيء بضمن يا سيدة ..

للقيمة والمأوى .. قد دفعت فيها حريتك المفقودة .. وجهدك الصالح
وعرقك الناقط .. ساعات النهار وبعض ساعات الليل ..

من أجل طبق طيبح بالمت .. ورقدة بضع ساعات — هي أفضل ما في
حياتك — فوق الحصر في المطبخ .. تدعين كل هذا الجهد والعرق ..

ومن أجل هذا القرش الذي تستطيعين أن تشترى به ما تشائين .. وتحصل على
كل ما أنت محرومة منه .. وقتت مسودة إلى الجدار .. ورفع ثوبك برهة
واحتملت عبء عباس لحظات ..

عجيبه !! أن تصعنا الحياة .. بحيث يجعل المقارنة بين .. الطبيعي ..
والصبي .. غير معقولة ..

لحظات عيب يا سيدة قد أتاحت لك ما لم تنحه سنوات المشقة في الكس
والمسح والقسيل ..

ولكن هل سيعود عباس إليها ثانية ..

إيم لا ..

قد تكون بقايا طعام .. ولكنه طعام لذته ..

ألم تحس صبرها قاتلا ؟ إنه ده يا بت دول حلوي قوي ؟!

وهما باقي لإعادة جديده ثانية .. إلى نفس الطعام .. عندما يجوع ..

لم يحضر لها بهال .. أن تكون غاتين الكتفين طالما عاقتاهما عن العود
والقفر .. مثل هذا الجذب ..

لم تنظن .. وهي تتلقى نظرات المكوجي والمحضري .. إلى صدرها وورديها
أنه يمكن أن يكون لها ثمن ..

قرش بحاله .. يمكن أن يتجده .. مرة بعد أخرى ..

ووقفت سيدة مستندة على حافة سور المطروح .. ورتت بعصرها إلى
سطوح المنازل المجاورة .. وإلى كوبري النيرة الحديدى الذى يصل بين الماوردى
وحى النيرة .. وإلى أشرطة السكة الحديد تحت أسفله .. وإلى السماء المنبسج الذى
يتقاطع فيه القضبان وتقف عليها بعضة قطارات .. ويدو فى جانبه أكرام
النجم .. ويجوارها ماسورة غليظة أسفلها يرميل ..

ووراء كل ذلك تبلو بيوت حى النيرة بطيعة تحيط بها الأشجار والشمس
تنزل رويدا .. رويدا .. فى صفحة السماء نحو الأفق الغرقى .. غصصة من سطوة
لحيها وهي فى طريقها إلى رحلة الليل ..

وأطلقت سيدة من صدرها تنهيدة .. وقد تملكها إحساس بأن شيئا ما قد
حدث فى أصاقلها ..

لم تعودى طفلة يا سيدة ..

لم يعد يلق بك سطو الجبل .. والوثوب على قدم واحدة فى الحيلة .. بل لم يعد
يليق بك أن تسرى بمجلباتك هكذا .. لقد استحق جسدك منذ الآن .. علامة
لعب كنتك التى ترتديها النساء .. أم عباس ودلال وعمرها .. من حوات
الصدور .. والأرداف ..

لم تعودى بعد صغرة يا سيدة

أنت فى الطريق إلى امرأة ..

ومرة أخرى أطلقت التنهيدة من صدرها .. وشردت بعصرها فى الأفق
البعيد .. إلى حيث أشباه غامضة تلوح غير مرئية .. ولكنها تشد البصر ..

أمامك يا سيدة أشياء بعيدة مجهولة ..

وعجأة انطلقت صرخة من أسفل تشدها من شرودها فى الأفق البعيد ..

— سيدة .. بيت يا سيدة .. ياللى تحطى فى باهوحك ..

وأفرغت الصرخة سيدة .. واندفعت إلى أسفل مجيبة :

— تازلة يا أم ..

الحمام .

كانت مساء يوم جمعة .. وأم عباس تعودت أن تنبى عملية الطاعة الشاملة للبيت .. بالاستحمام .

وكانت قد صنعت حلالة الليمون وكشطت جلد ساقها وذراعها التي تدلى بها الشحم المخرزل . وأخذت تلتصق قطعة الحلالة على وجهها وتردها ثم تجدها فجأة .. حتى أصحى وجهها كالجزرة .

وصاحت بسيدة

— شوق الحية سخنت .. وأعطى الوابور نفس .

ودعت سيدة إلى الحمام . وجرت كرسى الحمام المنخفض تجاه الصليحة الملأى بالمياه المخلطة على حمالة الوابور . ودفعت يدها في الصليحة تجس المياه . ثم انحلت على الوابور تسده يسراها وتذرع بالكباس مرة بعد أخرى في حركة سريعة إلى باطنه . ولم يرد الاشتعال ولا علا صوت الوابور فخرجت تحصر الإبرة لتصلبكه من المطبخ .

وصاحت بها أم عباس متسائلة :

— سخنت ؟

— ما زالت غائرة .

— لدى الوابور نفس .

— عايز تسليك .

— لماذا لم تسلكيه من يدرى ؟

— سلكته والسد .

وبرطمت أم عباس يصيح كلمات تدل على عدم الرضا وهي مستمرة في لصق قطعة الحلالة ونزعها من جلدها .

وعادت سيدة بالإبرة إلى الحمام ومعها عبة الكيريت . وأم عباس ما رالت مستمرة في عملية البرطمة والتلف .

(٨)

طارت الحلة !

لم تكن سيدة تعرف سببا لإصرار جسدتها على الخوف والتهابات بعبها . وكانت بصيق بهذا الخوف في أول الأمر . فقد بدأ عائقا لها عن ممارسة متعة اللعب . العفو والقهر .. وسط الحبل وعورها من أعمال الصبايا التي تحتاج إلى جسد لا يتعثر في كل قفزة ويتأرجح ويبتز في كل حركة .

ولا كانت أم عباس راضية عن هذا الاعتلاء .. فقد كانت تعرف أنه يقتل حركتها . ويجذب الأبصار إليها .. ويجعل منها شيئا آخر .. هو ذلك الجسد الأعرج الذي تعودت منه أن يعمل ويعلم ككلاب الصيد .

كانت أم عباس تحافسها في أول الأمر خصوصه السيادة .. تحبهم في وجهها ونصرح بها .. كصاحب عمل . يمارس السلطة . على عماه . ولكن التطور الذي بدأ يتخذ طريقه إلى جسد سيدة .. أخذ يدفع في نفسها .. إحساسا جديدا بالخصوصية ..

أم عباس . بجسدتها الطويل .. العريض المنكبين . الذي يبدو في وقته كرجل قاس .. رغم ثدييها اللذين كأنهما عرج فارغ على ظهر دابة . وذراعها الطويلتين وكفيها الثقيلتين المنموغتين بالوشم الأخضر في طهرهما .

أم عباس . الأثني الوحيدة في بيت الخناجر برعى .. كانت تذكره أن تنبت إلى جوارها أثني حقيقية . من هذا الجسد الأعرج . الذي يبدو وكأن الأهم قد مرغت له لتجمل منه .. شيئا مثورا .

ولم تكن أم عباس لتعرف بالعبط ما أصبحت عليه سيدة حتى أبصرها ذات يوم مجردة من هذه الغلاجل التي تسترها .. ووقفت أمامها .. امرأة .. لا امرأة في

ولم تكن سيدة تفرغ منها .. كما كانت تفرغ فيما مضى .. فلقدها متحجها ذلك الشيء الذي أصيب إلى جسمها .. بكل ما يمكنه من نظرات الناس .. بعض الثقة في أنها قد أصبحت شيئا .. وأنه لا داعي لهذا الرعب الذي يصيبها .. من أم عباس .. ومن أى مخلوق غيرها ..

وانحست سيدة على الوايور تدفع بالإبرة الرقيقة في ثقب العوية . وأدخلت الإبرة وأخرجتها في الثقب بصع مرات . وانطفأت شعلة النار واندمع الدخان متكاثا أسفل الصميجة . وأسرعَت سيدة توقد الكبريت ولم يشتعل العود فأخرجت عودا آخر وقد أصابها القلق خوفا من أن يفرج اجاز من فتحة العوية وتضطر إلى إزال الصميجة لإشعال الوايور من جديد ..

أسرعى يا سيدة .. على تعرقك أم عباس هذه المظلة . وهي تريد أن تزيل آثار الخلاوة من فوق جسمها .

واشعل عود الكبريت .. وأسرعَت سيدة تدفعه في الوايور . واندفعت البوران بقر بقوة ..

ولغادرت سيدة الحمام ..

وسمعت صوت أم عباس يتسائل :

— سيدت ؟

وأجابت سيدة بصوت يبدو أن أم عباس لم تسمعه خلال عملية لصق الخلاوة ورعها التي وصلت إلى أسفل أذنها . فصاحت بها المرأة :

— إيم لا تردين .. انخرست ؟

— قلت نعم .

— بعامة ترفعتك .

ثم أعقبت الدعوة بسؤال استفسارى :

— حضرت البعثة والصابونة ؟

وصاحت سيدة حتى تسمعها أم عباس .

— نعم

— بتصرخى كده لى يا بت . أجبت ؟

وتنصت سيدة معتدلة :

— لكى تسمعى يا ام .

— قالواك على انطرتش قومى حضرى غيار .. هالى الجلاية الكمستور البعثة .

— حاصر .

وأخيرا أقبلت أم عباس على الحمام .. بعد أن سحبت المياه .. وأعدت لها الفيار .. ووراءها .. سيدة .. لتدعك لها ظهرها ..

وكان دحك ظهر أم عباس . أحد الأعمال الشاقة التي تؤديها سيدة .. كانت أم عباس تخلع ملابسها وتستقر على الكرسي الواطىء ، فلا تنهض حتى ينتهى الحمام ..

وأمامها تستقر القروانة والكوز بداخلها . وكان على سيدة أن تحول المياه الساخنة من الصميجة إلى القروانة .. والباردة من الحنفية إلى القروانة . وتظل تجرى عملية الخلطة حتى تنقل القروانة بالمياه المناسبة . ثم تعود لتكمل الصميجة من مياه الحنفية .

وتبدأ أم عباس بمسح رأسها . وكانت مهمة سيدة في هذه العملية هي تحويل المياه بالكور من القروانة وسكبها على رأس أم عباس التي تختلط فيها الحبة البعداى بالصميجة . ولم تكن عملية سكب المياه على رأس أم عباس سهلة .. لم يكن هناك شيء أبدا يرتبط بأمر عباس سهلا . كان على سيدة أن تسكب المياه ببطء .. وبأولمر .

— أدلنى يا بت .

وتنزل المياه على رأس أم عباس ..

وصحاة تصيح :

— بس .. كفاية .

وبعد برهة :

— حظى .

— بس .. قلت بس ..

حتى ينتهى غسل رأس أم عباس .

ومسك بعد ذلك بالليفة والصابونة .. وتقوم هى بعملية ترعية الليفة حتى تنمو فوقها طبقة سميكة من الرغاوى .. ثم تمد يدها إلى سيدة أمرة .

— خذى .. ادعكى .

ولم يكن جسد أم عباس عاديا ..

إن سيدة ليست حديثة عهد بأجساد النساء .. ولا حديثة عهد بدعك ظهوره . فقد سبق أن رأت روعة أبيها دلال فى الحمام .. وسبق أن دعكت لها ظهرها ..

ولكن أم عباس .. كانت — كما كانت فى كل حاجاتها — شيئا آخر .

كان جلد أم عباس ميقعا .. لم يكن أبهى كحند دلال .. ولا أسمر كألم صهوة .. ولكنه كان ملطشا بثلث البقع العائمة المتناثرة عليه . والى ظننا سيدة فى أول الأمر . وساحة وظلت تدعكها بالليفة .. حتى كلفت يدها وصاحت بها أم عباس .

— كفاهاك يا بت سلخى جتى .. انتقل لحنة تاتية .

وكان الجسد .. تتدلى طباته .. طية فوق أخرى .. حد الصدر والبطن .. والأجناد والساقين . مما يحتاج إلى أن ترح بالليفة أسفل كل حبة لكي تنظف تحتها ..

ولم تكن أم عباس تبدو سميكة . لأن عظمها عريض . ولكن طبات الشحم انقزل .. كانت تبدو جليدا عندما تخلع .. وتجلس .

المهم .. بدأت سيدة عملية الدعك المعتادة . وأم عباس ترشدها بين آومة وأخرى

— اطلعى لتفوق شوية ..

— ييك .

— أبوه كته .. بس هنا .. ادعكى أوى ..

وهكذا حتى يمر حنדהا الممتع . وتهت سيدة ويتصبب العرق من وجهها .

وها تملو ابتسامة الرضا . على شفتى أم عباس . وتهت بسيدة .

— كفاية يا بت

ووصعت سيدة الليفة فوق الحمية . ووقفت تريح ظهرها .. وأمسكت أم عباس بالكور تسكب مه على جسدها وهى تقول لسيدة :

— اقلنى لكى تفسل عيارك الموسخ بالمرة مع العسيل .

وترددت سيدة برهة . لقد سبق لها أن خلعت أمام أم عباس . ولكن كان هدا جسامعى . قبل أن تبت ها هذه الأشياء الخطيرة التى يجب إحماؤها عن عيون الناس ..

ونظرت إليها أم عباس وهتفت بها أمرة وهى تلاحظ ترددها .

— اقلنى يا بت . ليس هناك وقت لذلك .. لازم تشطى العسيل .

وتركبه على الزهرة ..

ولم يكن هناك مفر من الخلع .

وخلعت سيدة ثيابها قطعة قطعة وألقها بجوارها ..

ونظرت إليها أم عباس .. فى دهون . ونجست فى صوت غامت .

— أصبحت امرأة .. يا بت .. مصيبة ..

لقد كانت أم عباس تعرف أنه تحت ثياب سيدة . قد بث لها صعر .

وانتصع درفاها . ولكنها لم تكن تتصور أنها أصبحت تمثل هذا الامتلاء والتدوير . ولقد شعرت — كما عبرت ببساطة — أنها مصيبة .

مصيبة أن توجد فى البيت .. وعباس موجود .. إنها لا تعرف ماذا

يمكن أن يجعله عباس .. إن لم يكن قد صله .. قد تصبح يوما لتجد البيت
حننلا .. وهورق العصبية .. يصبح على عباس أنها .. التي تحاول أن تحمل منه
أمنيا .. وتروجه .. لآية أحد الموظفين .. الذي يمكن أن يعمه في عمله
وبشره بسبه .. يصبح عباس .. زوجا لسيده ..

يا حية أملك يا أم عباس .. لو وقع المخطور ؟
وظفرت أم عباس إلى سيده في غيظ .. وقد برز صدرها المنتفخ في غير
ترهل .. وصاحت بها :

— لماذا تقعين هكذا اجلسي واقبلي راسك .

وجلست سيده بجوارها وأمسكت الكوز تملأه .

وعادت أم عباس تنظر إليها نظرة حاتقة .

لماذا . كل هذا ؟ .. ماذا ستفعل به .. كان يكفى لها .. هذا الحسد
الأعرج . ذو الأصلاح المرسومة .. وعظام الكتف البارزة . ماذا ستفعل
بكل هذا ؟ ..

وصادأ اندفع إلى ذعنبا عاطر أروعها ..

هل يمكن أن تروقي للحاج برعى ؟ ..

إنه رجل جاد ومصلح وثقى . ولكنها . تعرف أنه له .. اختصاصات

معية .. لا تدرى أين يذهب خلالها ..

يقول تارة .. إنها حاضرة .. وتارة .. إنها ذكر ..

ولكن من يدرى ؟ ..

كل الرجال عيوبهم عارعة . وهي تعرف أن زوجها يستملح .. إنه يكون
أكثر مرحا .. عندما ترورهم جارهم تحية .. يبدو لسانه أكثر دلاقة . ولكنه
أكثر حضورا ..

ولكن ترى .. هل يمكن أن ينظر إلى سيده ؟ غير مقبول ..

عباس جائق .. ولكن برعى لا ..

ثم إنه لا يرد لها إلا وراء ثيابها . وهي خلف الثياب لا تبدو شيئا ما .. إن ماها
لا يظهر إلا بدون ثياب .. ومن يربها لا بدون ثياب ؟

من يدرى ..

مصبية .

وأمسكت أم عباس بالليفة وجذبت سيده من شعرها . وأخذت تدعش
ظهر الفتاة بصف . تخرج كل ما ملأها من غيظ وانتهى بالحمام وخرجت
أم عباس ترتدى الحلاية الكسور البيمة وخلعت وراءها سيده على طشت
الفضيل ..

نضج جسد سيده الأضعف .. وامتلأ .

وإذا كان التطور قد انعكس في عرس أم عباس كمصبية .

فهو لم يكن كذلك في عروس الآخرين .

بالنسبة لعباس كان شيئا مختصا مريحا . أن يجدها .. تحت أمره في أي وقت

يريد .. مرة يقرش . ومرة يدويه . مرة فوق السطح وفي عشة المراح .. ومرة

في المطبخة بالليل عندما يسئل وإياها بعد أن ينام الجميع .. وأخرى خاطعة . في

المطبخ أو الحمام .. في غفلة من أهل البيت .

وبالنسبة لبقية الرجال الذين تعودت التعامل معهم . أزال التطور ..

المقصومة التقليدية القديمة معها ..

أصبحت ترجح الحصار للحصرى مما عده بساطة .. وعندما تنضب الروادة

في القول من عم مصور يعطيا بدل الكيشة كيشتي .

وبدأت سيده تستعمل موهبتها الجديدة التي منحها لها الأهم — دون توقع

ولا رغبة — في معاملة الرجال . ونسى عباس سلطانها عندما نجد من يصنع

له فتمودا لدى العريبيع أولا من تأثر العريبي .. فهو شيء لا وجود له إلا في

يعكس عليه . وإذا كانت سيده قد اكتشفت أن هذه الكتل الشحمية التي

وضعها الراس على جسدها الأعرج قد أثارت اهتمام الرجال .. وحوت

حصولهم إلى استرضاء .. وترحيب .. فلماذا لا تستعملها ؟ .

لا تخفى يا سيدة في الشارع كالهيئة . ولا تتركى جسديك الذي أصبح شيئا هاما في نظر الناس .. يتعثر في وثبك الصبيان المحيط .. فهذه الأشياء الثمينة التي وضعتها الأيأم على صدرك وأصابتها إلى رديك .. لا تترك للهرات الخمقاء .. بل يسيطر أصحابها على حركاتها .. ولا تأرجح إلا في هرات منظمة متصلة مع خطوات سير أشبه بالرقص .

أجل يا سيدة .. يا عبيطة ..

هكذا تؤثر حين رديك .. مرة ذات الجوى ومرة ذات اليسار وأنت تسوين وكأنك لا تفصلين ..

هكذا كانت تفعل دلال ..

ولكن دلال كانت « منعب » .. مهمل تريد أن تكون هي ملعب ..

كدلال .. ماذا يقول الناس عنها ؟ ..

ملعون أبوه .. يقرولون ما يقولون ..

إنهم يشتمون الملعوب .. ولكن لا يخلصون إلا لها . ولا يتأثرون إلا بها .

طالما .. لعن الخطري سنسقبل أجدادك يا سيدة .. ولغمت الجرار قلما جعل الدنيا تلف بك .. عندما كنت .. برغم أنفك .. غير ملعب .

والآن .. يشون لك .. ويتركون ما في أيديهم .. أحيانا .. من أجلك ..

لأن بك .. بعض ما يسيل لعابهم ..

لأنك يا سيدة .. مشرور امرأة ملعب ..

خرد منك .. بت مشروعا . قد مهدت لك السبل الشاقة . وفتح أمامك الطرق المغلقة .

فلماذا لم أصبحت .. فعلا .. امرأة ملعب .

ولديك الإمكانيات يا سيدة .

بشهاد بذلك .. عيسى ..

ولماذا عيسى ؟ ..

تشهد بذلك . محطتكك العملية .. في الصدر والظهر . تحكمتي بها

يا سيدة .. واهتري في سوك الغويا .. بمة وبسرة ..

ودعي الأكم تصفق ورائك .. والهاجر تصبح « هر يا ور » .

أحر يا سيدة . أصبحت ورائير . بعد أن كنت برصا . وسحلية ..

وعصاعيص القارية .. إلى آخر هذه الأوصاف التي طالما نعت بها ..

استمتعي بظرات الهم التي تنطبع إليك . وألماظ الإعجاب التي

تلاحقك .. وادعي أنك تضيفين بها ..

أجل هكذا الوى عفتك .. ودي « باسم » . وما دم « وما كية » ..

وكانك تصدينهم عنك ..

وصحي لانة بين شدتيك .. وتشدق بها . وطرقى . افضل كل هذا بمجرد

أن تعادري الرفاق . حتى لا يقع نظر أم عباس عليك فتكون وقعت سودة يا سيدة .

وهكذا .. عطت سيدة أولى خطواتها . في طريق الإغراء .. بمهارة

وثقة . مسحتا لها الهبة التي وضعتها الأيأم في الأماكن الملائمة من جسدها ..

فيدا ملفوفا مكسرا . واستمر يحصرها ضيقا كما كان .

وكان تأثيرها في الرجال . تأثيرا واضحا حاسما .. يرداد على مر الأيأم .

كلما ازداد الصدر امتلاء والردقان « كتنزا » .

ولم يكن وجهها يخلقه الأولى .. قبيحا ..

كان فيها متسعا .. ولكن أنفها كان دقيقا وبقية تقاطيعها مقبولة . وعندما

كانت تضحك . كان وجهها يصبح أجمل .. وإذا كان هذا يطبق على كل الخلق

.. فقد كان ينطبق عليها أكثر ..

بذلك العرة الواحدة في جانبها فيها الأيسر .. تلوح واضحة عندما تنعرج

شقائها عن بسمة أو ضحكة .

واستمررت سيدة تمارس تأثيرها العابر في الرجال حتى وقعت حادثة الشمس .
بعد الظهر .. والشمس تحيل نحو الأفق . وظلال البيوت قد انخرشت أرض
الرفاق .. وظلال أشجار دق الباشا في شارع السد قد ترائت واستطالت
لتعطي أرض الشارع

وسمة صيف رفيقة تناعب أوراق الشجر .. وسيدة قد نحررت من
الصديري الصوف الذي نحاول أم عباس أن نحصى به صدرها بحجة أن الدنيا
برد . وأنها لا تريد أن تأخذ هواء يفسدها ، وما هي حدة عاصي بقدر يكي .
وأمسكت سيدة بحلة صغيرة في يدها متجهة إلى عبد المعطي البقال لشراء
رطل من . وفي سراها أطيقت على القروش .

ونسكمت سيدة متيخرة بين عربات الباعة بجوار الرصيف فوقفت أمام
عربة الخمار . وعربة الجمير . وتسايلت بكم .. لم تصرعت تهر في دلال .
ووصلت إلى عبد المعطي البقال ووقفت أمام البلك الزجاجي الذي يحصل بين
الزبائن وبين صاحب الدكان .

والتي عبد المعطي من تعة قدح عذس لأحد الزبائن . وبقرش جينة لأخر ثم
التفت إليها قائلاً :

— ماذا تريد يا سيدة ؟

— رطل من .

وعند يده فأخذت حلقة من يدها . ووضع عيار الحلقة في الميزان ووضع رطلان
أحد ينقل الشمس بالكيشة من الصبيحة إلى الحلقة .. حتى أخذت كفة الميزان
تأرجع .

وأمسكت سيدة بالحلة في يدها . وماولته القروش باليد الأخرى .. وصاحت
به :

— هات ملبسة

ورد عبد المعطي ملازحاً :

— يا بنت كبرى ..

وصحكت سيدة وقالت :

— طيب هات ملبستي ..

ومد عبد المعطي يده إلى برطمان اللبس وأعطاها بصح ملبسات قائلا :

— عدي .. إليك يظهر فيكي .

وسارت سيدة تتقصع في مشيتها وقد وصفت الحلقة على كفها وثبت دراعها
بميت أصبحت الحلقة بجوار كفها .

وعبرت شارع السد وسارت على الرصيف متجهة إلى الرفاق . وقبل أن
تصل إلى الرفاق . أبصرت رجلاً يقتر من ناحية سيدي الطيبي .. ووجدت
الشيخ أحمد يسعه الحشيش الأبيض يتقدم موكب الصبية وهو يهتف : الله حي
عباس حي .. أصرب بمبة وهو جاي . ولم تدخل الرفاق .. ووقفت ترقب
الموكب .

كانت هياما معي توي السور في موكب الشيخ أحمد .. وفي غيره من مواكب
العباديب . أما الآن فقد كثرت . وكل ما تملكه هو أن تقف لمشاهدة مواكب
الصبية .. كأي امرأة .

واقترب الموكب . وأمامه الشيخ أحمد بعمامة الحمراء . ولقطاته
لأخضر يسر متطاول وهو يلوح بسيفه بمنة ومسة ..

وعصاة النطق الرجل يعدو . والموكب وراءه . وتدايع الصبية من حولها .
وهي حول أن تعبر الموكب إلى الرفاق . وقبل أن تصل إلى الرفاق .. دفعها أحد
الصبية في كوعها التي تحبل به حلة الشمس .
وظارت الحلقة .

وعندما انتهى الموكب .. وجدت الحلة مقلوبة على ظهرها وبجوارها
الغطاء . والشمس مسكوب على الأرض . لا أثر له إلا بقايا مخلوطة بالتراب
وظلتها أقدم الصبية .

يا هار اسود ..

رطل السمن ضاع ..

كيف تعودين إلى أم عباس يا سيدة ؟

هذه المرة .. « لن نحتفك » . شئب عاليا في عنقك .. ولن تتركك حتى تشرب من دمك ..

أجل . لن يعتدى السمن المسكوب سوى دمك المراق يا سيدة ..

رطل سمى بحاله ..

ماذا تقولين .. وكيف تعترضين ؟ ..

سقولين .. إن موكب الشيخ أحمد .. فاحمك ..

وماذا أوقفتك وسط الموكب ؟

هو الذى هجم عليك ؟ .. ولماذا لم تنحني جانبا بالسمن في يدك .. ولماذا لم تسكين حلة السمن جيدا . بدل أن تصعها فوق كتفك ؟

ما من علم مقبول لك يا سيدة ..

حياتك أو رطل السمن .

ولن يستطيع أحد أن يدافع عنك أو يحميك من براتها . لا عباس ولا برعى ولا أكبر ميمبا .

إنها لم تنمر لك بالأسس . أن دلفت حلة الطيبج البابت للفراع . رغم أنه حمص ورغم أن أحدا في البيت لا يمكن أن يأكله .. ورغم أن الفراع ستأكله ..

عسا بالك حلة سمى .. تدلفيها على الأرض ١

ليس من حل أمامك .. سوى أن تشتري رطل سمى آخر .

ولكن كيف تفتريين ثمنه ١٢ .. عن ١٠ ؟ من عباس ١٣ .

أجل مستأئل عباس أن يعطيا ثمنه . على سبيل المقدم لبيع مرات ..

ليحاسبها بعد ذلك كما يشاء .. عشر مرات . عشرى مرة .. فقط يعطيا ثمن رطل السمن ..

ولكن كيف ستعود إلى البيت لتصل به . دون أن تراها أم عباس وتساها .. أين السمن وتكتشف الجناية كلها .

هل يمكن أن تطلب من أحد الصبية الذين تعرفهم أن يناديه . دقق عسى المكوجى مثلا . يذهب إلى البيت ويسأل عنه ثم يطلب منه عذبة ودون أن تعلم أم عباس أن يحضر للقاتلها على باب الزقاق ؟

أجل هذا حل .

ولكن لا بد أن تسرع به .. فليس هناك وقت .

لنذهب عورا إلى دكان المكوجى . وتساءل الأسطى خليل أن يسمح لها بإرسال دقق إلى البيت ليحضر عباس .

سبهش خليل طمعا . وأبسط ما يمكن أن يتصوره هو أن هناك شيئا يهيا وبين عباس لا تستطيع أن تمارسه داخل البيت .

يطس ما يشاء . إنها تستطيع أن ترصيه بصحبة .. أو تسمح له بقرصة أو بنحسية .. وهى تعرف أن يده طويلة .

أجل .. لن يكون خليل مشكلة ..

المشكلة هي أن نجد عباس فضلا . ونجد معه نقودا ..

وانتهجت إلى دكان المكوجى . ووجدت خليل .. ييح قميصا في يده دليلا الذى تخرج رشاشا من فمه ..

ووصع خليل القميص على ترابيزة المكواة وهو يصمق بيديه مرحب .

— يا ميت نجف .

ولم تكن سيدة في حال يبعدها ثقل العزل أو ترد عليه فقالت له في عجلة .

— أين دقق ؟

— ذهب يسلم المكواة إلى بيت السلطوى .

— ومنى سيعود ؟

— حالا .. لماذا تريد به ؟

— أريد أن يذهب إلى البيت .

— بيت من ؟

— بيتنا .

— له ؟

— لبيدلى عباس ؟

— بيدلى عباس ؟

— أجل .

— ولماذا ؟

— لأني أريد أن أرى شيئا ضروري .

— ولماذا لا تذهب إليه ؟

— لأني .. لأني لا أريد أن أعرف أن تعرف .

وعاد خليل يصفق بيديه طربها .. وهو يصيح :

— حلو .. يا حلو ..

وهز رأسه وتساءل متخافتا :

— وما هذا الشيء الذي تريدني منه ولا تريد أن تعرف أنه ؟

ووجدت سيدة أن المناقشة مع خليل مستعولة عينا فاستدارت في غيظ وهمت

أن تنصرف عنه .

فصاح بها

— ونحن لا نسمع .. والآن يمسى عباس .. على رأسه ريشة ؟!

واستدارت سيدة إليه فجأة ثم سألته قائلة :

— أمعلك خمسة صاع سلف ؟

— خمسة صاع .. لماذا ؟

وصاحت به في غيظ :

— معك .. ولا لأ !

— أعرف أولا .. لماذا تريدني ؟

وأطلقت سيدة تهديدا بأس وقالت :

— سأشتري بها .. رطل سم .. بدل الذي انسكب .

— السم انسكب ؟

— أجل .

— رطل بحاله ؟

— أجل .

— بحسرة .

ونظرت إليه سيدة في غيظ وعادت تتساءل :

— معك خمسة صاع ؟

وأمال خليل عتقه ثم تساءل في غيظ :

— أجل سمى خمسة صاع .. ولكن .

— لكن ماذا ؟

— كيف سترحميها ؟

— عندما يخلعها الخلال .

— وإذا لم يخلعها الخلال ؟ عندها بحر ؟

— معاك خمسة صاع .. ولا لأ ؟

— أعرف أولا

— تعرف ماذا ؟

— كيف سترديها .

— قلت لك يخلعها الخلال .

— وقلت لك أحلها أنا .

— حاصر

— تصحكني على ؟

— لأ .

— كيف أصدقك ؟ .

— كما تشاء .

— الآن .

ونظرت إليه سيدة في عبط وهي تحس أن الوقت يمر . وأم عباس .. تنتظر عودتها بالسمن .

وقالت له في عبط :

— هل هذا وقته ؟

— لم لا ؟ ..

— أين ؟

— في الخانوت .. في الداعل وراء صندوق المكنة .

ولم تصدق سيدة أن خليل يمكن أن يعامر بما يقول .. وقالت له

— طيب هات الخمسة صاغ .

ونظر إليها خليل وهو يتسم في حبت ثم قال وهو يميل بعنقه

— خمسة صاغ مرة واحدة ؟

— أجل ..

— كثير عليكى يا سيدة .

وصرخت في حدة :

— حاتيب الخمسة صاغ والا لأ ..

وهو يخليل رأسه وعاد يضحك قائلاً :

— خمسة صاغ مرة واحدة . ليه .. بمة كثر ؟

وتركت سيدة وهي تمس أباه . وأمه وكل من يمت له بصلة .. ووقفت على

باب الرقاق تفكر .

ماذا تفعلين يا سيدة ؟

لا فائدة من الاستعانة بعباس . وحتى ولو وجدت من يقبل الدعاب إليه . فقد لا يجده .. وإذا وجده فقد لا يكون معه نقود .

هل تعودين إلى البيت وتحترفين بما حدث ؟

وأم عباس ؟ لا . لا . لو أدى الأمر إلى هروبا من البيت فستعص فهذا

أفضل من مواجهة أم عباس في هذا الموقف الخطير .. ووجأة حطر بابا حاطر

أحسنت أن فيه ما يتقدها ولو إلى حين ..

لماذا لا تذهب إلى عبد المعطى وتشرى رجلا آخر من السمن وتطلب منه أن

يشكك ثمنه .

ولكن عبد المعطى لا يشكك ..

وهو يصح لائحة كبيرة بشر إليها لكل من يطلب منه الشكك ! الشكك

ممنوع .. والزرع مرفوع .. والرزق على الله .

على أية حال .. لم يعد أمامها مجال سوى عبد المعطى البقال .. والرجل قد

نظر إليها وهو يعطيا ملابس مظرة . من الطرقات إنهاها .. التي تعبر الثياب إلى

ما بداخلها والتي تطل من فتحة الجلباب عند الحق .. لتجسس الصدر

لتذهب إلى عبد المعطى .. وتطلب منه رجل من آخر . ولجبتها الحلال .

— بنص قرنك جنة حلوم يا عم عبد المعطى .
— قلت لك أربع حث صابون ميزان واثنين زفر .
وشرد دهن الرجل وهو يحدق في وجه سيدة التي تنظر إليه في حيرة وصاح
فيها .

— الفلوس يا بت .
وتملكها الاضطراب ولزددت ريقها وهي تقول :
— فلوس إيه ؟.. ما نا احييتك .
— امتي ؟
— من شوية .

وبدت الحيرة على وجه الرجل . وهو يذكر أن سيدة أعطته خمس الس
مرة . دون أن يدري بالتبسط . متى . ونعالت الأصوات من حوله
تستحبه ... ولم يجد هناك وقتا للساقشة لا شك أن البت قد أعطته النقود .
ولكن رحمة الناس من حوله .. قد أسته إن ذاكرته لم تعد تسمعه هذه
الأيام .. لقد كثر سهوه .. وكاد يظلم البت .
وعاد يهمل في تعبئة الزيتون والخبيرة والبصل والعندس الربائى . ووجدت
سيدة نفسها تمسك بالحلة مليئة بالسمن مرة أخرى . دون حاجة إلى إعادة دفع
النقود .

وتنعمت الصعداء . وسحبت جسدها من رحمة الربائى المتكاثفين على
الحانوت . وعبرت الطريق وهي تمسك بالحلة بكتف يديها محاولة تجنب أى عابر
في طريقها خشية أن تتكرر المأساة ويسكب السمن ثانية .
وبك كرم يا سيدة ..

أحجرا عدت بالسمن . بعد أن كاد يستصحي عليك .. وبعد أن أوشكت
على الذهاب إلى البيت لتلقى أم عباس بالحلة خالية .. وتخبرها أن رطل السمن قد
اتسكب على الأرض .

(٩)

لماذا نكذب ؟

عادت سيدة إلى دكان عبد المعطى . وكان الرحام قد فراد حوله وكان عليها
أن تبدل جهدا لتشق طريقها إلى البلك الرخاسى ، وعندما وصلت إليه ،
صاحت بأعلى صوتها وهي تحاول أن تعلق صحنات الصبغة واليات التي تتعالى
من حولها :

— رطل سمن يا عم عبد المعطى .
وضاع صوتها وسط الصباح .. وعادت تصبح ثانية :
— يا عم عبد المعطى .. رطل سمن وحياة أبوك يا عم عبد المعطى .
والثنت إليها عبد المعطى متسائلا :
— ألم تأخذى السمن منذ برهة ؟
— أجل .. أريد رطلا آخر .
— حاضر .. ضعي الحلة على البلك وانتظري .
— أنا مستعجلة .

— قمت لك انتظري .. سأعطيك السمن حالا ..
ومرت برهة . والرجل مبهك في قضاء حاجات الربائى ثم تناول الحلة من
وسط الأواني الموضوعة على البلك . وبدأ يزن السمن
— عحدى يا بت ..

وتناولت سيدة الحلة . ووقعت برهة مترددة لا تدري ماذا تقول عن النقود
وأحدثت الأصوات تتعالى من حوله تستحث عبد المعطى في الانتهاء من طلباتها .
— ثلاثة تعريفة يمين يا عم عبد المعطى .

ماذا كان يمكن أن تفعل بك أم عباس ؟

تسب أظفاري وجهك . وتطيق على رمارة رقتك .. وتصلبك من شعتي .. يوان السباب ..

لم يعد هناك من حاجة إلى الاستجداد بهباس الذي لا يجد أحدا غير

عنه ولا حاجة به إلى استجداد حليل .. الصلاني .. ابن الصلاني .. الذي يريد

المقابل مورا . ودخل المحاموت . وعندما كادت تسلم استكر عليها القروش

التي طلبتها . وقال في صغرة : له بجة كشر ؟

لرى من تكون بجة كشر هذه ؟

ولمّا لا تكون بجة كشر .. يا سيدة . انك تجهذين أنظار الشارع كله إذا

ما تخرت في مشبك . وهزرت ردفيك ..

وبعير وعى . بدأت المشية إليها مشية الأثنى شبه الرافضة

واهترت حلة السمن في يدها ..

يا بهر أبو كي اسود يا سيدة .. اعقل يا بت . ودعى البار بحر على حمر .

بو يسكب السمن ثانية . فلي يحدك أحد . ولي تطل الحدة على عبد

معطى الأهل . لقد صدق الرجل ببساطة أنك أعطيت القود ولكن الرحام

هو الذى يملك .. كان الرجل ملحوما . ولم يذكر ما إذا كنت أعطيت القود أم

لا . وصدفت بسهولة . وكست بدلت قروش السمن المفقود

أجل يا سيدة .. كان يمكن أن تكون القروش في يدك . ملككت . تشرى

بها فطيرة . أو بعبية .. أو مدبل بأوبة . أو رجاجة مية فيس . تنطرين

بها كما كانت تنطرد دلال .

يا سلام .. يا سيدة .. لو لم ينسكب السمن !

عبيطة !! بوم يسكب لنا عدت إلى البقال . ولما طلبت السمن .

ولكها على أية حال تجربة يمكن أن تتكرر ثانية وثالثة

ولكن ليس بالسمن

أجل يا سيدة . في المرة القادمة .. عندما تذهبن لشترى شيئا . من

عبد المعطى .. يمكن أن تجربين ثانية

ولكن عليك أن تكونى حلوة .

لا بد قبل كل شيء . من ثواب الرحام . واللحمة .. وكثرة الصباح من

حوله . ولكن الرجل قد يشبه إليها . ويذكر محاولتها السابقة

إذن يجب ألا تتكرر التجربة في بائع واحد . إذ شارع السدملىء بدكاكين

البقالة والمحضرة . والجزائرين ..

وعندما تحاول أن تنيد التجربة . يجب أن تذهب في كل مرة إلى دكان

جديد .. لا يذكر صاحبها تجربتها السابقة

ودخلت سيدة الرقاق . واقتربت من باب البيت .. ووجدت أم عباس

تظلم من الباعة .. تحدث جاريها أم رشوان . ولم تكذب تلميحها حتى صاحت

بها .

— لسة بنرى .. كنت فري يا بت المدة دى كلها ؟

— كنت كنت كان عبد البقال زحمة

كان يجب أن تذكر أنها غابت . وكان يجب أن تصيح الصدر على طرف لسانها

فأم عباس لا تقبل التردد . ولا تنظر حتى يخرج الصدر من شعتيها إذا

ما تلمححت بل تناولها الكف .. في لمح البصر ..

ومعها أن أم عباس في الباعة وهي على أبواب . وأنها منمكة في الحديث

مع أم رشوان . وأن المرأتين تتبادلان الشكوى .. والغضب العور .

سمعت أم عباس تردد .

— الولية القرشامة رهرة . قلت لها تأخذنى معها . وهي داهية إلى مح

عبد الرافق ضاع المائعاتورة . أشترى حبتين كريمة . استحسرت تعوت .

وأجابها أم رشوان ببساطة :

— أصلها غيرة قوى .. ما تحبش الخمر تحد أبدا .

— يا غنى هو أنا كنت حاضدا معها حاجة . عرش الراجل اللى على البك يعرهما . ويعملها حاطر .. ويحوشلها الفصالات . ويديها بصر التراب

— لازم بتشوفه من وراء صاحب الخمل

— يمكن يا غنى .. ما تستعنىش عليها حاجة أبدا .

وهكذا أتت سيدة من مستجواب الثياب .. كانت أم عباس أكثر اعتدائها على شقيقة رهرة .. من أن تتفرغ لشقيقتها هي . وعندما أحست بدخولها إلى الشقة صاحبت بها وهي مستمرة في الحديث مع أم رشوان :

— حظى السمس عدلك وغنى اشطفى الصحنون

وهكذا نجت تماما من أدى أم عباس .. والركة في رهرة والكرشة وأم رشوان .

ومد ذلك اليوم وغربة السمس المفقود .. تلح على رأس سيدة .

لم تعد حاجتها إلى القرش . فحرد . لمة إلى طعام مشهى .. ولا سيما بعد أن اعتادت أن تختطف بين أوبة وأخرى .. قصصة من المحرمات المشتهية . مما قد يكتشف أو لا يكتشف . وإذا ما اكتشفت السرفة تصيح التهمة بها وبين عباس .. الذى تعود أن يأكل أى شيء في طريقه . دون أن يسأل لمن .

لم يمد الطعام . رغم حرمانها منه وغنى عليه .. هو حر ما يأتي به القرش . فقد باتت لها احتياجات أبنتها أحاسيسها الجديدة .. النابعة من تغير في داخلها .. والثائرة من نظرات الرجال لها .

لو أن لث امرأة يا سيدة . تطير بها إلى وجهك . على رواق .. عندما تغلب إلى نفسك في المطبخ قبل النوم ..

ولو أن لث مشط .. تمشط به هذا .. الكدش .. — كما تعودت أن تسميه أم عباس — المشوش في إحمال وعشوة على قمة رأسك ..

ولو أن لك حذيل بالترتر أو بالأوبة ..

ولو أن لك .. ثوبا عر هذا الثوب الحائل المرق .. الذى لا يكاد ينف من مياه الطشت والخوض .

أشياء كثيرة يا سيدة لو أنها لك .. لكنت شيئا آخر ..

إنك لا تملكين سوى هذا البرور في صدرك .. والامتلاء في رديفت .. ومع ذلك .. تجددين أنظار الرجال في الدكاكين وفي الطريق ..

فما بالك يا سيدة لو أن لك بقية هذه الأشياء ..

مشط ومراة .. ومنديل .. وثوب .. وعطر .. و .. و .. إلى آخر هذه الأشياء التى تشتري بالنقود ..

كل شيء بالنقود يا سيدة .. الطعام بالنقود .. والثياب بالنقود .. والريشة بالنقود ..

ولكنك لا تملكين النقود ..

حتى هذه القروش التى كان يمسك إياها عبس .. عندما يصعد بك إلى السطح أو يبيت بك في العزل إلى المطبعة الخالية والتي كنت تحفياها في عشة بمرآح لكى تناعى بها ما تريد من قد أصبح يحل بها عليك أو لعله هو نفسه قد أصبح أشد حاجة إليها وبنت تسحب ما يريد . بلائس . بحكم العادة .. بمجرد أنك لا تجدس ما يدعو إلى الاعتصام . ولماذا يكون هذا العمل وحده الذى تأبى أداؤه .. إنك تملسين وتمسحين وتكسسين . وتنفقين المساب والصمعات . ببساطة واستسلام .. فلماذا المصنعة في هذه الفخمة . وهى أقل من غيرها مثقة . وأسهل أداء .

لقد باتت عباس إحدى مهامها .. وباتت هى أحد احتياجات عباس .. وعباس يطعمه ويربته يحتاج .. ولا يحتاج إليه . يريد دائما . دون أن يشعر أن العور يمكن أن يريد منه ..

يريد الأكل . الأكل الكامل . يسأل عن الخمل واللحمة والخضار والزر

وعى الحلو .. ويشكو إذا ما نقص أحدها . ويصبح بأمر عباس في الأيام الفردية .

— هو كل يوم عذس يام ..

وأمر عباس لا تصعب أمام أحد . سوى عباس . تصعب أمامه أكثر مما تصعب أمام الحاج برهي .

مات لها ثلاثة قبله .. فهي تطيق عليه في غوف وكان أحداً سيئاً معها . ونجيه أم عباس

— ماذا تريد أن تأكل ؟

— عندك بهي ؟

— أبوه .

ثم تصبح سيدة .

— أقل ثلاث بيضات ..

وعندما يشبع تبت له حاجات أخرى ..

يريد أن يخرج . يتصفح .. يذهب إلى السبيل .. أو يذهب إلى أماكن خفية .. كما قال ذات مرة لسيدة .. مثل وش البركة .

وعندما يراد منه شيء .. يهرم .. ويتألف .

وتتطلق منه الصبغة المتأففة قاتلاً :

— هو أنا فاضي .

— له ورائك الوطيفة .. والا المفروسة ..؟

ثم ترق أم عباس وهي ترحله قاتلة :

— امي ربنا يديك .. وتوب عليك .؟

ويصبح عباس بها مستائلاً :

— توب على من إيه يام ؟

— من الدلالة .. وتجع وتبقى أفندي مستولف .

— حاضر . بس هاتق الشلن ..

ولقد أصبح عباس يحتاج إلى مريد من القود يوماً بعد يوم .. ويدنو أن أمه لم تعد تستطيع سد حاجته . التي تحمها إياها حمية عن أبيه . فأخذ يستعين ببعض حاجات المنزل بيدها وأخذ ثياباً وصبلته أنه يربط وأبور الجار في تكة سرواله أسفل الخلاب ويتجه إلى باب الشقة والوابور معلق بين قدميه فصاحت به .

— إيه ده يا عباس ؟

— عيه إيه ؟

— إيه اللي أنت حطه تحت الجلاية ؟

— معيش .

— معيش اراي . تعال وريي

— أوريكي إيه ؟

وانجبه مسرعاً نحو السلم .

ولكن أمه أسرع فأمسكت به ورصت طرف الحساب لتجد وأبور الجار مدلى أسفله ..

وصاحت به وهي تصرب صدرها :

— هي حصلت يا عباس . يا ميلة بخي عيت .. يا خية أمل .

وصاح بها عباس مختافاً :

— إيه مالك .. بتصرخي كده إيه ؟

— بصرخ كده إيه .. ده لو أبوك شافك كده .. يهررك .

— طيب صرخي بتي .. عشان تقضحيا ..

وخفضت أم عباس صوتها قاتلة .

— طيب عت .. هي حصلت يا بتي تسرق وأبور الجار .

— قلت لك هاتي فلوس مارصيش .

وكان عن أم عباس أن لمحها الشئ حتى توفر على نفسها سرقة وابور الجار .
وهكذا كان عباس يرهق دائما .

وكانت سيدة .. صبي ما يريد . في بعض الأحيان
وكان عليها أن تمسح ما يريد . دون أن تنتظر أن يمنحها ما تحتاج إليه .. لأنه
إن لا يملك . أو لأنها أصبحت أحد محتكائه .. أو لأنها لا تستحق .
وكان هل سيدة أن تجد طريقها .. للنفوذ ..
وأن تحاول إعادة تجربة السمس المسكوب .

إنها تجربة خطيرة . فصلة الخداع لن تكون من السهولة كما وقعت أول مرة
مع عبد المعطي . فالرجل كان ملحوما . والرحام شديدا . ثم . شرلها
السمس مرتين متتاليتين .. خلال نصف دقائق .. قد جمعت الرجل لا يستطيع أن
يخرج هل أحد السمس مرتين أم أخذه مرة واحدة . فهو لا شك يذكر أنه قد أعيد
النفوذ .. ولكن متى .. وك مرة .. هذا هو ما حيرو .

ومع ذلك — ورغم هذه اللباسات التي أحاطت بالتحيرة والتي سببت
عماحها بخل هذه السهولة — فهي شيء ليس متعذرا بل من المعتدل جدا . أن
تجرب مرة بعد مرة . المهم أن تختار الظروف الملائمة لها . وتقدم عليها في ثبات
وجرأة .

وستحدث الفرصة الأولى بعد بضعة أيام .

كانت المشتريات متعددة . والمبلغ معتبرا .. يستحق المعاملة .

لقد أعطتها أم عباس بريرة بأكلها .. وطلبت منها أن تشتري قدح هول
مدشوش . ورطل جبة حلوم وبعض أفرة ريتون وقطعتين صابون بالسي . و ..
وبجموعة أصناف .. نو أنها استطاعت أن تتدع الرجل في ثوبا . لحصلت على
ثروة طائلة

وسارت سيدة بالمسب في يدها . تجتاز هرات الإغراء بخير إرادة لها . فقد
كان ذهبها مبهكما في تدبير خطة الاحتيال .

لا ضرورة هذه المرة للذهاب إلى عبد المعطي . إن عنيها أن تنجح فيما في سكة
المدحج . فهناك بضعة بقالين على اليمن واليسار في الطريق إلى الميدان الذي
يشرب فيه الخمر من الخوص الكبير ..

إن عليها أن تتفق بقالا مليئا . تتراحم عليه الربا
وسارت سيدة على الرصيف . في الشارع الذي يخترقه الترام الضخم إلى
المدحج . ولم يطل بها السمر حتى لاح ما رحام على الجانب الآخر حول حائوت
بدا من اللعب المروضة في أرضه أنه لا يمكن أن يكون سوى بقال .

وقعت سيدة على حافة الرحام الذي كاد أن يشعل الرصيف ويصل إلى
الشارع وأحسبت شيء من الطمأنينة وهي تدفع نفسها بين الأكتاف الضاربة .
هذه أولى بوادر نجاح التجربة . فهذا البائع الذي يتحرك وراء الرخامة
العريضة . لا يمكن أن يمر في هذا شراحم من يدى أعطاه ومن تدي لم يعطه ..
في حركته الدائبة المصيبة . وبهذه تعبي ونزول وتلب وتسمه وتستم والتصبيحات
المستحقة تتوالى على أذنيه كالطارق ..

— يا عم عبد الصبور خلصني .

— الكسيرة يا عم عبد الصبور .

— بصي مراك جبة ظلمك يا عبد الصبور .

— وحياة والدك يا عبد الصبور .

— الله يخرب بيتك يا عبد الصبور .

وسط كل هذا السيل من البدايات . لا يمكن لعبد الصبور .. أن يعرف من
قال ماذا .. ولا ما أعطاه كم ..

إن يده تمتد لتعطي وتأخذ بخير وعي .

المهم أن اسمه عبد الصبور .

وانطلق صوت سيدة يتعالى وسط الصيحات .

— ياخذ يا عبد الصبور . الله يعصر بيتك ..

وانتمت إليها عينا عبد الصبور . لم تدر ما الذى حده . هل هى الصيحة
الداعية له بأن يعمر الله بيته . أم هو هذا الشيء المتصنع فى صدرها ؟..
الآن . الدعوة الطيبة بالصوت السامع . أولا . ثم هذا الشيء المكس
أسفل الثوب عند الصدر
والألم ثبت عليه عينا عبد الصبور . وكأنه لا يرى غيره . المهم أن
استجاب إليها دون بقية الرحام . وعتب بها عينا على صحتها :
— ماذا تريدى ؟
— قلت لك من الصبح ..
— لم أسمع وسط الصباح .. قولى ثانياً .
— قلت لك بفرش بيض وفدح حول مدشوش وحتيى نابلس .
وراحت سيدة تعدد مطالها .. وصاح الرجل وهو مدفع فى حركته
الدالية .
— حاضر .. اصبرى على .
— صابرة من يبرى .
وانتهى عبد الصبور من تعبته ما كان يمسك به فى يده . ثم بدأ فى قضاء
حاجاتها . وهو يسميها قرطاسا بعد قرطاس لتضعه فى السبوت وهى تستحقه
قائلة .
— شهلى يا عم عبد الصبور . البار ضاع .
— حاضر .. صبرك على .
وأخيراً انتهى من تسميتها كل ما طلبت . ثم توقفت برهة تنتظر القود .
ونتهى الثبات هتمت سيدة :
— بالله يفى .. أعطى الباقي .
وتسائل عبد الصبور فى حيرة .
— باقى ؟!

— نعم .. باقى البريزة ؟
— أعطيتى بريزة ؟
وخربت سيدة على صدرها فى جرع :
— يوه
وراجع عبد الصبور نفسه وهو يرى حرج سيدة وقال لها :
— انتى فاكدة إنك أعطيتى لى ؟
— من يبرى . من أول ما طبت البيض والمو .. مددت يدي بها
فأخذتها .. ولم تسأل عسى .
وهو عبد الصبور رأسه قاتلاً :
— جابر .
وتماثلت الصيحات حول الرجل تستحقه :
— والله يا عبد الصبور
وتبعها صيحة الداعي الذى بلغ به الضيق أقصاه :
— خلصنا يا عبد الصبور .. الله يفرج بينك .
وصاح عبد الصبور مستجيباً فى استسلام :
— حاضر .. حاضر ..
واستمر يظفر فى وجه سيدة وهو يحصر دمه . وهى تنظر إليه فى حيل وتبرم
قائلة .
— خلصى بقى .. وهات القرشين بقية البريزة .
ولم يجد عبد الصبور بدا من أن يمد يده إلى النرح ويخرج قرشين يسلمها
لسيدة صانحة :
— خدى .. إنتى ودمتك .
وردت سيدة وهى تطبق يدها على القرشين :
— عيب يا سى عبد الصبور .. ما يصحش .. أعندم يبرى .. مدهاك

البريرة . وإن شئت يطبىس ترمى .. والا ..
وقاطعها عبد الصبور صابحا :
— انسينا .

واسحبت سيدة من وسط الرحام . وهى تحمل السلة ملأى وبدها مطبقة
عن الفرشين والبريرة
وتعست سيدة الصعداء وهى تعبر الطريق متجهة نحو الرقاق
أخيرا يا سيدة .
لن يدث بريرة . منكث وحذك .
انتصار رائع يا سيدة
عل من ؟ . عل الدنيا كلها
ولكنك ظلمت عبد الصبور
وت ؟ أم تظلمك الدنيا كلها ؟
أم تسبى حريتك وجهذك . أم تحرمك من كل ما تشين . وتحمك
كل ما تدين ..

كل هذا الصرب . والسب . والامتنان .. أليس ظلما ؟
والبريرة التى أخذتها من عبد الصبور . ظلما
ولكن عبد الصبور .. لم يظلمك !!

وأنت أيضا لم تظلمى من ظلموك . ولكنهم وجدوا فالتهم فى ظلمك
ففسدوك وأنت قد وجدت فى ظلم عبد الصبور فالتذت . فأهدمت على
ظلمه ..

حتى لا يمارس الغضب كهواية . ولا ترده لأصحابه . وإنما رده من بعد
أنفسا فى حاجة إلى ظلمهم . دون أن يمر حتى أساء ظلمهم . إن حاجتنا فقط
هى التى نبرر واصحة لأعيب . وبصائر تجوارها كل شيء . حتى ظلم الغير
نحن لا ندرك من الظلم إلا ما وقع علينا .. أما ما يوقعه بالغير على لا وجود له

وأنت يا سيدة واحدة من البشر .. ظلمك بعض الناس .. فرددت الظلم لبعض
الآخر

ولقد كذبت يا سيدة .. حلفت بنظرك وبأشياء أخرى .. كذبا .
ومادا فى ذلك . لقد كذبت كثيرا .. والكذب نوع من الوقاية . لا
يستوى عنه سوى الغنائم
وأفعالا . لا تتحول إلى دبوب تستحق العقاب .. إلا عندما يعش «كذب
فى سترها ..

الدبوب هى ما يمارسه الناس خفية عن الآخرين عندما يعجرون عن ستره
بالكذب والفاق ..

وقد باتت حجة عليك يا سيدة أن تظلمى . لتردى الظلم عليك . وأن تكلمى
لتستردى الدب . ليصبح مجرد عمل طبيعى . لا تستحقين عليه العقاب
لنهم يا سيدة .. أن السنة فى ذلك ملأى بالبياعة . وبريرة تصق عيب يد
الأخرى .. مع الفرشين . بقى الحساب .

أنت يا سيدة مخلوقة أقوى مما كنت . سيدة البريرة فى ذلك .
أنت صاحبة ثروة تجعلك فى عسى عن أم عباس . وبنت أم عباس
تستطيعين أن تأكل ما تشين . وتشتري ما تشائين من حق وفوائد ربه
وبعد ذلك . ماذا تعلمين يا سيدة .. إن البريرة مستهى .. وتعود حاجتك
إلى من يظلمك ومن يؤوبك
لا عليك يا سيدة ..

المشكلة الآن هى الاحتفاظ بالبريرة . ثم شراء ما تحتاجه وإحفاؤه .
بعيدا عن أعين أم عباس
انشط والمراة . والمديبل
هذه أشياء . من الصعب إحفاؤها .
مادا تفعل ؟
(عن لامرغ الشوك ج ١)

دعك الآن من كل هذا يا سيده .. المهم أن تغني البريزة .

ووصلت سيده إلى بيت

استقبلته أم عباس بوجهها العكر .. وتكشفتها المعتادة وأخذت تغيب

ما في السبت بعصوات نافذة . وتعليقات برمة

— البهر صغير . ويبدو عور صابح والخبه حادقه . و . و

ولم تستطع سيده أن تركز في تعليقات أم عباس .

كان ذهبا شازدا في البريزة التي تطبق عليها كفها اليسرى بعد أن نقلت

القرشين إلى الكعب الخبي .

لو أن أم عباس عرفت ما تحوى في يديها . لخلت الكارثة . لن تستولى

فقط على البريزة .. بل لرقعتها عفة لأنها لصة . وأنها سرقت كذا .. وكذا .

وجاءها الفرج عندما سألت أم عباس :

— هل ملأت المسقى للعراخ ؟

— لا .

— لماذا . أم أقل لك ثور شيء فعله هو ملء المسقى

— سيبت

— امشي انجري .. املايها

وبسرعة انطلقت سيده إلى المطبخ لتأخذ الصفيحة . ثم حملت على كفها

وانتهجت إلى الباب صاعدة الدرج إلى السطح .

وتواثبت العراخ حوها وهي تدخل الحجرة لتأخذ المسقى ..

وسكبت الصفيحة في الإناء الفخار . ثم اعنت فوق البلاص للتوضوع في

ركن الغرفة محاولة إخماء البريزة .

وعجأة أحسّت يد توضع على مؤخرها .

وصرحت سيده في فرع واستدارت لتواجه عباس وهو يقف وراءها يهتف

بها مهدداً

— مالك .. انخصيتي له ؟

وحاولت سيده أن تتألك . وكانت أمعاسها تتلاحق وصدورها يعلو

ويهبط

وأحابت سيده متسائلة في غيظ .

— عاير له

— عاير له !!! عايرك

— عاير من له ؟

— يعني حاعور منك له .. تعالى .

ولكن سيده بدا عليها الارتباك وهي تقف بجوار البلاص بعد أن وضعت فيه

عشرة القروش .

وسألتها عباس :

— ماذا بك ؟

— أبدا

— ماذا كنت تصعين في البلاص ؟

— لا شيء .

— أربى .

— أربى ماذا ؟

— أربى البلاص .

— لماذا ؟

— لأرى ماذا تصعين به

— ومالك أنت .

وراد حب الاستطلاع في نفس عباس وهو يرى سيده تحاول أن تستر

تجسدها على البلاص . وحاول أن يجدها من يدها بعيدا عن البلاص ولكن سيده

صاحت به :

— دعني أحسن لك .

— لن أدعك حتى أرى ما تفعلين .

— قلت لك لا أفعل شيئا

— بل تخفين شيئا في البلاص لا بد أن أراه .

وحده بشدة بعيدا عن مكانها ونكها استدارت واعنت فوق البلاص ومدت يدها تستعيد القطعة المصبة .

واعني عباس موقها بخولا أن يمسك بيدها صالحا :

— أرى .. ماذا بها ؟

— دعني

— لن أتركك حتى أعرف .

ووقفت سيدة تواجهه في تحد وهي تطلق بشدة على قطعة القروش العشرة وصاحت به :

— معي بريرة .

واتسعت عينا عباس وهتف في دهشة :

— بريرة مرة واحدة

— أجل

— من أين ؟

— ليس هذا شأنك .

— سرقتها من تحت ؟

— لا

— إدد من أين ؟

— لن أقول لك .

— إذا لم تقولي سأعبر أمي .

وترددت سيدة بريرة .. ولكنها لم تجد هناك مفرا من أن تبوح بالحقيقة .

عباس أهون كثير من أم عباس

فالت سيدة في اختصار .

— من البقال

— كيف ؟

— لم أعطه ثمن البقالة التي أعطيها له

— وماذا قلت له ؟

— قلت إني أعطيتها له

— وصدقك ؟

— أجل .

— كيف ؟

— خلعت له

— معمل .

وصمت عباس برهة معكرا ثم قال .

— هو معمل . وانت ناصحة . ولكن لماذا نصعبها في البلاص ؟

— حتى لا تأخذها أنت .

— هاتيا وأنا أعفيا لك .

— أغشى ألا تردها .

— هذا أحسن من أن تأخذها أمي وتضربك .

وصمت برهة ثم عاد عباس يقول ملحا .

— هاتي .

مدت سيدة يدها بالقطعة المصبة وهي تزفر زفرة حارة .

— عذ .. ولكن أقسم أن تردها لي .

— سأردها لك .

— أقسم

— وحياة النسي .

يا سيدة يا عيبة تطالبين التأكيد بالقسم وأنت تعرفين أنك عند لحظات
أقسم بأعظم الأيمان . كذبا

وتناول عباس القطعة العصية ثم جذب سيدة إليه .
مسكية يا سيدة .

هذه المرة صحت عباس ما يريد .

وبدل أن يعطيك قرشا ..

لعش البريرة .

ظلم والله حسم

(١٠)

وقعت .. ولم يسم عليك أحد

شجع نجاح تجربة النصب التي قامت بها سيدة على استمرار العملية
وأعقدت سيدة تمارسها كنوع من العامرة السلية المريحة .
وبدت العملية بالنسبة إليها أشبه بحركات الشطرنج المخطوطة بصمومة المحام
إذا اصطيد بها لاعب مستجد . لا بد أن تؤدي إلى سقوط الملك بعد بصع
حركات .

كانت سيدة تتنازل دائما حينما جديها .. أي بالما مستجدا لا يعرف وجهها
ولا يذكرها أية سابقة من سوابق التحليل أو الخلدية . وتختار فرصة رحمة
فتنلس في وسطه .. ثم يتعالى صوتها شاكية مشرمة :

— ما غفصى بقى . هو اء حافصى صوب النهار واقفة قدامت ؟

وتجيبها البائع في لحمته معشرا :

... حاضِر .. حالا ..

— بقى لك ساعة بقول كده ..

ثم تلقى أول طعم صالحة في عصب مندر :

— ما هو يا تدبني الفلوس .. يا تمشبي

وتجيبها الرجل بلا وعى :

— قلت لك حالا .. حقيقة واحدة

ولا يلبث أن يقبل عليها متسائلا في اعتذار .

— أيوه يا ستى .. عابرة إيه ؟

وترد عليه عاصبة .

— ما قلت لك

— قول كان مرة . معلش . الصبر طيب

— آخر مرة .. أشتري من ها

— حقتك عليها

وها فقط تدفع سيدة في سرد ما تريد ..

قائمة طويلة من الطلبات ..

وعندما يسبها ها لرحل . ويسأل . (العلوس) . تصرف صدرها في

جزع صالحة :

— يوه .. مانا ممالك البريزة ..

— أمشي ؟

— م الصبح .. ادبيلك .. وفلت لك اللي أما عايراه . حتى بالأمارة بريرة

جديدة .. مستمنة أحييا لك م الدرج اللي حاطتها به .

ثم تلوي رأسها غاصبة وهي تردف غائلة :

— حقا مصايب

وأمام هذا المجوم العيب لا يملك لرجل إلا أن يلوم ذاكرته . ويعتذر لها

— معلش .. حقتك على ..

— ولا حق ولا باطل .

— قلنا نسيان . جبل من لا ينسى

وتقبل سيدة الاعتذار وهي تلوي عبقها وتشيح بوجهها حاملة السلة مخترقة

الرحام عائدة من الغيبة بالصناعة . والبريرة .

وشجع عباس سيدة على مواصلة المعامرة . بعد أن منح في إقناعها بأنه خير

من يستطيع الاحتفاظ لها بالقود . وبأنه سيتاع لها ما تريد حتى لا يصححك

عليها أحد .

وكاد على سيدة أن تفتح بما يقول . ضد كان الدين لعدم الانقاع . هو

بلاغ ثم عباس بالأمر كله .. وكانت سيدة تستطيع أن تواجه كل شيء إلا هذه

الكارثة .

وأصاف عباس إلى مصروفه ما تحصل عليه سيدة من عمليات العصب الناجمة

من مشتريات أمه من السوق . عندما يتخضع للبيت شروعة محترمة ممكن لسيدة

أن تعامر من أجل ثوبا . وهكذا أصبحت بقود الاحتيال التي تحصل عليها

سيدة . أخذ موارده العامة . التي بات يعتمد عليها في ممارسة خطابه .

وتحويل الصناعة النجاف إلى صناعة بنس . جعلت له مركزا وسط شنه

وسحته مهابة في ميدان البرم والخص .. وفي يوم احتاج عباس إلى بقود . ولم

تسعه أمه . ولم يجد أمامه سوى سيدة يسأها أن تحصل له على ما يريد . دون أن

يكون هناك ما تشتريه من السوق ..

وبدت المسألة معصلة في ذهن سيدة أول الأمر عندما خلق بها عباس في حجرة

الفرار .. وأقبل عليها حثاثلا :

— أممك نقود ؟

— من أين ؟

— ألن تدهبي إلى السوق اليوم ؟

ورصت كتمها وقلت شعثا السفى كتابة عن أنها لا تدرى

وعاد عباس يسأل في عجب :

— كس تشتري شيئا اليوم ؟

— أسأل أمك

— ألا تعرفين أنت ؟

— لقد اشتري أول أمس . الصايون والزر .. وبعث نصف البريرة .. بعد

أن كاد صبي البقال يكشف أمرى .

— كس يأمك اليوم شيء ؟

— يلزمنا بئكة بقودوس ويلمح كرات من أجل البصارة . هل تكفيتك ؟

ونظر إليها عباس في عيظ وقال ساحرا .

— تحرجين يا سيدة . عيبك تحت

— البركة فيك

وصمت عباس برهة معكرا ثم قال فجأة .

— اسمعي يا سيدة . عدى فكرة هائلة

وردت سيدة بهتامة ساحرة وهي تقول :

— وحياة أبوك . ومهما . من لا تقصا المصائب

— اسمعي يا بنت .. ستخرجين اليوم إلى السوق .

— وبمدين ؟

— تذهبين إلى البقال

— لا تحتاج إلى بقالة

— لا يهم .

— إذن ماذا أحضر من عند البقال . متى فاتورة ؟

— بل لشترين ما تريد من بقالة

— فمت لك لا يريد بقالة

— إذن ترجعها .. وسترد الثمن

ونظرت إليه سيدة وهي تسد ظهرها على باب عشة الفراش . ولم يسمعها

ذهب في إدراك ما يريد بسرعة . وقالت ببطء

— بشرى بقالة . وترجعها .. وسترد الثمن ؟

— بالصبط

— ولكن من يكون معنى نقود لشراء البقالة .

— وهل تدفين أنت نقودا لبقال ؟

— لا

— إذن ستأخذين البقالة . وتصرفين كمأدتك دون أن تدفعي شيئا .

كما تعطلين كل مرة .

— مفهوم . ولكن كيف أعود بالبقنة إلى البيت . ومدا تعمل في أمث ؟

— من قال إنك ستذهبن بالبقالة إليها ؟

— إذن ماذا ستعمل بها . تمنح دكانا لبيعها ؟

— لا . تغيير برهة . ثم نعودن إلى البقال . لإرجاعها

— أرجع كل البضاعة ؟

— أجل

— لماذا ؟

— لأنها لم تعجب أم عباس .

— كلها ؟

وصمت عباس معكرا برهة . هل معقول أن البضاعة كلها لم تعجب ؟ وليس

أن ينتهي إلى رد يقع به معه قات في عداد :

— لم لا ؟

— كل البضاعة لم تعجب الست أم عباس ؟ الصابون أبو صبر لم يعجب

لماذا ؟ .. والسكر لا يعجبها لماذا ؟

— ذهبنا من الصابون والسكر .. لم يعجبها البيض .

— وماذا غير البيض ؟

ورد عباس في حيق :

— لا تعجبني يا سيدة . فأخذ بعض البضاعة بأكلها وأماوات . والباقي

مرجعه ..

وهزت سيدة رأسها وتساءلت في غيظ :

— ولماذا أفضل هذا ؟

— لأنك ستأكلين .. الحبة والخلاوة . وأي شيء آخر تريد من أن تشتره

لعمرك .

— إذا أردت أن أفعله لنفسي سأفعله ليس لك أنت دخل
ورد عليها عباس مدرا :

— سيده . لا داعي للتمرد
— لماذا ؟

— أنت عارفة

وردت سيده بهجة غمد :

— لا أعرف شيئا . ثم .. أين النقود التي أخذتها مني ؟

— قلت لك إلى أحوشها لك .

— لا أريد أحدا يحوش لي .

— تريد أن تحتفظي بها معك . حتى تأخذها أمي .. أو يسرقها منك
أحد .

— كله حصل بعصه . نحوشها أنت أو تأخذها أمك أو يسرقها أي أحد .

— عيب يا سيده ..

— إدد أين النقود ؟

— سأعطيك لك .

— متي ؟

— عندما يصبح معي نقود .

— لن يصبح معك نقود أبدا .. ستعيش مغلما وتموت مغلما

وضحك عباس في سخرية قائلا :

— يا بنت الحمار . هذا البيت لي . وهذه المطبعة . سأصبح يوما

صاحبها

إذن هذه هي آمال عباس ..

دات يوم . سرحل أبوه ، كاحل أبوها . وستموت أم عباس — ولو أن

هذه مستبعد جدا — كما ماتت أمها . ويصبح هو الحاكم بأمره في البيت وفي

المصحة .

عباس سيصبح يوما .. السيد المطلق .

وأين ستكون هي !

سيده البيت ؟!

غير معقول .

ولم لا ..

إنه يتعامل معها .. كما يتعامل الأرواح والزوجات ..

لا عارق . سوى أن الأرواح يدعون بالنقود إلى روجاتهم . وهو يأخذ

ما تحصل عليه من نقود ..

خفية من وسع .. يا سيده !! واحدة غيرك كانت تأخذ منه كل ما معه من

نقود .

ولكنه مفلس .

عدا سيصبح غير مفلس . سيصبح الخاج عيس صاحب مطبعة وورشة

تجليد برعي .

وعاد عباس يجرها من أنكلارها مستحفا :

— قلت ليه يا سيده ؟

— في ماذا ؟

— في ذهابك إلى البقال .

— قل أنت أولا .

— ماذا ؟

— عندما تصبح المطبعة لك .. بعد عمر طويل .. ماذا أصبح أنا ؟

وضحك عباس وهو يجهدا قد لانت :

— آخر فرشة .. ستأكلين كل ما تشين . وتلبسين كل ما تريدن .

ونظرت سيده إلى عباس ..

لم تجد نفسها تكرهه .

أولا . لأنه لم يكن شريفاً كأنه . ولأنه لم يكن يكرهها .. بل كان يحبو عليها .. ولا سيما في اللحظات التي يحتاج إليها ..

وم تكن غمس بالصيق معه عندما يحتاج إليها .. بل باتت تألفه . لم تشعر قط أنه يحاول أن يحررها .. بل كان يدفع عنها كل ما يملك دفعه من شرور أنه .. إذا كان هذا لا يتعارض مع مصالحه . وكان يحسها بقايا طعام . مما قد تحرمه أنه عليها .. دون أن تدري أنه .

وعطرت إليه سيدة . إلى جسمه الحيل الذي استطال مع الأيام .. وأنه الضخم .. وشعره المجد . وأبهرت فيه حبيطاً من أم عباس والحاج برعى .. وسأله فجأة :

— لماذا لا تعمل .. يا عباس ؟

— أعمل !!!

— أجل

— أعمل ماذا ؟

— كما يعمل بقية الناس .. كأبيك .. وحيد .. وعليل للكوجي .

— ولماذا أعمل ؟

— لكي تحصل على ما تريد .

— ولكنني أحصل عليه بدون عمل .

أجل . إنه يحصل على ما يريد بدون عمل . فلماذا يعمل ؟

وفكرت سيدة برهة .

— ولكن عدنا لم نحصل عليه .. وستصطر إلى أن تعمل .

— إذن أعمل ..

ونظر إليها عباس وهز رأسه مؤكداً .

— هناك أشياء تمنع في الحياة يا سيدة . ليس من بينها العمل .. إذا أمكنا أن

نأخذها دون أن نرجع أنفسنا بمشقة العمل فلماذا لا نعمل

— ولكنك تأخذها من عمل الآخرين !! عيرك بأخذ المشقة . وأنت تأخذ المنفعة .

— ولم لا . عدا قد أخذ المشقة بعير متعة . بعض الناس يأخذون سعة

والبعض يدفعون الجهد .

ونظرت إليه سيدة .. وأطلقت ورقة طويلة .

لا شئت أنا من هؤلاء البعض الذين يدفعون الجهد . ترى هل تأخذ المنفعة عدا !

من يدري ..

الهم الآن .. أن تدفع ..

إن عباس ينتظر أن تدفع لكي يأخذ هو . لا تعلم إن كان هو الذي سيدفع لها عدا .. أم فهو ..

وعاد عباس يستحثها قائلاً .

— يا لله يا سيدة ..

— وإذا صبطت ؟

— لا تخاف .. اطلعي لمصك ما تريد . والياق مرجعه يا الله يا سيدة

كله سأرده لك عدا . عندما أصبح سيد البيت وصاحب الطعنة .

ولم تجد سيدة بدا من أن تدعى للتهديد والترعب .

وبدأت سيدة شرائها المتداد من السوق تحمل في يدها تعريفة لشراء

بقدر وس وكرات . وأشياء أخرى بالملايح الباقية

وكان عليها أن تنقضي بقالا . لا يعرف وجهها .

مشكلة . لقد مرت بهم جميعاً

ليس هناك منهم من لم يشتر منه بلائح . صدرها مكسر ورديف

الثأرجحين . وصحبته العاصبه بأف قد دفع له البريرة

لمن تذهب إذن ؟ .

لماذا لا تعود لعبد الصبور ؟؟؟

أول من احتالت عليه .. وأحدث منه البصاعة بلائعي .. إنها ما زالت تذكر ملائحه الغبية .. ومظلاته الخائفة التي نفذت إلى صدرها .. وهو قد يذكرها .. ولا شك أنه سيدكرها بالطيب .. أو يذكر صدرها أكثر مما يذكر احتياها

وانتهت إلى سكة المذبح وتوقفت أمام دكان عبد الصبور ..

الرحام اعتاد كما هو .. والصراحت تتعالى تستحث الرجل المتحرك بسرعة وعصبية بملا الأكياس ويرد اللعائف ويعد يده للربائس بالصائع ويدفع بالقروش إلى الدرج الصبور .. حتى وصلت إلى حافة السك وسمت رحامته صدرها ووسط الصيحات المتعالية تصاعدت صيححتها هائفة :

— يا لله يا عم عبد الصبور .. رهقني ..

وغها عبد الصبور بطرف عيبه ولم تثبت أنه ميرها فقد تعجل وور قطعته الخس ولعها ثم استدار إليها . كانت على شفتيه انسامه وى عيبه النظرة الحاتمة التي تحرق الشباب إلى صدرها . لم يكن هناك في ذاكرته ما يبعث على العصب منها .

شيء يبعث على الطمأنينة . ويشجع على الاستمرار في التجربة .

إن الرشح بعير شت لا يذكر سرقب الأولى .. ربما لأنه لم يكتشف أصلاً أن هناك سرقبة .. وربما اكتشف دون أن يعرف من صاحبها . وربما شك فيها ولكنه سى .. ولم يعد يذكر من سوى ذلك الشيء الذى يجذب شعاع بصره وهو صدرها المرتكز على رخامة البلك .

سأل وانسامته معلقة على شفتيه وعيناه فى صدرها .

— طلبات السيادة ؟

— بوه .. ما قتللك ..

وبدت الدعشة على عبد الصبور فهو لا يذكر أنها قالت له شيئاً بل هو لا يذكر أنه رآها قبل هذه اللحظة .. وعاد يسأله :

— قلت ماذا ؟

— قلت لك أريد ثلاث أقات سكر وثلاثة قروش يعنى ونصف أقة حلاوة طحينة و ..

واستمرت سيدة تعدد طلباتها ، وعبد الصبور يمحس الجزء الظاهر من جسدها .

هذه البت مثيرة .. وهو يذكر أنه قد رآها من قبل .. لا بد أنها قد أتت لشراء مرة قبل هذا .. لقد استقرت صورتها في دمه مدة . هذا الصبر المتكرر والصبر الواستين .. وتمنى لو عادت ثانية . ليحدثها ويأخذ معها ويعطى .. ويعرف أى تقطى .. وكيف يستطيع أن يراها . ولماذا لا تعود لشترى منه ؟ وما هي قد عادت ثانية .. فرصة يجب ألا تفوته ..

ولكن ماذا يفعل وكل هذا الزحام حوله والبس تصايغ في عجلة ؟

لماذا لا تعود إليه بعد الزحام .. حتى يستطيع أن يتحدث معها ويتفق على موعد اللقاء .. ولكنها تبدو على عجل .. وهي تصيح به مرة أخرى مهتدة :

— احصل لك هبة يا عم عبد الصبور .. والأأروح محل ناني

لا .. لا .. لا داعي لأن تذهب إلى محل آخر . سيحبها ما تريد . ويحاول إرضاءها فتر ما يستطيع حتى تعود مرة أخرى

وأخذ عبد الصبور يرد ويلف ويصيح على الرحمة . وسيدة تتسهم العافاة وراء اللعافة وتضعف في السمة . حتى أوشكت الطابت على الانشلاء

ومحاة صاح أحد الربائس الذى يقف بجوارها وهو يجد عبد الصبور قد شغل سيدة عن الآخرين حتى ينتظرون مثلها :

— عنه مسخرة .. هذا لعب عيال .. أما منتظر من نصف ساعة .. قد تركتني الآن ..

وحاول عبد الصبور أن يهدئ الرجل فصاح به :

— حلمك يا عم عثمان . أصل البت مستحيلة .

وصاحت امرأة تدف بجوارها في حدة :

— نحن أيضا مستحيلين .. والا هي على رأسها ريشة .

وأحس عبد الصبور بالفرح بعد أن تعالت أصوات الاحتجاج . وهسات

الصق والتبرم . ولم يجد بدا من أن يتحول إلى عثمان يعطيه ما يحتاج

وانشئ من عثمان . ثم تحول إلى المرأة الأخرى .. بعد أن وجد أن صيحاتها قد

أعطت تعال مدبرة .

وحدد عبد الصبور ينتقل من ركن إلى آخر . ووجد أنه قد سقى سيدة وهو

يتحرك في عجلة وعصبية .. يحيى ويلف ويرن وينسم القروش .

وهمت سيدة بأن تستحقته وهي تراه قد انصرف عنها . ولكنها أحسنت أنه قد

أوشك أن يمسها إن لم يكن مسها وسط سبل الاحتجاجات الذي ترتفع من

حوله .

وتدفع الناس من حوها ووجدت نفسها وقد دفعها الرحام بعيدا عن السك

الرحامى . وبدأ لها أن تهرب به أعدت وسيشعل الرحام عنها عبد الصبور ،

ولا يعود يذكر إذا كانت قد دفعت له أم لم تدفع . بل لا يعود يذكر عنها شيئا كما

فعل في المرة السابقة .

ولكنها تذكرت فجأة أن عليها أن تعود لإرجاع البصاعة . وأن عبد الصبور

قد يذكر أنها اخضت فجأة دون أن تدفع !

وعادت سيدة تصيح نفسها طريقا بين الرحام حتى وصلت إلى البت مرة

أخرى وصرحت في وجه عبد الصبور قائلة :

— ستعطى بقية الحاجة .. أم لا ؟

وأجابها عبد الصبور .

— حاضر . دقيقة واحدة .

— ليس عدى وقت .. ولا ثانية . إن لم تعطى الأشياء الباقية هات بقية

البررة وخلصى .

وتوقف عبد الصبور برهة عن حركته .. وهو يتسائل .

— بقية البررة ؟

— أجل

— أية بريرة ؟

— التي أعطيتها لك من الأول .

هل أعطت البريرة يا عبد الصبور ؟ . متى ؟ لقد هنتا أول مرة عندما رأيت

صدرها المستدير على الرحامة . ولا تذكر أنها أعطتك نقودا من قبل

وعادت سيدة تصيح :

— هات بقية البريرة وخلصى .. والا عد البصاعة

إياها تتكلم في ثقة كبيرة . لا شئ أنها قد أعطته النقود . ولكن متى ؟

ربما أعطتها له وهو مبهك في الورن واللف أجل . إنه لا يذكر أبدا .. ماذا أعدد

عنى

ولم يجد بدا من أن يتلطف معها قائلا :

— حاضر .. حاضر .. ماذا تريدين ؟

— عليّة سردين .. وبأكو نضاع .

هذه أشياء يمكن أن تحفظ بها لنفسه .

وما لبث عبد الصبور أن أسلمها ما تريد قائلا وقد علت شعته الابتسامة

وتطلقت من عييه النظرة البهجة الجائعة .

— عندما تحتاجين شيئا عوقى المغرب يكون الرحام قد عرف

— حاضر .

وسارت سيدة بحملها وسط الرحام وعمرت الطريق إلى الرصيف المقابل ،

ولم تعس الصعداء كما دأبت عندما تنشئ مهمتها على حبر . فقد كانت تحس أن

النصف الأعظم من المهمة لم ينته بعد .

إن عباس ينتظرها على باب الرقاق لأخذ منها بعض الأشياء التي ستحتاجها .. ثم تعود بالباقي لترجعه إلى عبد الصبور

تري هل سأأخذه عبد الصبور بسهولة ؟

لیم لا .. إنها تريد السكر ماكنة . وهو قد أعطاهما سترفيش وقد علمت من رد عبد الصبور على أحد الزبائن أنه ليس عنده سكر ماكنة .. واليهى عبر صابح .. يقول طبعاً إنه صابح ولكنها تؤكد أن أم عباس طلبت منها أن ترجعه لأنه غير صابح ولأنها كسرت واحدة ووجدتها ممشقة ..

وهكذا ترجع الجزء الأكبر من المشروقة ..

ووصلت إلى ناصية الرقاق .

لم تجد عباس ..

تري أين ذهب ؟ لقد اتفق على أن ينتظرها لأخذ منها بعض ما تريد حمزة أو نخفيه في البلاء في عشة غراخ إلى أن تعود إليه بالقود بعد أن ترجع باقي البضاعة ..

وانتظرت برهة .. فلم يبد له أثر .

لم يأت عباس .. وفداً لا يأتي .. فهو لا يهأ بموعده .. ولا يلتزم باتفاق .. ولكنه ينتظر القود .. وهو في حاجة إليها .

ربما سحبت له فرصة للحصول على القود عن طريق آخر . صديها ، وبسى كل ما قال لها .

ونكن لما تريد . إنها تستطيع أن تمنى في اللحظة إلى آخرها . كل ما عليها أن تخرج ما تريد من السنة وتسلمه لخيل المكروحي طبعاً عودتها ثم تذهب لإرجاع البضاعة إلى عبد الصبور . وتستعيد منه الثمن وتحفظ لنفسها به .

جل . هذه المرة — إن سمعت — ن تعطينه مليماً واحداً ..

وسارت سيدة حمزة تتسكع على الرصيف . حتى يمر بعض الوقت بحيث تبدو

وكانها عادت إلى البيت .

وأخيراً عبرت الطريق إلى سكة المدمج متجهة إلى دكان عبد الصبور مرة أخرى ووصلت إلى الخانات . وكان الزحام لم يخف بعد . تعيرت الوجوه .. وحدث مكابها وجوه أخرى .. والصيحات كما هي .. بتعريفة حلوة .. بفرش جبة . زجاجة خل ، نصف أقة ريتون ... بكلفة كسيرة . قدح عدس .. ويصحب كل بدء استنحات لعبد الصبور بأن يشهل ..

وشقت سيدة طريقها وسط الزحام حتى وصلت إلى البك . وهبها عبد الصبور فتهت بها قبل أن تتفتح شفتها وقد بدا عليه التهلل .

— خير .

— لم يصحبه السكر .

— له ؟

— يريدون سكر ماكنة .

— لماذا لم تقول من الأول ؟

— قلت لك ولم تسمع .

— ظننت أنك تريدني سترفيش .

— قلت لك بأهل صوت سكر ماكنة .

— ولكن ليس عندي سوى سكر سترفيش .

— أحضره من محل آخر .

— تريدني لإرجاعه إذن .

— أجل .. وكذلك اليهى غير صابح .

— من قال هذا .

— كسروا واحدة ووجدوها ممشقة .. وقالوا لي أترجعه

— وماذا أنصا ؟

ورفعت سيدة السكر من السلة ووضعته على الرخامة .. ثم مدت يدها إليه

بقرطاس البيض .

وأسلكت عبد الصبور بالقرطاس قاتلاً .

— اتفق لك بذلك .

— لا . أريد النقود .

ولم تد على وجه عبد الصبور علامات الرضاء عن عملية إرجاع البصاعة .

وإن كانت أراحت في أول الأمر هودة سيدة نفسها .

وهنح عبد الصبور الدرج ببساطة وهو يتساءل :

— كم ؟

— احسب أنت .

— ونعم عبد الصبور يصع كلمات كأنه يحسب ثم دفع يده في الدرج وأخرج

القرور المطلوبة ثم مد يده إلى سيدة .

وقبل أن تتناول سيدة النقود هتف بصوت أجش بصيحة مدبرة :

— انتظر يا عبد الصبور .. ألبت ذي نصابة

وانتفتحت إلى صاحب الصيحة فإذا بها تعرف وجه صاحبها . لقد كان

مرسى .. صاحب بقالة الخبيبي .

ثم تعرف أي ريح قدمت به في هذه اللحظة . ولكنه كان يعلل عليها متجهما

من جانب الحائزات وهو مستمر في صسته العاضب :

— أجل هي هي نفسها . مرت على من قبل . وأحدث أشياء كثيرة ..

ثم ادعت أنها سلبت الثمن . ولم أكتشف خدعتها إلا في آخر النهار عندما

جردت الحساب ووجدته ناقصا قيمة بصاعتها .

وبدأ عبد الصبور يتذكر وتطابرت من نفسه كل رغبة فيها .. ولم يجد يرى

غير خدعتها إياه

لقد أصرت على أنها دفعت الثمن . وهو واثق أنه لم يرها إلا ساعة نبح

صدرها يتدلى على الرحامة .

وهو يذكر الآن أول مره . نفس الحكاية .

خدعته القيمة مريب . وكل مرة تهب في وجهه كأنه قد أساء إليها بمجرد

سؤالها هل دفعت

وسحب عبد الصبور يده بالنقود وهو يبر رأسه ويقول في عصب مكتوم

وأصداعه العريضة تتلاعب :

— هكذا تأتي مرة تفعليها .

وقمت يا سيدة ولم يسم عبيد أحد . هذا الشيطان الذي ست من الأرض

فجأة قد مسحك

ماذا تفعلي يا سيدة .. والدنيا توشك أن تنطرق على رأسك .

لا تستنسي اصرحي . واشتعي . وقاومي

واندفعت سيدة تصيح .

— ما هذا الذي تقول له . أحييت ؟

— أما الذي جئت ..

وفزع الرجل فجأة من وراء الرحامة ثم أطلق على نسلة وترعها من يدها

صالحا

— سأحارب بيتك

وهتف مرسى وهو يمدع إليها ليقبض عن عنقها .

— وأنا سأودعها في خاوية .. لن أتركها إلا في السجن ..

انتبها يا سيدة . اصرحي كاشفت وعدومي ما شئت .. فلن يجذبك الصياح

بعاء . وقد انقلب الكلي عليك كأنهم يتظرون وقوعك حتى يشدوا السكين

على عنقك .

وتعالت الصيحات من حولها :

— الجيرمة

— العصاة

— الحرامية

— ولا يكفينا أنها سرقت البصاعة . إلا عابرة ترجمها وتأخذ الثمن
أما بحجة .

— دانا حاحرب بيتك .

— دانا حاوديكى فى دافية .

عليكى العوض يا سيدة ..

فعلها فيكى عباس ..

والختمى .. كأنه نص ملح .. وداب .

بارقة عطف !

اندفع الجمع المتكاثري حول الحانوت يتصايحون وأحد الأرحام والصراخ يشد
الناس في الطريق وصاعت صبيحات سيدة وسط الصحيح . وبدا لها كأن
الناس كلهم كانوا ينتظرون هذه اللحظة حتى يشبوا في عائلهم ويلهبوها بسياط
أستهم .. مؤكلين أنهم يعرفون أنها لصة ..

وتغلكها بالأس .. وحمد تفكيرها وتبلدت أحاسيسها وأحدثت نظر حوله
مشدوهة إلى العيون المصفقة والأفواه الفاغرة .

وصاح أحدهم :

— غننا على القسم .

ورد عبد الصبور وهو يمسك بالسلة المثينة بالبصاعة في يده ويطلق بالأخرى
على دراعها التي أحس بها لينة مثيرة تحت أصابعه .

— والدكان .

وهتف به آخر

— سأحصر لها صكرى .

وتسائل صوت لم تعرف من أين .

— لماذا ؟

ورد عليه عبد الصبور في تحد :

— لأنها سرقت

— سرقت ماذا ؟

أحل سرقت ماذا . ولم يسمع عبد الصبور دهمه التليد بالرد . ولكنه
أجانب صائحا وهو يحاول أن يكتمت صاحب السؤال ويواصل هياجه على

صيدة :

— سرقتى

ورد عليه صاحب الصوت وقد أحد يقترب منهما بصوت أكثر وصوحا

— ماذا سرقت منك ؟

وساد الصمت . وتطعن الناس في أشبه إلى الحوار الماترين الطرفين
وأجاب عبد الصبور صائحا في عبط وقد أمسك بتراع سيدة وظاهر كفه
ملابس لإعطها وأصابه نكد تلمس سبت صدرها . ونجح شعورا غليظا من
الإثارة والرغبة في الأذى :

— سرقت البضاعة .

وبدأ صاحب الصوت . عندما وصل إلى عبد الصبور بوجه أرق مما يسم
عنه صوته الخشخ . وملاح أصغر مما توهم به لحيته .

لم تكن سه لتجور سها . كان يعبر شت أصغر من عباس ولكنه كان في مثل
طوره ولم يكن شعره مشعنا كالشوك ولا كان أمه عاشا يملأ صفحة وجهه ولا
كانت نظراته متحدية ولا قسماته متجهمة كعباس وغيره من ثمرهم . كان
وجهه مريحا لطيفا وسما رقيقا لا يحمل افعال الخصومة

وم تملك سيدة إلا أن ترتاح له . وأحسنت من أمثله أنه يحاول الدفاع عنها .
وهو يرى الجميع قد أحاطوا بها بماصون إياها المراء .

وسأل العتي الرقيق الوجه لماذا؟ القسمات عبد الصبور قائلا :

— أية بضاعة سرقتها ؟

— بصاعتي

وأشار العتي إلى السلة في يد عبد الصبور :

— ومادا هذه التي في يدك ؟

وبمسافة وعاد أجاب عبد الصبور

— البضاعة .

— إذا كانت البضاعة مملك . لماذا تريد ؟

أجل .. ماذا تريد ..

ماذا تريد يا عبد الصبور والبضاعة في السلة والسلة في يدك ؟

تريد أن تستمر في قصتك على ذراعها الطرية ومسك جانب صدرها . ولو
أمكن أن تطبق عليها بكلمة يديك وتعرجها أرضا .. وتوسعها صريحا .
وقشحا .. وتقلع بها كل ما تريد ..

ولكن هذا الدحيل . قد حورك وهو يسألك ماذا تريد والبضاعة في يدك
وهي في يدك فعلا .. لماذا تريد ؟

وأجاب عبد الصبور في عطف وهو ما زال ممسكا بها .

— أريد حتى ..

— حقت في يدك .

— كانت توشك أن تسرقنى .. أهدت البضاعة .. ولم تدفع الثمن ثم عادت
ترجعها .

— إذن عدها .. واحدا ربا

— إنها تريد الثمن .

— إذا كانت لم تدفع .. فلا ترد لها شيئا

— ولكنها تطالب به

— دعها ولا تسأل فيها .

— ولكنها تصر .

واقترع العتي من سيدة وحذب يد عبد الصبور بعيدا عنها قائلا

— دعها لي ..

وبصوت عاقت سألها ببساطة :

— أذعنت له الثمن ؟

ونظرت إليه سيدة ووجدت نفسها لا تملك الكذب عليه وهو يسألها عن
هذه الثقة واليقين بأنها ستقول الصدق فكانت له بصوت حافت :

— لا .

واستدار إلى عبد الصبور وقال :

— خذ البضاعة ودع البت لحالها .

وبنا كأن الناس قد اقتضوا ببساطة بما صار إليه الموضوع . وهدأت آثارهم وبدأت التعليقات تتحول من الثورة إلى اللين :

— خلاص . خذ البضاعة وانها .

— ما دامت الحاجة في ذلك . فلماذا كل هذه الضجة ؟

— يا أحمى .. حوشنا .

وقال عبد الصبور محسبا :

— طيب أنتم هل البضاعة .. يمكن حاجة باقصة .

ثم أخذ يشرح الأكياس ويرصها على الرخامة ثم صاح متحديا .

— ناقص حاجات

وتسائل الفتى :

— ما هي ؟

— أشياء كثيرة .

وعضت سيدة مؤكدة :

— لا يقص سوى عبة السردس وبأكو البضاع .

وصاح عبد الصبور وكأنما تذكر :

— أجل . أجل . عبة السردس وبأكو البضاع . سرقهم .. لا بد أن

أسلمها للعسكري .

ورد عليه الفتى ناهرا :

— عسكري لماذا .. إذا كانت محتطيك ثوبا

.. هل معها ثوبا ؟

وانتظر الفتى أن ترد سيدة ولكنها هزت رأسها بالنفي .

وعاد عبد الصبور يصيح في ضجاعة :

— لن أتركها إلا في البيوليس .

ولكن سيدة أجهت وهي تزهد ويقها :

— سأعيدا إليك .

وكان عبد الصبور قد أطلق مرة أخرى على ذراعها .

وأردفت سيدة وهي تحاول أن تتربع ذراعها من قبضته .

— دعني وسأعود بهما بعد خمس دقائق .

— أبدا لن أتركك .

وبدأ الربائي يتسلطون وهم ينفذون النهمة على متابعة الحركة بعد أن صحت

حلتها وصاح به بعضهم :

— غلصا يا عبد الصبور

— لن أتركها إلا في البيوليس إما البضاعة .. أو القرشين

وفكر الفتى برهة ثم سأله :

— ثبما قرشان ؟

— أجل .

ومد الفتى يده في جيبه ثم أخرج القرشين وأعطاهما لعبد الصبور قائلا :

— خذ القرشين .

وبلعت النهمته على عبد الصبور وتسائل قائلا .

— وانت مالك . هي ثعبت ؟

ويهدوء أجهت الفتى .

— أجل . تبى ..

— إنذ لموها .. بدل أن تتركوها . تخطف وتسرق .

وقصر عبد الصبور إلى داخل الحانوت بعد أن أخذ القرشين وقذف بالسلة

الفارعة إلى سيدة صائحا :

— عرفت يا ست الحرامية ان تعودى الى استكرهى أبدا . سأفحص
الناس قبل أن ألب البصاعة
وسارت سيده بالنسب و يدها مطاطة الرأس .
لم تصدق أنها عجت ..
لم يكن هناك أمل في الحياة .. بعد أن انهار كل شيء على رأسها .
كان الناس يوشكون أن يمتكوا بها ..
وفجأة انتهى كل شيء .. انتهت ثورة الناس . وانصروا .. وكان شيئا
لا يعنيه في الأمر .. وعاد عهد الصبور إلى حانوته .. وعادوا يتصاحمون
بطلباتهم
وسار صاحبها بجوارها .
لم تعرف من أين ظهر .. وعادوا مع ما فعل . لقد فعله بساحة من لا يعمل
شيء .. وكان من المفروض أن يفعله .
وهي الآن مدبئة له بالقرشين اللذين دفعهما لعبد الصبور . وهو لا يمسو أنه
يردهما فهو يوشك أن يصرف عنها بحر كسبة .
ونوقست تسألوه وهي تحس أنه يوشك أن يتركها ليذهب إلى ميدان المذبح
— ألا تريد القرشين ؟
وانتصت إليها متسائلة .
— هل معك قرشان ؟
— لا .
— ودد لماذا نسألك ؟
— أستطيع أن أعطيك عبدة السردى وماكو العاص
— من أين ؟
— تركتهما عند المكوجى .
وبدت عليه الدهشة وتساءل :

— لماذا فعلت كل هذا ؟
وأطلق رده رأس وهي تشعر أنها تريد أن تستغرق في البكاء .. بعد أن نجحت
كما أوشكت أن يخل بها وهرت رأسها قاتلة .
— لا أدري
— هل تحتاجين لقود ؟
— أبدا .
— أين تعملين ؟
— أين أعمل ؟
— أجل . ألا تجد من عند أحد ؟
— ليس بالصعب
— ألا تعملين حادثة ؟
— لا .
— هل تعيشين مع سرتك ؟
— ليس بالصعب
— ماذا تصي ؟
— أعنى أن أعمل .. لأعيش . أو .. أعيش عندهم .. لأعمل .
— لا أنهم
— إلى أعدم باللقمة .. عند الحاج برعى ..
— هل هو قريبك ؟
— كان أبق يعمل عنده قبل أن يموت .
— لك ثم ؟
— لم أرها
ونظر إليها المتى في ضيق ثم قال محاولاً أن يمسى النقاش .
— المهم . لا تعودى إلى ما فعلت اليوم على تلتنى من العقاب بعد ذلك

أُحِلَّ لي ثقفت من العقاب . لأن الناس يكرهونها .. ليس بينها وبين إنسان على ظهر الأرض .. شعور طيب .

أول مرة تحس أن إنسانا ما يمسحها هذا الشعور الطيب . ويقف إلى جوارها ويصد عنها أذى .

وهي توشك أن تعود مرة ثانية . إلى حقن الكراهية .. والألمانية .

وتحملها إحساس مرير بالصراع .. واليأس . ونمت لو استطاعت أن تدفع في البكاء . إنها تريد أن تمسك بشيء يجريها من بؤرة الكراهية التي تعيش فيها .

ليس هناك من يمسحها كلمة طيبة أو شعورا طيبا . الكل يريدون منها أن تعمل من أجلهم . وعاس لا يعاديا .. ولكنه يجربها أداة لما يريد ، يمسح يده منها عندما لا يحتاج إليها .

ونظر إليها الفتى نظرة أخيرة وتساءل قائلا :

— هل تريد شيئا ؟

وأطلقت سيدة زغربها الممرورة لم ردت فجأة :

— هل أستطيع أن أعمل عندكم ؟

— نعمين ماذا ؟

— خادمة

— ولكن ماذا يقول أهللك ؟

— ليسوا أهل

— أعني أولئك الذين يعملون عندهم .

— لي يقولوا شيئا

— كيف ؟

— لا أظن غيتي تزججهم كثيرا .

— وهل تريدني أنت العمل كخادمة ؟

— إن أعمل أسوأ من خادمة . أعمل كل شيء ولا آخذ شيئا .

ويذهب على الفتى نظرة حيرة . ولم يعرف بمدا يجب . فتمسأته في عمر اختصاصه فهو لا يعرف ماذا ستقول أمه . لو ذهب إليها بالمتعة . وأخبرها أنه أنقذها من البقال بعد أن كانت توشك أن تسرقه .

لن تقبلها أمه .. وستهمه بالخيانة والمبطل كما حدثا

ولكن أمه في حاجة إلى خادمة . لقد ذهبت ركية إلى البلدة لتزوج وقد سمع أنه توحى المعارف والأقارب بإحصار خادمة

ولكنها لم توصه هو .. فليس هذا من شأنه . وهو لا يدري عن هذه الأمور شيئا

وعادت سيدة تنظر إليه في استكانة قاتلة وهي تغالب دموعها .

— إلى لم أفعل ما سيحكم . وأنا أعرف كيف أعسل وأكس وأمسح .

وبدا القرد على وجه الفتى .. وتقم قائلا :

— ولكني لست ذاهبا إلى البيت .

لا فائدة يا سيدة .. قد حكم عديث بالسجن ولأشغال الشاقة في بيت أم عباس ..

لن يتغير مصورك .. حتى تموت أم عباس .

لقد متحكك الله بركة عظم .. في حياتك المنيعة بالكراهية . ولكنه يأني إلا أن يطمئنها .. فصاحبها لا يريد أن يتيح لك فرصة تجربة جديدة بين أناس ..

قد يكونون مثله .. يهرعون المنيعة .. ويضاملون بالود .

وسأله وهي توشك أن تمير الطريق متجهة إلى الرقاق :

— ألا تريد علية السردين وهاكو الضعاع ؟

وبلا تفكير أجابها وهو ييم بالسر :

— عديما لك .. ولكن لا تعودى مرة أخرى إلى ما فعلت .

وأجابته « حاضر » مصحوبة بزرقة اليأس المريرة .

ولم تكذب تسير خطوتين حتى سمعت صوته الصمغ الذي لا يسم عن وجهه

(نحن لا نزرع الشوك جدا)

الرفيق يبتلع بها :

— اسمعي .

والنصت إليه بسرعة وأجابته في لحظة :

— نعم

— ما اسمك ؟

— سيدة

— اسمعي يا سيدة سأذهب بك إلى البيت .. وسأريك لأمي .. وهي

وشأنها مملكت .. تأخذه أو لا تأخذه

وأخست سيدة كأن باب فرج قد فتح أمامها .. وأجابته في ثقة .

— سأفعل كل ما أملك لك أرضيها .

واستعرد الفتى يقول بخنقا :

— ولكنني لن أذكر لها شيئا عن الحادثة

— كثر خيوك

— وسأقول لها إن صادقك تبكي في الطريق لأن الدين تمسكهم

صربوك وطردوك .. مفهوم ؟

— مفهوم

— هيا بنا .

وعبر الفتى بجمعه عائدا إلى البيت متجها في شارع السد حتى وصل إلى وابور

الرمالي ثم عبر بجانب الخديدي العريض ، ودلف في الطريق الذي تخرج منه

عربات الخمر وشوالات الخفيف .

نرى ماد سقون أم عباس عندما تتأخر عودتها ؟ متهدد بالطبع وتسرع

كما تعودت أن تتلذذ ..

ولكن ماذا ستفعل عندما تكتشف أنها لن تعود ؟ .

أعصب الظن أنها مستترجع فهي رغم كل ما تقوم به لها من خدمة قد

باتت تنكره وجودها . بعد أن تحولت إلى هذا الشكل الجديد دي الصدر

والردوين . إنها تحشى على عباس أن يتورط معها . وتكره أن ينظر إليها الحاج

برعي .. أو يملطف معها .

وعباس ماذا سيفعل ..

عباس . لا يحمل له هم . لأنه لا يحملهما . إنه يذكر الناس عندما

يراهم . أو يتناح إليهم . وهو من غير شئ سيساهم ما دام لا يرى لها وجهها .

وسيشغل عنها بكل ما يجارسه من خطايا وذنوب ..

أما الحاج برعي .. فلا شك أنه سيجزع لحياتها . ولكن جزعه لن يطول ..

لأن المطبعة وشغل المطبعة ورئاسة المطبعة .. وعمال المطبعة كفيلة بأن تشغله عنها

وعن أية محاولة للتذكير فيها .

بعد بضعة أيام لن يذكرها أحد . نحن لا نذكر في هذه الدنيا إلا الذين

يشعرونا بشحركون حولنا . ويؤثرون على مصيرنا . أما الذين يضيئون في

الذاكرة مصيرهم إلى الزوال .. لأن الذاكرة تطوى مع الزمن ما يرفد عنها ناكته

يوما بعد يوم . حتى يكاد يقرص .. إلا نقايا كتابها الرخات أو الأطلال

فلتقدم إدد على حياتها الجديدة . ولتقرر مصيرها .. فهي وحدها القادرة

على ذلك ..

أحل لن تعود إلى بيت الحاج برعي . فإن أي شقاء يمكن أن تصادفه أهون

من حياتها هناك إنها لن تعتمد لقعة العيش . والرفقة على الحضور وليس

لديها ما تخرس أو من تخرس عنها في حياتها خلال السنوات الطويلة التي قضتها في

خدمة أم عباس .

ليس في ذهب ذكرى طيبة تخرس على استرجاعها ، ولا في قلبها إحساس

طيب تخرس على استبقائه .

واحتلست النظر إلى الفتى الباتر بجوارها .

كان يسير في خطي حيثيات . كأنه يريد أن يلقي من فوق كاهله عبئا يريد أن

يتخلص منه .

وسارت جيرويل بجوارحه وخلفه قليلا . ولم يد عليه أنه بدأ كثيرا بشخصها .
عجيب ! .. ما الذى جعله يتحمل كل هذه المشقة من أجلها ؟
لماذا حشر نفسه فى المشكلة إذا كان لا يبدأ بها القدر ؟
لم يحاول أن يتخلص منها . أو يرن صدرها بعينه كما يفعل الآخرون . لم يحاول
أن يتحسسها بظفراته . كأن هذا التكوين الذى كان يجذب أنظار الشارع
كله .. لم يكن يعنى لديه شيئا .
لماذا انطلق صوته العريض ليشتت بعض الصور عندما اتهمها بالسرقة
« ماذا سرت ؟ »
إن شكله نظيف .

بعض الناس تجدهم كأشياء لم يستحسنوا مد عام .. كعباس . ولو كان حارحا
فى نفس اللحظة من الحمام فهو يبدو لك وكأنه مترب .. أو مهيب .
وبعض الناس تجده نظيفا .. دائما .. فيبدو كأن الله قد دهكه جيدا .. ودفع
به إلى الكون نظيفا لا يحتاج إلى حمام . مثل هذا الغنى الذى تسرع الخطى بجوارحه
كأنه يريد أن يتخلص منها ويقذف بها إلى أمه .
لرى من يكون ؟ إنها لا تعرف عنه شيئا حتى اسمه
هل تسأله ؟ ..

لا داعى .. فليس هذا وخته .. فقد بنى بها . ولو أنه يبدو وكأنه لا يستطيع أن
يبدل أبدا .
على أية حال .. متعرف اسمه بعد برهة . عندما يذهب بها إلى بيتهم ..
فلا بد أن تتاديه أمه .. أو أى إنسان آخر فى البيت .
المهم .. لماذا تجشم كل هذه المشقة من أجلها ودخل فى هذه المناقشة الطويلة
مع عبد الصبور . ورغم أنه فيما يبدو ليس حاليًا . وأنه لم يكن يسير متسكعا ..
حتى يشغل نفسه بسرقة أمام دكان بقالة ..

ولقد بدأ عبد الصبور مصحكا خلال مناقشته معه . رغم ما كان يراه الناس
من حقه .. ورغم أنهم وقفوا جميعا معه ضدها .
كان مصحكا عندما سأله بعد أن اتهمها بسرقة البضاعة منه .. عن هذا الذى
يحملة فى يده . فأجاب إنها البضاعة .
وكان مصحكا عندما قال له إنها تريد أن تسترد الثمن فرد عليه ببساطة ..
لا ترد إليها .. ويتبى الأمر .
وأحس الناس الذين أخذوا كل هذه الضجة أن المسألة لا تستحق .. وبست
كأنها زوينة فى فئحان .

لا شك أنه عاقل . فقد أنقذها ببساطة . وبغير ضجة .
ولكن لماذا لا ينظر إليها ؟ ..
ودت لو أن شيئا فيها يصعبه
ولكن .. لا يبدو أنها تحببه أبدا ..
طبعًا .. أليست فى نظره .. حرامية . إنه هو أفرى من غيره فقد اعترفت
له .. ببساطة .

ولكن لماذا اعترفت له ؟
لأن شيئا ما .. يدفعها إلى الاطمئنان إليه والثقة فيه .
عن مكذب عندما غاف . فإذا لم تغف .. فمن يكون هناك ما يدعوه
للكذب .

فالت له إنها لم تدفع الثمن . لأنها تعرف أنه لن يؤديها . وهو معلا . لم
يؤدها .. ولم يلها .
كل ما قاله إنه حذرهما أن تعمد ما فعلت لأنها لن تنص السجاة .
ولقد حاول — أكثر من هذا — أن يسترها .. عندما قال إنه لن يقول لأمه إنها
سارقة .

لماذا كل هذا ؟

لماذا يحاول أن يمدح فيها أمه ؟ . إنه لا شك يؤمن بأنها عور شريرة .. ومظلومة .

فهو يتدخل من أجلها ويقول إنها نعمة . ويدفع عنها القرش ثم يحاول أن يسترها أمام أمه عندما يقتل أخوها إلى البيت .

كل هذا .. وهي لا تعجبه .

إنه فقط يريد أن يساعدنا لأنها مظلومة ..

مخلوق عجيب ! .

وبما عجايب في هذه الدنيا .

ولكن لا بد أن تكون هناك مخلوقات كثيرة طيبة مثله .. ولكنها نقت .. ثم تصادفها .

وكانت تسير طول هذه المدة وسط الطريق الذي يخترق وادي الرمال والذي كانت تذهب إليه بالصبيحة قبلها من أكوام التراب الذي يحمل الدحرج

وكناصة القمح الذي تعرضه للعراش ليهفوا فيه ويلتفتوا ما يملونه من حب وكانت ماكينات المحرور في طرقات متواليه وعمال المطحن يخرجون

من أبواب وعلى رؤوسهم الشوالات التي تعطيها كالطراوير وترتق على أكتافهم كالنساء الصغيرة وقد عمر الدقيق وجوههم وأدرعهم العارية وهم يهيمون

العربات الصغيرة ذات العجلة الواحدة التي تحمل شوال الدقيق ليقفوه إلى الخمار

وعبرت الطريق إلى الباب الآخر المسمى إلى جبهه نابيش . وانتهت بمدة ثم بسرة . حتى انتهى بها المطاف أمام بيت دى ناب حشى متسع تعلوه شجرة

توت كبيرة ودلعت منه إلى ماء عريض أحيط بالأشجار وبدا البيت كأنه بيتان كل منهما ثلاثة أدوار يصل بينهما معبر ذو بوابد رجاحية ملونة وانتهت بسرة

وراء العتي إلى حشى النقام على اليسار وصعدت السلم العريض الذى يفضى إلى الدور الأول المطل على السماء .

وكانت الشمس قد أهدت ترتفع في الأفق .. والحو خريف معتدل برطب من حرارة الشمس فيه .. سمة بحرية تهب بين الحين والحين

ووقفت سيدة وراء العتي في فرائضة مربعة يفضى إليها السلم العريض وهو يترك الباب .. وصوت نسائي عجيبة من الداخل :

— حاضر .

وضح الباب وبدت وراءه سيدة طيبة القسمات بطيعة الوجه كالعتي وسأته في دهشة :

— حمدى .. لماذا بك ؟

إذن عاصمه حمدى .. لم تسترق المسألة وكأ لاكتشافها وأجاب حمدى قائلا وهو يطمش السيدة :

— لا شيء .

— إذن لماذا عدت ؟

وأجاب مترددا .

— لأى . .

ثم تمحى جانبها حتى يتضح لأمه أن ترى ما جلب .

وزادت دهشة أمه وهزت رأسها مسائلة :

— ما هذه

— تريد أن تعمل عندما .

— وأين عثرت عليها ؟

— عند البقال .

— ولماذا أحضرتها ؟

— وجدتها تبكى لأن أصحاب البيت الذين كانت تعمل عندهم صربوها وطردوها .

لقد كذب إذن . بالأمر الخطير . فمن أجل مع شرور أكبر يمكن أن

يرتكب شرأصغر . والكذب ها .. شرأصغر مما كان يمكن أن يعرضها له لو قال الحقيقة .

ما عليا لنسمع بقية الحوار بين الفتى وأمه .

و لم يد الأرتاح عن أمه ونظرت إليها في تشكك متسائلة :

— ولماذا طردوها ؟

ونظرت إليها حمدي .. وكأنه يحول السؤال عليها

و لم تعرف لماذا تجيب .

لماذا طردت . المفروض أن تقول إنها لم ترتكب دبا وإلا لما عاشرت السيدة بنوها .

وهت بأ أن تمنح فاهه ولكن حمدي وهر عليها فحدث قتالا .

— أنظبا وقعت حاجة كسرتبا . ويظهر أنهم ناس مرعجين . وأنت كنت وصيتي حل واحدة .. فقلت قد تفعلك .

ووجهت السيدة إليها نظرة فاحصة . ثم تساءلت في بساطة .

— من الدين كنتك تعملين عندهم .. يا شاطرة ؟

و لم تدر سيدة ماذا تقول .. هل تقول الحقيقة .. أم تخترع أكفوية .. ؟

و لم تجد هاك ما يدعو إلى الكذب . إنها كانت تعمل . والدين كانت تعمل عندهم ناس مرعجون عملا .. فهي لا تظن أن هاك أحدا يمكن أن يكون أكثر إزعاجا من أم عباس . ولقد كسرت ذات مرة طبقا وصررتها ثم عباس صرعا مبرحا .

وردت سيدة ببساطة :

— كنتك أصعل عند الحاج برعي .

— ماذا يعمل ؟

— صاحب مطبعة وورشة تجليد .

— وساكنين هين ؟

— في شارع السد .

وعادت السيدة تنظر إليها نظرة فاحصة ثم سألتها في قلق قبل أن تأد لها في الدخول :

— أكن يتضايق الناس الدين كنتك تعملين عندهم .. إذا ما اشتغلت عندها ؟

نبتصايقوا كما يتصايقون .. لقد صايقوها بما هي الكساية .

وردت سيدة ببساطة :

— إلى حرة أصعل حيث أشاء .

وتساءلت السيدة .

— وأهلك ؟

— ليس لي أهل .

— لكس لك أب ؟

— ولا أم .. ولا أحد أبدا .

وبدت نظرات العطف في عيني السيدة وتراجعت إلى الداخل وهي تقول .

— ادخل لي بنتي .. إن شاء الله تسترعي عندها .

وأحست سيدة أنها قد اجتازت امتحانا عسويا .. وبدا لها وهي تجتر الباب إلى الداخل . أنها تعبته إلى مستقر يؤويها من الصياغ والوحشة .

لقد مسحها أم حمدي من الإحساس الذي منحه لهاها الفتى . إحساس الثقة والأرتاح .

لقد همت وجه السيدة الرقيق الطيب الطيف في نفسها شعورا بالأمان .

وملأها لمحبته إحساسا بالطمأنينة . لم تجد أترا لتلك القسوة التي تشيعها أم عباس في كل ما حولها .

ووقفت سيدة في حجرة الخلوس التي أفضى إليها الباب . كانت بها أريكة

ومصيدة . ومقعلمان كبيران وباب يؤدي إلى حمام وآخر إلى صالة مسيجة .

وأقبلت فتاة من ناحية الصالة يبدو وجهها كأنها رقيقا طيبا ونظرت إليها نظرة

مستقرة ..

وقالت الأم مشيرة إلى سيدة :

— جدى أحرك قائدها وهو في طريقه إلى بيت جده . ووجدنا تريد أن
تعمل فأحصرها معه .

وهشت الفتاة في وجهها مرحبة وقالت في بساطة ورقة :

— ما اسلك يا شاطرة ؟

— سيدة

— اشتغلت من قبل يا سيدة ؟

— أجل . أستطيع أن أمسح وأكس وأغسل .. وأعمل كل شيء .

— هائلة . ستساعدني إذن . لقد مضى أسوع عليها .. وأنا أقوم بالبيت

وحدى ..

ونظرت الأم إلى سيدة وإلى ثيابها المبهلة وشعرها المشوش وقالت لانيها .

— عديها إلى الحمام يا سميحة تشطف وتشرح شعرها . وأعطيها شيئا من
عبدك تلبسه .

— حاصر يا بنة .

ثم التفتت سميحة إلى سيدة وجرحها من ذراعها قائلة .

— تعالي يا سيدة معي . لقد كنت أعرف أن ربنا سيخرجها . إن شاء الله

تسرحني عندنا .. ولا تتركيني حتى تترجعي .

أمرهم عجيب هؤلاء الناس

إنهم يمتثلون أن تسترخ عنهم .. كأن لها حق الراحة ..

لقد بات ارتياحها أمرا يميم بعض الناس . وهم يسألونها أن تعسل وتمشط
شعرها .. وتبدل ثيابها .

وهذه العناية الرقيقة تعتبر وجودها رجا من عبد الله

ونظرت سيدة إلى سميحة وهي تسرح بخوارها متجهة إلى الحمام قائلة لها

— ادخل اغسل وجهك حتى أحصر لك غيارا

ثم الصت إليها مسائلة :

— هل أفطرت ؟

وذكرت سيدة أنها لم تتناول لقمة حتى هذه الساعة . وتذكرت علة
السردى وبأكل الصاع اللذيذ تركبها عن حليل المكوى والتعتت إلى سميحة
وهزت رأسها بالنفي .

وقالت سميحة وهي تنحى بخارجة من الحمام :

— سأصنع لك ساندوتش جيدة . وبعد أن تأكل سأريث بيت وأريك ماذا
ستعطين ..

— حاصر .

واستقرت سيدة في الحمام ..

إنه حمام متسع نظيف ذو سقف أشبه بالقبة تطل من فتحات زجاجية مبنية .
وأطلقت سيدة تبيدة راحة طويلة ..

لقد قمت العناية الرقيقة لها أن تسترخ عديمه وأن تبقى حتى تروح . هذا
شيء جديد عليها . شيء غير ما وجدته في بيت أبيها مع دلال وغير ما وجدته في
بيت برعي مع أم عباس .

إنها لا تكره العمل . ولكن تكره الإرهاب . تكره الكرهية .
والإدلال . تكره أن تشعر من حولها بأنها لا تريد على أداة نستعمل في خدمتهم
دون أن تستحق كلمة جاد أو بسمة عطف .. وكون أن يكون لها حق في اللقمة
الطيبة . والخدمة النظيفة .. والشعور بالراحة والأمان .

ولكنها تبدل الأمور مخففة .. هاتبدو الوجه طيبة والقلوب رقيقة ..
والظفرات هاشة .. والكلمات رحيمة .. هاتبدو أن هناك من يربها . أو
يحبها . هاتبدو أن لها حقوقا .. حتى قبل أن تؤدي ما عليها من واجبات

تري هل ستتركها أم عباس ؟

.. ولم لا .. إنها حرة في أن تعيش أبيا تشاء

ثم من أين ستعرف أم عباس أين هي ؟

(١٢)

لو أن شيئاً فيها .. يعجبه !

استقرت سيدة في مقرها الجديد بيت الأستاذ محمد السمانى . في حجرة تسمى .. البيت الفصح ذو الثروة المورقة تظلل مدخله ولم يكن العمل سهلاً . كان عليها أن تقوم بنس الأعمال التي تقوم بها في بيت الحاج برعى من كنس ومسح وتنظيف وغسيل وقضاء حاجات المنزل من السوق .. وكان عليها أن تبدل بنس المهدى لم يكن أكثر ومع ذلك فقد كانت — بهو جدال — تشعر أنها أسعد حالا .. وأنهم بالآ .. وأكثر استقراراً وأقل دحراً .. فقد كانت تمارس عملها كأنها أحد أفراد البيت . لم تكن تشعر من حوها بإرهاق السيادة .. أو قسوة السلطة . ولم يكن ذلك أنها لم تكن تشتم أو تعصب . فقد كان الأمر لا يخلو من رعدة . من فرصة .. أو سبة من ربة البيت .. وصاحبة السلطان فيه ولكن من الذى يحا . من فرصتها وسببها من أهل البيت .. في رحمة العمل .. وحدة الاتصال كان يتساوى أمامها « سى محمد » رب البيت . وسيدة خادمته كان يمكن لسيد أن يمت « باقىل » . وكانت صفة الابن المختارة « المدهول » أما الامة فكانت تكسى « إلى تشكك » .. ويبقى بعد ذلك لسيدة نداء « إلى تنقص » . ولم تجد سيدة فيما يراها شيئاً يسبب لها الحروف أو المدة فكان السباب يهبط مورعاً على أهل البيت كأنه منابت طيبة لم يكن لها تدبيل . وكان العرس والعدد تعبيرات عن انفعالات مؤقتة . لا تسبب ألماً . للواقعة عليه .. أكثر مما تسبب تعجباً لانفعال الواقعة منه .

المهم أن سيدة باتت تشعر أنها جزء من هذا البيت الذى تعيش فيه .. تشارك فيه كل مشاعرهم وانفعالاتهم . حتى هذا العمل الذى كانت تمارسه في حديتهم .. كانت تؤدبه بالمشاركة مع أهل البيت . كانت الأم والامة تقومان بتسييرى نظافة البيت وترتيبه .. وكان الابن يشارك في أداء ما يحتاج أدائه إلى قوة كتميع الأبهة . أو نقل الأثاث الثقيل . أو الخروج لشراء بعض اشترىات عندما تكون سيدة مشغولة بالفضيل . ولقد مررت الأيام الأولى بسيدة .. وإحساس العربة بملئها . من المكان . وأهله .. ولكنها لم تلبث حتى ألقت كل شيء . واستراحت إلى كل شيء وعرفت كل شيء .. عرفت أن الأب « سى محمد » كان تسميه الأم .. أو « بابا » كما يسميه الابن والامة ، أو الأستاذ كما يسميه الروار . أو سيدى كما تسميه هى . يعمل في الجرنان . ولم تعرف في أول الأمر . ماذا يقصدون بأنه يعمل في الجرنان . ولكنها عرفت مع الأيام أنه يكتب أشياء تطبع على هذه الأوراق الكثيرة في مطبعة كطبعة برعى . وكان يحضرها كل أسبوع ويسمها « لخدى » ليقطع بها إحدى الصفحات ويضعها فوق غيرها من الصفحات المرصوفة في دواليب كتب الموضوع في حجرة الخوص . والتي وصفت الكتب ذات الأحجام الخدعة على رفوفه . وكاتب ترى سى محمد وهو يؤلف في بعض الأحيان . عندما يجلس ليحط حروفه كثيرة على الورق ثم يطويها في النهاية ويذهب بها إلى الجرنان ليطبعوها على الصفحات . وقد رأته مرة صورته على إحدى هذه الصفحات عندما كانت تدعى الزجاج بورق الجرنان . وقالت لسيدتي فرحة وهى تشر الصبيحة في يدها — شاهدة يا ست . صورة سيدى .

وصريت الست بكفها على صدرها قائلة في جرح :

— يا حوستى .. من أين أخذت هذا الجرنك ؟

— من المطبخ .

— من الذى وضعه هناك ؟

— كان موجود مع غيره من الجرائد

— طيب هاتى .. لحسن سيدك يدهول أمنا .

وتاولت مها الجرنان لتضعه في دولاب الكتب في حذر كأنها تصنع شيئا ثميا
تخشى عليه .

و لم يكن هناك شك في أن سى محمد هو وأشيائه .. أقيم ما في البيت .

و كان يقدر ما يعمل له حساب .. يقدر ما يعمل هو حسابا لربة البيت فهو
ناعمها وبشاشها .

كان سى محمد رجلا .. ليس كبقية الرجال .. ليس كأبيها . أو كبير عى أو
أى رجل من هؤلاء الذين تعرفهم .. قد يكون خليطا منهم جميعا .. ولكنه في
مجموعة . سيج وحده طويل عربى أحمر الوجه أنفه يلمع
بأخذه . كأنه مضارع أو ملاك . ويرى كل صباح عارى الحسد مبهكا في
رفع دراعيه بالأتقال الحديدية .. ثم يسيهما ويهردهما بالسلك دى اليايات ..
و كأنه مكلف مهمة خطيرة لا بد أن يؤدبها .

وتنادى الست فاطمة ابنتها متسائلة :

— أبو كى فين يا مبيحة ؟

— يذهب يا ماما

وتمر به فاطمة وهي تغمض بشتيا في أسى قائلة .

— كفاية بقى .. عليك من ده بايه ؟

ولا يسأل فيها سى محمد ويستمر في ألمه . وعندما يتنى منها يطلق من
حجرته إلى الحمام عاريا .. وتصبح الست فاطمة في جرح :

— يا فصيحى .

وتسرع لتعلق الثواخذ المفتوحة وهي تصبح بسيدة

— اتقل شباك الصالة يا سيدة .. الجيران تقول علينا إيه .

ولا يلقى سى محمد بالا إليها ولا إلى الجيران بل يأخذ الدش البارد وهو يرفع
عقبرته بالفناء .

— يا نور العمون آتست ..

وعندما ينتهى من الدش يهرق الأيسطة وهو مازال يصيح معيا

— يا مانت واحشنى وروحى فيكى

والأم تصبح بمبيحة :

— الحقى أبو كى بالشكرك .. قبل ما يهرق البساط

وتخطف مبيحة الشكر وتعذو وراء أبيها وهي تصحك قائلة

— هو لسه حا يهرق البساط .. ده غرق الدنيا بخاها .

وتناول أبيها بالشكر قائلة :

— إيه يا بابا اللي انت عملته ده .

ويرد عليها الأب ببساطة .

— استعجبت .

— دانت غرقت الدنيا .

— دلوقت تشف

ويسمع صراخ الست فاطمة فيتسائل في دهشة :

— الوليدة أملك بتصرخ ليه ؟

— عشان خرجت من الحجرة عريان

— وجهها إيه ؟

— الجيران يشوهوك .

— ويشوهونى ليه ؟

— عشان الشبايك مفتوحة .

— شبايك مين ؟

— شبايكنا

— وهم ليه يهوا في شبايكنا ؟

ولا تعرف صحبة كيف ترد عليه فتحبه في حيرة :

— أنا عارفة بقي .. أهم يهوا ..

— يبقى عليهم يشوهوا ..

وقبل أن يملؤ الغاء يقول في إصرار :

— أنا حر في بيتي ..

هكذا كان سي محمد يهوى لعب الحديد والعماء والعري . والمراح .

وتسمية الناس بأسماء مستعارة ..

كان يسمى ابنته صبيحة بالشبيخة ريذة . وأمها بالسبت باصحة . وكان

يسمى حمدي ابنه بصبي الحضورحي . وسيدة بصبي العالة . وكان لا يعرف

أباه إلا بالمسبحاني .. وأخته سية بالملحة .

ولم تستطع سيدة أن تترك سببا هذه الأسماء كلها . ولكب استطاعت مع

الوقت أن تعرف بماذا يقصد منها .

وكان سي محمد الوحيد في البيت الذي ينظر بإذراك إلى هذه الامتلاجات و

جسمها . وعندما كانت تسير أمامه مهترجة كان يقول لها صاحكنا .

— لمي جنتك يا بنت .. محسارتك في الخدمة ..

وتهره الست فاطمة قائلة :

— إيه اللي بتقوله ده يا راجل ؟ .

— يقول كان ممكن أن يكون لما مستقبل في حرب العوالم ..

وتصبح فاطمة باهرة سيدة بقولها :

— موني على المطبخ .. شطبي الصحنون .

ثم تنظر إلى سي محمد صالحة :

— قلت لك سبت مرة . بطل هراي .. ما تفتحنش عين البيت .

— ما تخافيش . عمر عيبا ما تفتح طول ما قاعدة مع باس مجبولي ريكم .

واستطاعت سيدة أن تعرف مع الأيام أن السبت فاطمة تعاطف سي محمد في

الحساب . كانت تحاسبه على مصروف البيت مضاعفا .. وتحاسبه على أشياء لم

تشتري . لأنها كانت مصرة على أن تجمع الفرش الأبيض الذي يبيع في اليوم

الأسود . لأن سي محمد كان يؤمن بحكمة اصروف ما في الجيب بأنيك ما في

الجيب . بل لقد كان أحيانا يصرف ما في الجيب قبل أن يدخل الجيب

ولقد وقعت الست فاطمة في مطب مصححت عندما أرسل لها الجند أو سيدي

الكبير كما كانت تسميه سيدة . لثافة من حانوته الكائن في العورة مع أحد

النسبة . وظلت الست فاطمة أن ما بالمعافاة هدية من الحاج عبد الرحيم كيفية

اغداها التي تعود أن يرسلها من آن لآخر . وكانت اللثافة تحوي خمس نوافات

وكبها به خيال وجور هند .

وتدخلت الست فاطمة ما ترسه الحاج في كشف حساب على أنها مشغرات

اشترتها . وهي وثقة أن الحاج عبد الرحيم لم يعود أن يسرد على ابنه ما يرسله من

هدايا بين آونة وأخرى .

وحس سي محمد يستمع إلى كشف الحساب ومن به اللوف والخيال وجور

هند وتساها . برابة .

— هل اشتريت لوف ؟

— أجل

— وخيار ؟

— أجل . وجور هند أيضا . ألا تصدق ؟

ثم استدارت تنادي سيدة

— سيدة .. هاتي جور الهند والخيار واللوف وورجهم لسيدك .

وأحضرت سيدة الفاتمة ووصحتها أمام سى محمد .

وسألت الست فاطمة في تحد :

— رأيت .. وصدقت ؟

— عجيبة !

— ما هي هذه العجيبة ؟

— مصادفة عجيبة

— ماذا تقصد ؟

وابتسم سى محمد وقال ببساطة :

— لأنى اشتريت لكم لوف وجور هد وخيار . وتركت في دكان أبى لكى

برسله إليك .. ولكن يبدو أبى أشعر بمك في الشراء لأنى اشتريتها بصفتي الشمس .

ونظرت ست فاطمة إليه بغیظ وهي تقول :

— وهو لما انت الى شاربها . لماذا تركتى أروى لك كل هذا الكذب ؟ .

— مجرد تسليية

— أصبتك فاضى .. على الصوم أنا دخلتها في الحساب .

— كان !! . بصى اشتريتها وأدفع لك عنها .. مصاعب . هذا بصى .

نصب

— نصب .. نصب .. دخلوا الحساب وخلاص .

— يا ولية بطل .

— أمو متحوش لولادك .. محدش عارف الدنيا .

وهكذا كانت ست فاطمة تعامل سى محمد تحاول أن تسحود على أكبر

قدر من تقوده قبل أن يصيغها . وكان هو يعاملها بالمثل يحجر عنها أقصى ما

يستطيع حيزه مما لا تعرفه من موارده .

واكتشفت سيدة الأمر عندما وجدت حمدي . يقبل على أبيه فرحاً وقد أسلكت

بإحدى الجيلات وهو يصيح :

— بابا .. قرطك قصة في مجلة الأسبوع

وكانت الأسرة تجلس قبل المغرب في حجرة الخلوس التي تمضي إلى السلم

الخارجي المتصل بالعناء الذي تعطى التوتة مدخله وكان الشتاء قد أقبل وأوراق

التوتة قد أحدثت تساقط وريح عفيفة تعيث بالأوراق المتساقطة في العناء والأب

قد ارتدى ملابسه ودفع قدمه بالتياسة في الحناء ووقف مستعداً للخروج لقضاء

سهرته المتأداة خارج البيت .

وأرغعت الأم سمعها إلى قول حمدي وهي توقف الإبرة التي ترتق بها أحد

الجوارب في انتظار رد الأب .

وكانت سميحة تجلس بخوار أمها على الكرلوفية وجلست أمامها سيدة

تشاركان في تنقية الأرز .

وهم الأب بالخروج متحاهلاً قول حمدي ، ولكن الأم تساءلت :

— مجلة إيه ؟

ورد حمدي بهرابة :

— الأسبوع .

وحادت الأم لتسأل :

— منذ متى تكتب في الأسبوع ؟

وتسأل الأب مستكراً :

— أسبوع !!

ورد حمدي دون أن يفهم سبب استكثار الأب :

— لقد اشتريتها . إنها موجودة عدى .. لقد قرأت القصة .. إنها قصة .

— لا بد أنها قصة قديمة مشروها ..

— بل جديدة .. إننى لم أقرأها من قبل ..

وبحزم وإصرار . انطلقت الأم إلى هدفها الرئيسي من كل ما سمعته قائلة

بختصار .

— أين حسابها ؟

— أي حساب ؟

— حساب القصة التي نشرت في المجلة .

— لا أعرف عنها شيئا . لا بد أنهم بشروها دون أن أعرف .

— كيف ؟

— نقلوها من القصص التي نشرت من قبل .

— ولكن حمدي يقول إنها جديدة !

— حمدي حمار ..

وأحسن حمدي بما فعله من سوء تفاهم . وكان يحب أباه ويكره أن يصابه
فأسرع يحاول استدراك ما فعل .

— أحم . أجل . لقد تذكرت الآن . لقد سبق أن قرأتها في البلاغ
الأسبوعي .

وأسرع الأب يغوي متعلقا بطوق الحياة الذي قدوم به حمدي بعد أن كاد
يمرقه .

— أم أقل لك إنها قديمة ..

وقلبت الأم نظرها بين الأب والابن قائلة :

— طيبا .. لن أقدر عليكما .. ولكن مسيري أعرف .

وصحلت الأب فقد كان واقفا أنها لن تستطيع أبدا أن تصبط هذه الموارد
الخافية .. لسبب بسيط . هو أنها لا تعرف القراءة .

وحرح الأب وحرح ورايه حمدي وسمعه سيدة وهي في طريقها إلى المطبخ
يهتف به في عيظ

— يا عبي . كنت ستودي بأبي داهية .

— لم أكن أعرف أنك تكتب في عيو البلاغ .

— وعرفت الآن ؟

— أجل .

— ليالك أن تدخل هذه المجلات البيت .. والإصاع المورد الذي يحطيه عن
سيطرة أمك

وهكذا كان سي محمد . يبحر بعض موارده بعيدا عن سلطان الست
فاطمة .. ليصرفها بحرية على شغوبه الخاصة .

ولقد أدركت سيدة أن هذه الشغوب الخاصة يمارسها في سهراته مد أن يخرج
بعد الظهر حتى يعود حوالي منتصف الليل .

وقد عرفت أنه يشرب قليلا ..

عرفت هذا من أبيه الحاج عبد الرحيم نفسه عندما كانت تشكو إليه الست
فاطمة من ابنه محمد قائلة :

— أنا أعرف أنه مازال يشرب .

— لا . لا .. الآن لا يشرب إلا قليلا .. كاس عرغوت أو كوباك عندما يمر
على بار ضوئيه آخر السهرة .. وليس كل يوم ..

وعرفت أمها أن عيه فازعة .. على حد تعير الست فاطمة .. مما التفتحة
سيدة من حوار دار بينهما في غرفة اليوم . كاد ينقلب إلى مشادة .

لقد استطاعت سيدة أن تلتقط من الحوار قول فاطمة :

— بطل فراغة العين .. واعتقل ..

— أنا حر ..

— حر يعني إيه ؟

— يعني ما حدث له دعوة في .

و لم تعرف ما دار بعد ذلك فقد نادتها سميحة لتحطيف الحمام . ولكنها سمعت
" الأصوات تتعالى في حنة .

و كانت سميحة محنوقا مسالما .. طيبا . تنزع من الصراع والمراك ..

وكانت أقرب أهل البيت إلى قلب سيدة .. وأكثرهم عظمتا عليها ولقد استقرت في البيت بعد حصولها على الابتدائية من مدرسة السيدة .. فقد وجدت أمها أن من الخير لها أن تمارس شغل البيت استعدادا للزواج . ولأنها على رأي أمها .. مهما تعلمت . فمضت معها إلى بيت الزوجة . وإذن فمن الخير أن تؤهل له .

وكانت سميحة تشارك سيدة في جميع أعمالها .. وعندما ينتهي عمل البيت تجلسها أمامها .. لكي تعلمها القراءة والكتابة .

وأقبلت سيدة في أول الأمر على التعلم كنوع من التسلية واللهو وكانت عندما يقبل الليل تجلس أمام سميحة التي تخط إلى الأرض ممسكة بالكتاب الذي حوى صوراً وخطوطاً

وتجلس الست عاطفة متشعبة بالخطاطة أو برنق الثياب . ويجلس حمدي أمام المنصدة الصغيرة يقرأ إحدى القصص .

وتبدأ عملية التعليم ألف وحنة آ ب وحنة با إلخ .

وبدت المسألة نسبية سهلة في أول الأمر ولكنها أهدت تتعدد مع الأيام .. ووجدت أن عليها أن تقرأ كميات مركبة من عدة حروف .. عليها أن تطلق كل حرف بما عليه من شكل ثم تنصفه بالحرف الآخر وتطلق وتصح وتصح وهي تنظر إلى الحرف والشكل في جرع .. دون أن تعرف ماذا تطلق

وتصبح سميحة في صفيق

— ليس هكذا يا سيدة . هذه ب مفتوحة يعني يا .. أليس كذلك ؟

— أجل .

— قولي إذن يا ..

— يا ..

— وهذه سين مفتوحة يعني يا .. قولي يا ..

— يا ..

— وهذه ط مفتوحة .. يعني ط .. انظري الكلمة كلها إذن .

وتنظر سيدة إلى الكلمة في حيرة وفرباك .

ويكون حمدي أكثر تنبها للدرس سيدة مه لما يقرأ . وعندما يرى صمت سيدة وارتباكها يصيح بها ويلفت إليها صائحا :

— قولي يا بت . بسط .

وتنظر إليه سيدة عاتمة وتقول :

— بسط .

ثم يتناول الكتاب ويأخذ في تلقينها حرفا حرفا . وعندما ينتهي يسألها أن تطلق الكلمة ولكنها تنظر إلى الكلمة في جرع دون أن تعرف ما هي .. حتى يهد هو بطقها كاملة فتطلقها وراءه .

وهبط حمدي على الأرض بجوارها وهو مبهتم في تلقينها حرفا وراء حرف والتصقت ركبته بركبتها .

وتملكها إحساس متع وهي تجده يجلس بجوارها .. وتشعر بحده بين جسمها ..

هذا الخلق . له قيمة أخرى في نعلك يا سيدة .

عد أن التفت به عبد البقال . وسمعت صوته ورأته شكله . أحسبت أنه مخلوق مغرب إليك . أكثر من غيره من المخلوقات .. وتمت وهو يسير بجوارك إلى البيت .. أن يعجبك فيك شيء . ولكنه بدا وكأن شيئا فيك بما يعني الناس لا يعبه . لقد فعل لك ما فعل بحكم طبعه لا بحكم خاص لك في نفسه . ولو كان عورك في مكانك لعمل له ما فعل .. ولم تأسي للأمر يا سيدة وقدك . ولكنك حاولت مع الأيام وأنت تستقرين في بيتهم أن تفعل ما يرضيه .. كنت تجهزين له كل ما يريد .. بل كنت تعرفين ما يريد قبل أن يريه .

وكانت لأشباهه مكانة خاصة في نفسك .. عبيته . وحملاته .. وفراشه ..

ولقد وصي عنك .. ما في ذلك شك .. ولكنه رضاء القدر لخدمة ..

العزوف بجميل .. ولكنه لم يحدث أبدا تقدير الذاتك .

عجيب . هذا الخلق ..

لماذا لا يرى فيها شيئا يعجبه ..

أبوه معه .. قد نمت في عييه أحيانا . هذه النظرات التي تحترق الشباب

لتبحث في شعب عما وراءها .

أما هو . فلا ..

إياها تحس بشار ثقل يحول بيننا وبينه

ألا أنه سيد .. وهي خادمة ؟

ولكن أياها سيد أيضا .. بل سيد أكثر منه ..

وهو لطيف رقيق .. وهو أقرب الناس إلى أبيه . إنه يستمع إلى الجراموفون

دى الصغير الكبير . وهو يمس أحيانا مع أبيه « يا مانت واحشى » .. ويستمع

معه إلى « يا قلبى مالك » ولكنه لا يملك جرأة أبيه ..

ولكن أرى المرأة هي التي تحول بيننا وبينه ؟ ..

لا .. إنها لا تشعر بأن لها شيئا في نظره يحتاج إلى جرأة لأخذه .

إياها في نظره مجرد خادمة مخوفة بائسة استخفت معاونته .. وهي الآن

تبدل ما في وسعها لخدمته .. وهي تستحق من العطف الذى يبذله للناس

بطبيعته .. والعطف الذى تستحقه لأنها تؤدى له خدمة خاصة .

وأكثر من هذا لا تستحقه .

ولكن سيدة تسمى أن تستحق أكثر من هذا .

تسمى أن يحسها بعض ما يحسه لصفاء .. جارهم .. وصديقة أخته ..

حقاء مجبوبة !!!

ماذا بك حتى تمنحك .. ما تمنح لصفاء ؟

إن صفاء . سيدة . مثله .. رقيقة نظومة ليس بشبابها والخدمة جار ولا

بشعرها والخدمة بصل

أرى هذا ما يحول بينه وبينها ؟

ولكنه لا ينظر لكل الناس كما ينظر لصفاء

إنه يخصها بأشياء .. لا تمنح إلا لها .

السمة الرقيقة . والنظرة الهمهى التى تبدو وكأنها تستنى من وجهها في

مئة العطشان لا يرتوى حتى يرشف آخر قطرة . والكلمة الحلوة التى تخرج من

شفتيه وكأنها تصبها في حنان ..

هذه أشياء لم يمنحها حمدي لكل الناس .

وكل الناس ليسوا خدما . وليس بتابعهم حار . ولا لشعرهم الرائحة

البصل ..

هذه أشياء . تشعر أنها تمنى لو منحها له ..

شيئا في باطنها يدفعها إلى أن تخص بهذه الأشياء أحد الناس دون أن يسألها

إياها ..

مخلوق بذاته يميزه عن جميع البشر ..

لا يدري له .. ولكنها تقدم له من أمسا . ما لا يطلب . ولا يستطيع أن

يقدمه لغيره .. مهما بذلتا من جهد .

ونحن نجد معة في أن تمنحها إياه ..

وهي للأسف لا تعلم حتى معة المنح ..

إياها لا تستطيع أن تمنح إلا ما أعلنه لها الظروف .. وما حدده لها القدر .. أشياء

لا تعبر عما يفسها . ولكنها كل ما تعلمك .

مسح حذاء .. أو تسوية فراش . أو تجهيز طعام ..

وهي تفعل هذا للآخرين .. كما تفعله له .

أو هكذا تبدو .. عيسى هاشك ما يمر فعلها .. إلا ما في باطنها . إنها تعلمك

بمبادئه .. وكأنها تعلمك بشئ عثير . تلمعه في رفق .. وتصفه في رقة وحنان .

وهي ترتب له الفراش . وتضمنى لو مسحت رأسها في وسادته .. ولقد

عقلها مرة . خفية عن أهل البيت عندما كانت ترتب الحجرة وحدها .
وهو يجلس الآن بموارها ركبته في ركبته ويقرب منها حتى يكاد تشم أنفاسه
ويقول لها في حزم :

— قولى .. شى وضعه شا .

وأحدث تردد قوله محاولة مطلق كلمة فمس ولكنها في النهاية تطلقها سمس .
وعاد يقول لها متمسكا بالصبر :

— قولى فمس

— سمس .

— شا .

— شا .

— فمس .

— سمس .

وقذف بالكتاب على طول درمعه قائلا وقد بعد صبره .

— مفيش فايدة .. حاتفضل طول عسرك حمارة ..

وهس إلى مكتبته وأنه تقول له في سخرية :

— ومرف وقتك للمذاكرة أحسن لك .. وداكر لك حاجة تعمك آخر السنة
أجل يا سيدة .. شيقين طول عسرك حمارة ..

صماء . بعد شك .. تستطيع أن تقول هذه الكلمة التي لا تعرفين كيف
تطلقها .

أنت من نوع آخر .. لا يستطيع حمدي أن يتحدث هذا الشيء الذى يسميه
والذى يحبه لصفاء ببساطة .

ولكن هل توجد في الحياة أنواع ؟

هل يولد هكذا . ومضى هكذا ؟

لا تظن .

فبعض الناس من الملوردى .. قد أضحووا شيئا آخر .

المعلم أنور مثلا . السباك . قد فتح حانوتا كبيرا في ميدان السيدة .
وأصبح أديبا . لاغيره أيضا عن نقية الأندلس . لقد ارتدى بدلة نظيفة وقبعتها
وكرافته . غاما كما يرتدى سى محمد .. لأنه أصبح معه نقود ..
التقود إذن يمكن أن تعبرها .

وتتقلنا من نوع .. إلى نوع .

نرى لو أن معها نقودا .. وليست ثيابا نظيفة .. هل تصبح من نوع آخر ؟
ولكنها ترتدى ثياب سميكة في بعض الأحيان . وتظل مع ذلك من نفس
النوع .

لا . لا . إنها ثياب قديمة . ليست محكمة على بدنها .. لم هي فوق ذلك
تضع على رأسها مدبيل بأوكة .

أترى لو ارتدت ثوبا جديدا .. وصعقت شعرها بعمر مدبيل رأس . هل
تصبح من نوع آخر ؟

لو أن معها نقودا تكفل لها كل ذلك . هل يمكن أن تتحول إلى ذلك النوع
الذى يحبه حمدي هذه الأشياء الحبية ؟

ولكنه لا يسمحها لكل النوع كما تعرف .

ثم إنه ليس معها نقود فلماذا كل هذا التعب ؟

ولكن هل التقود وحدها هي التي تغير نوعا ؟

اس الفاح رصوان . قد رأته في المعرى أديبا محرما . لأنه . دخل
المدرسة ، نجح .. وأصبح مفرسا ..

يمكن إذن بالفاح في المدرسة أن تتحول إلى نوع آخر .

ولكن حتى هذا الطريق معلق أمامها غاما .. فهي لا تملك أجر المدرسة .
ولا وقتها . ولا عقلها . فهي قد أبدت من العباء بحيث لا تستطيع أن تطلق
كلمة .. فمس . وهي عندما تحاول القراءة تقول كلاما غير مفهوم . ولقد
قالت لها سميحة وقد كملت من شرط التكرار والإعادة معها . وهي ما رالت

تردد كلاما لا معنى له مثل :

— يا كاما ما

— يا سيدة يا حبيبي . هذا الكلام . مكتوب ليهم . يعنى أن له معنى .. هل تمهين أنت معنى ما تقولين ؟
— لا ..

— إذن فأنت تقولين كلاما لا علاقة له بما هو مكتوب .

وعجز رأسها آخر الأمر قائلة :

« معيش فابدة » .

‘جل يا سيدة لا عائدة منك . ستظلين قابعة في هذا الورع الذى أنت منه .. لا بقوة ترصلك لأنك لا تملكين النقود .

ولا علم بمعك لأنك لا تملكين العقل .

أصبح عليها يا سيدة أن تحببى هذه الأشياء الجميلة في معسك .. لأنك تحسبن به لنوع .. لا يرقى إليه نوعك ؟

(١٣)

وردة ...

صباح يوم عاصف في أعقاب الشتاء .

والرييح يطرق الأبواب طرقات قاسية لا تم عليه والبراعم تتفتح فيها الأعصان لتلطمها كف ريح قاسية محمى بالأثرية . وكل مظاهر الربيع تنوارى في جرع أمام هبات ريح الحماسير .. التى تأفى أن تجر الصيف في أعقاب الشتاء طاروة سمات الربيع وأرهاره .. في عصف ريح محبوة مثقلة بالتراب عجب من كل ناحية وتصف بكل شيء .

وسيدة تقبل بأسلحة النظافة . المكينة والمنفضة والفرشاة . بعد أن تركت المياه تتدفق من صبور الحمام في الجردل

وكان يوم جمعة .. يوم تختلط فيه المواعيد وتضطرب فيه الأعمال الطبيعية المعتادة التى تعودت أن تقوم بها مع الست والست الصغيرة .. أى مع الأم وابنتها .

والأعمال اليومية المعتادة كانت تسير في حط مستقيم لا يسحرف .. ومواعيد دقيقة لا تتقدم ولا تتأخر .

كانت الست عاطمة أول من يستيقظ في البيت . وكانت تقبل على سيدة لتوقظها — إذا كانت لم تستيقظ من نلقاء نفسها — نادياها في صوت خميص . أو مبرها في رفق :

— سيدة . قومي يا سيدة . عاترين بحصر المطار . ووصب الصالة قبل ما يصحروا .

وتستيقظ سيدة في غير صيق . وتتمطى وتتأهب دون أن تشعر أن يد تم

عباس القاسية مستجيبها من شعرها لتصلبها وانقصة . بل كان أقصى ما ينتظرها من البيت فاطمة هو استعجائها في نوم بصوتها الخفيض الذى تأتى أن تزعج به أهل البيت وخصوصاً منى محمد :
— يا فاطمة سيدة اعلمي لك همة .

وتنهض سيدة بعد أن تتأهب وتتمطى لتناول السطبانة من المطبخ وتطلق بها إلى سيد البقال لتخلأها بالفول وتشتري بنية لوارم الفطار من حبة وريتون . وعندما تعود إلى البيت تجد أهل البيت قد استيقظوا . وتعرفوا في الحمام والحجرات . منى محمد يلهب بالحديد أو يقف تحت الدش .. وحمدى يصلى ويرتدى ملابسه ويجهز حقيبة للدرسة وسميحة تمهد لعملية النظافة أو تبدأها صلا والست فاطمة في المطبخ .

ويتناول حمدى إفطاره الذى لا يتغير . طبق فول بالزيت والليمون وزرع عيش كامل . ويهبط إلى المدرسة في حصة . ثم يجلس منى محمد لتناول الفطار بعد أن يرتدى ملابسه أو بعد أن يفسده ملابسه . فهو يحتاج إلى من يجهز له الحساء والشراب ويبيسه الحاككة . ويهزئ بها له . وقد تعود حمدى وسميحة أن يتبادلا مهمة إناس أبيهما .. الذى يعامله الجميع كأنه طفل العائلة المذلل المحبوب .

ولقد كان الرجل خليقاً بأن يحب . بكل ما فيه من بشاشة ومرح . ومبهضة . وصحت وعاء . وانطلاق بعمر أكثرات مظهر أو اعتبار لقوارقه .. في السن أو في المركز .

وهو صديق حمدى الصديق .. بين الاثنين أسرار كثيرة ومراح دائم .. وهو حبيب ابنته سميحة .. يحسها كل ما تطلب . ويحقق لها كل ما تريد .. وهى لا تحرص على شيء حرصها على راحته وعلمته .

وهو — رغم ما يقال عن عراقة عيه — وثيق الصلة بروحه . حريص على راحتها وعن سعادتها . مطيع لرعايتها .. وهى — رغم لومها الدائم له — تخرمه

وتحشاها وتصعه من البيت موضع السيادة .. بحيث يكاد يتحرك كل من في البيت في محيط خدمته ..

وعندما يتم ملابسه يجلس ليأكل . وهو يتخير الطعام . لا يمجعه الفول الذى يحضره من عند سيد البقال لأنه (يحصلون) ولا تمنحه الطعمية من أى بائع .. فهو يأكل الفول من أى طريقة أو من عبده والطعمية من الخوخى .. وفى الغداء يحب أن تكون اللحمة أو الفراخ غير (متينة) أو يمجعها ثم يتبقا . ويخرج بعد الفطار .. ثم يعود الساعة الثامنة ظهراً محملاً بالعاكشة وغيرها من المأكولات ..

وحلال ذلك تكون عملية النظافة على أشدها في الحجرات بواسطة سيدة وسميحة وست فاطمة التى تتغل بين الحجرات والمطبخ .

ولا تكاد تحمل الواحدة ظهراً حتى تكون الحجرات نظيفة معلقة . البلاط ممسوح . الأشرطة معروشة ومكوسة ورجاج البوائد ملطخ والشيش قد نصفت عنه الأتربة والطعام قد أعد ساخناً في الحلال .

كل ذلك في الأيام العادية ..

أما يوم الجمعة فكان شيئاً آخر .

عسى محمد في البيت . والنظافة محرمة في وجوده . فهى تمارس بهرطقة الخطف والتسلل .

ينقلوه في حجرة ويسلوه .. حتى يظفروا بالحجرة الأخرى .

يجلس مثلاً . للاستماع إلى الفوبوغراف . ويتولى حمدى تعبير الأسطوانات والإير . وعمل الفوبوغراف بتدوير اليد مع كل أسطوانة وعيه أن يجلس بعد ذلك بجوار أبيه لينازله الإعجاب بين (متع حباتك) ونغميلة رصد وبالشارف والطفاطيق وبعد الحميد التقصاف وسامى الشوا وسهلون والبروى وركى مراد وعبد الحى حلمى وعلى محمود وميرة المهدي .. وأحياناً بالولد (الذى يابى عليه حايقى حاجة) والذى اسمه عبد الوهاب .

وهكذا يعرض سى محمد المحيطه على نظام البيت . ولا يعود أحد يدرى متى يظف ماد . بل لا يعود أحد يدرى أى حجرة نظمت وسى محمد ينطلق متجولا في البيت يفعل ما يشاء أيها يشاء

ولم تكن سيدة تعرف وهي تحمل أدوات النظافة وتعلم الجردل استعدادا لتسبح بأى حجرة تبدأ . وأين ستأمر عملية النظافة فقد كان الأمر يتوقف .. على أين سيستقر سى محمد .

وهو الآن غير موجود في البيت . فهو لم يكذب مع من تمريضاته وبأخذ الدش البارد .. وتغسل صبحاته في أنحاء البيت تارة بالحاء وتارة بشم أحد أو يطلب شيء .. حتى أقبل على حمدي عاريا وهو يقول :

... يا لله يا

... إلى أين ؟

... عصر الفطار ..

... ولماذا لا تحضره سيدة ؟

... يا غبي .. نريد فطارا يؤكل ..

... مثل ماذا ؟

... هو مدمس .. بالريدة .

... عندما الريدة .. ورسل سيدة لإحصار العول من عند سيد البقال .

... الذي يبيعه لكم سيد .. حصص .. وليس هولا

... من أين إذن تريد أن تشتري العول ؟

... من عبدة في وهور الزمان .. ثم تذهب لشراء طعمية من الحلوجي .

وبدا التردد على وجه حمدي وقال .

... ولكن .

... نكس ماذا يا غبي ؟ ليس هناك في هذه الدنيا غير .. من أكلة قول من أنى

طريقة . وأكلة طعمية من الحلوجي .. وأكلة بيعة من الدهان .. و .. سهرة

مع صالح عبد الحى والقصاف . و .

وأكمل حمدي قوله الذى يحفظه عن ظهر قلب .

... وست حلوة

... يراحو .

ثم جذب حمدي من يده قائلا :

... يا لله .. هات السلطانية وياقه بيانا .

وأشار حمدي إلى جسد أبيه العارى الذى تتساقط منه المياه :

... تدعيت هكذا ؟

... سأكس حالا ..

وهكذا عاود الاثنان البيت يحمل حمدي سلطانية العول العارعة ويرتدى أبوه

ملابسه الكاملة بالطربوش على رأسه وقد وصع ذراعاه على كتف حمدي ..

واطلقا في طلب العول والطعمية .

وأقبلت سيدة على حجرة حمدي . وهي تشعر أنها مقبلة على يوم حافل بهذه

العواصف والراغيب التى تلثش الأم .. وتجعلها عصية .. وهي تتمتع بين آونة

وأخرى :

... البيت التردم .. يارب له كلمة بس ..

ويرداد بها الصيق عندما تذكر أن سى محمد .. باق في البيت .. أو على حد

قولا (ملثش البيت) وأنها لا تستطيع الحركة في البيت لمسارسة النظافة بحرية

ولم تكن الشيشة تقتصر بعد ذلك . على العواصف والأثرية . وبقاء سى

محمد في البيت . بل راد على هذا كله . أن الحاج عبد الرحيم أو سيدها

الكبير . سيحضر هو وألست سيدة ابنته التى تولى زوجها من ستين هكلمها

وبأولادها .. لتناول الفداء . وقضاء يوم الجمعة عندهم ..

يوم غير مقبول ..

ومع ذلك فهو مسرور . فسيده تحب الربطة واللثة . وسيدها الكبير

(نحن لا نزرع الشوك جـ ١)

رجل طيب وأمر ولسانه حلو وهو بعير شك — دغم كبيره — . رجل من أصحاب المعون المغارقة فهي شعر أن نظراته لا تختلف كثيرا عن هذه النظرات التي تتحسس جسدها في الطريق . نظرات الخصرى والبقال وندو جوى . ونظرات سى محمد أيضا ولكن سيدها الكبير . قد صبح نفسه بحق النس . أن يتحسس جسدها أحيانا بيده بالإصافة إلى نظراته وهو يربط ظهرها صاحبها :

— جسدك رى الناس يا بنت يا سيده . همه يوكلوكى ليه ؟ ..

ونجيه سيده في جدل صاحبك :

— من غير كم يا سيدي .

وعقب به صبيحة في خجل :

— ليه يا جدى ده ..

ويصحك الرجل الكبير ويهتف بها :

— قرى انتى كان .. ناعد لنا تحسية ..

— عجب يا جدى ما يصحش ..

وتصبح به سية ماهرة

— عجب يا بابا .. انت كبرت .

وسيدة تحب الست سية لأنها ثرثرة .. لا يدخل لسانها منها منذ أن عمل بالبيت حتى ترحل . وهي تتحدث عن جميع الناس وتقص تاريخهم وتاريخ ذريتهم .. وأصحابهم . لا يكاد يذكر اسم حتى تنطق في سرد كل حكايته كاملة . متروح من فلاة .. وأبوه كان يعمل كذا .. وحاله متروجة من فلان .. وأنسابهم عائلة فلان .. إلخ ..

وهي مخلوقة مريحة . توافق على كل أمر . وتصحب بكل شيء ..

ولولادها . حديجة الكبرى . وهي أكبر من حمدي . مخلوقة حبيبة الدم تحيد تقليد الناس . وعماد وهو صديق حمدي .. لا يكاد يصل حتى يتلو كل

منها إلى الآخر .. يقص عليه كل ما لا يعرفه من أخباره ..

يبقى بعد ذلك من عائلة الست سية . صبرى بابا كوتر .. وهي لا تريد على ثلاث سوات .. وكانت صديقة سيده . ولعبتها المفصلة . تكاد تحملها على كعبها منذ وصولها حتى رحيلها .

وهكذا أثبتت سيده على حجرة حمدي بانكسة والمقصية . وهي شعر في قرارة نفسها أن اليوم هيصة . وأن النظافة في البيت خسارة .. والعواصف كميكة بأن تردم ما كنسته . وسيدها محمد . وأبوه وأخته وأولادها . كليلون بأن يقلبوا كل ما رتبته رأسا على عقب .. وأهم من ذلك أن يكون التبعيض هو أهم ما يشغل بال الست فاطمة وإنما هو الطيبح .. الذى يجب أن تعد له لعداء حمامها وأخت زوجها .

وبدأت سيده العمل في حجرة حمدي .. فقد كانت للحجرة جدانية خاصة في نفسها ..

لم يكن يحسها . ألا بأه لها حمدي .. أو يحسها أحد تلك الأشياء التي يحسها صباء . قد كانت تعرف أن هذه أشياء قد حرمها بها القدر . على الأقل من حمدي بالذات ..

ولكن أبيا كان إحسانه ها . وإنما كان ما يحسها إياه .. وما يحرمها منه . فهي لا تعلم أن تقصى على هذه الرغبات الدمينة في نفسها والتي تحدد تصرفاتها معه . ما دامت لا تقدم على حاقة يمكن أن تجعلها محل لوم . أو على الأقل لا تقدم عليها علانية بحيث تجعلها موضع السخرية

إن لمحضرتة بكن ما بها موقفا خاصا في نفسها . فرائشه ومكبيه .. ورائحة ملايبه . إنها تستطيع أن تمس كل هذا ما طحيما كجزء من عملها .. حتى الثياب والوسادة تستطيع أن تقربا من أنفسها دون أن يلحظ أحد .. إنها تأتى أمرا إذا أو شيئا بكرة

وهي تستطيع أن تسعد بذلك .. دون لوم من أحد .. ودون أن توصع

موضع المدب .

من نعم الله عليا . أنا أحرار في مشاعرنا . نحارسها في باطننا .. كما نشاء ..
من يملك إسان على ظهر الأرض أن يمينا .. من أن يحب هذا المخلوق أو يكره
ذلك .

من يملك إسان أن يحجر على حريتنا في الحب أو الكراهية . هذه تصرفاتنا
الداخلية التي لا تصل إليها قدرة مخلوق . سوانا .. إن متصفا في حب مخلوق
ما .. لا يملك إسان معها بلعت قدرته أن يحاسبها عليها . أو يهانا عليها
يحمسني الشهاب يا سيدة واسمحي رأسك في الوسادة .. واستمتعي ما
شئت .. بكل ما يمكن من قدرة على الاستمتاع . تلك هي حريتك الكبرى ..
حرية الشعور .. والاستمتاع بالشعور .

وعصرت سيدة الوسادة بكفها ضربتين لتفصع عنها التراب ثم تحسنتها برفق
كأنها تحفرها . ثم دفنت رأسها فيها . وأعادتها إلى موضعها
وجدبت طرف الملامح لتشده على الفراش .. عندما دخلت السيدة تلقى نظرة
تفتش على الحجر وقد بدا عليها التحهم . وقالت آمرة .
— اقصي الشيش موزي الحجر .

— والمواء .

— قلت الشيش وليس الزجاج .

— حاصر .

وحصت سيدة الزجاج .. ثم مدت يدها لتدفع الشيش . وقبل أن تعلق
الزجاج هبت الريح تعصمت بكل ما في الحجر . وأطارت إحدى المجلات
وعصمت بأوراق أحد الكتب التي رصت فوق المكتب الصغير .

وقعرت سيدة تمسك بالهيلة تيمنها إلى المكتب . فقد كانت تعرف كيف
كان يهرج حمدي أن تعبت بكفيه أو بجملته .

ووضعت الهيلة مكانها وهمت بإغلاق الكتاب الذي عصمت الريح بأوراقه ..

ولكنها وجدت بقايا تطايرت من الصفحات كأنها ذات ورقة شجرة جامدة قدعت
الريح معظمها على الأرض فاحتفظت بتراب البساط .
وأمسكت سيدة بالكتاب تمنعه بين يديها لترع بقايا العتات فوق المصعدة
لتنكسها .

وأحسب يوقع أقدام تدخل العرفة وسمعت حمدي يصيح بها .

— ماذا تفعلين ؟

وأسرعت سيدة تدافع عن نفسها قائلة :

— والله العظيم .. المواء .. أظاها .. أنا لم أمسك بها إلا لأفحصها من التراب
بعد أن هب عليها من الباردة . فأغار الهبة .. وهز أوراق الكتاب
واقترب حمدي وقد بدا على وجهه الجرع كأن كارثة حدثت .
— هز أوراق الكتاب .

— أجل والله العظيم .

ومد يده فأمسك بقايا العتات المجرودة على المنصلة وهتف في أنسى

— والوردة ؟

وتسلمت سيدة في دهشة :

— وردة ؟

— أجل الوردة التي كانت في الكتاب .

— أكانت هذه التفتحت الجالقة وردة ؟

— أجل ..

وحضت سيدة في فرحة .

— إذن أنزل إلى الحديقة وأحضر لك وردة حالا .

ونظر إليها حمدي في بأس ورؤ وهو يفر عيضا :

— تحضرين إلي وردة .

— أجل .. حالا .. لا تضايق نفسك أبدا .

— أنت تحصرين إلى وردة .

— حالا .

وهبت بأن تطلق إلى الحديقة .. ولكنه صاح بها :

— تعالي ها ..

وأردف وهو يهرس وجهها في عيظ :

— عيبة .

— لماذا يا مسمى حمدي ؟ ..

وأمسك بالفتات التي تبقت على المشقة في رفق شديد وقد بدا عليه الألم

وعادت سيدة تقول في استعطاف :

— سأحضر لك وردة جميلة حراء .. رأيتها أسى في أنفسي الحديقة

وهو حمدي رأسه في بأس وأجاسا في صوت خفيض .

— لا أرده شيئا .. شوفي شغلك .

ورفع بقايا الفتات من كفه إلى أنه وأخذ شبيها طويلا ثم أعاد الفتات إلى

صفحات الكتاب وأعلفه برفق وقد بدا عليه الحزن .

ونظمت سيدة الأسى وهي تشر أنها سبت حمدي هذا الإحساس بالخرق .

دون أن تفلح أسباب إرضائه .

لم تكن تعرف أن هذه الفتات الخافتة التي عصفت بها الريح .. وردة .

وعندما أدركت أنها وردة وهبت بأن تطلق لتحضر من الحديقة غيرها . لم

تكن تعرف أن الوردة التي درتها الريح .. لم تكن وردة أي وردة

وعندما سأها في استنكار (أنت تحصرين إلى وردة ؟) لم تعرف في أول

الأمر ماذا استنكر منها أن تحضر له وردة بدل الوردة الصالحة

ولكها عرفت بعد ذلك ..

في نفس مساء .. لم يعمس جعبا إلا وقد أدركت . ماذا كانت الوردة .

وما يمكن أن تعنيه .. وردة ما .. لإنسان ما ..

مر اليوم كامر غيره من أيام الجمعة .

أكل سي محمد عول بالريسة .. وطعمية أبو طريفة . ورفع عفوره بالعاء .

وانطلق في أرجاء البيت . بحيث فيه صدأ .. أو كما قالت ست عاطمة (بلوش

البيت) قرأ وكتب . واستمع إلى القوم عراف . وألقى نكسا ..

وسحر من الست عاطمة ثم ارتدى ملبسه بعد ذلك . وخرج

وحضر سيدها الكبير مثاقلا في مشيته، يتكئ عن عصاه ويرتدى احبة

واللقططان والطربوش ومعه ابنة سية وأولادها الثلاثة .. ودخلت سية المطبخ

تساعد عاطمة وتبال عليها بأخبار العالم كله ثلاثة طلقت وعلانة تزوجت ..

وعلان مات .. إلخ ..

وجلست خديجة مع صبيحة .. تتبادلان الأخبار وتشاعلان ببعض مهام

البيت .. وحلا حمدي يصاحبه عماد يتحدثان عن الدروس والسياسة والكرة .

ويرددان أعاقى عبد الوهاب (كلما تحب القمر) و (خائف أقول الخ في

قلبي) .

وعندما حل وقت العشاء . نصبت المائدة حافلة بالنعنة والكوارع وحمة

الرأس . وكل ما حشدته عاطمة مما طبخته وما أحضره لها الخاج عبد الرحيم .

ولفعت سيدة كوثر على كتفها . ثم جلست تطعمها . وتصحكها

وهذا الجميع بعد العشاء . اللهم إلا سية فقد استمرت لثرتها .. إذا لم تكن

قد ألزمت كل ما في جعبتها من أخبار .

وقبيل المغرب رحل الخاج عبد الرحيم وابنته وأولادها .

وسكت الريح . وانقشع الغبار والسحاب الذي كان يحجب وجه

الشمس . وتسلفت أشعنا الأرجوانية تلقى نجمة وداع خاطمة قبل أن تنوارى في

الأفق .

وجلس حمدي في حجرته يقلب الكتاب الذي حوى ذات الوردة الجمافة ثم

فتح النافذة فضلت منها أشعة الشمس المابطة تنترش أرض العرقة وهبت

سمة تعبت بأوراق شجرة الشمس التي احتلقت بالزهور البيضاء . وتطلع حمدي إلى نافذة في الدور العلوي من الجناح الآخر من البيت الذي يمسكه عن جناح بيتهم المزدحم الزجاج الملون ..
وبدا يصبر مشدودا إلى النافذة .. كأنه ينتظر من وراءها شيئا .. ومر القوت به وهو في وقفته الصامتة المترتبة .. وأشعة الشمس تفرط من فوق البسط .. والصوت خلفت رويدا رويدا ..

وأطلق حمدي زهرة أسى وهم بأشرك النافذة عندما سمع شيش النافذة المقابلة يفتح ثم أبصر بشيخ يقف وراء النافذة ثم يرفع يده ملوحا في رقة .

وخرجت أسارير حمدي . ورفع يده برد التحية .. ثم أشار بيده إلى أسفل .
وهو الشبح رأسه متسائلا . فنهف حمدي :

— ألي تروى سمحة ؟

وردت صماء :

— الوقت تأخر .. سأزورها عدا بعد أن أعود من المدرسة .

— لماذا لا تزورها اليوم ؟

وترددت صفاه برهة :

فعاد حمدي يقول في إلحاح :

— إنها متعبة

— حقيقة ؟

— أجل

— إذن سأحبر بية وآتي إليها حالا .

ورأت سيدة المشهد وسمعت إخبار . وكانت تعرف أن سمحة غير متعبة . ولم تعرف كيف سيدبر حمدي الأمر مع سمحة .. ولكنها لم تلبث أن وجدته يسرع إلى أخته ويشير إليها لكي تخرج إلى الصالة ليسر إليها عما يريد بعيدا عن أمه .

ووقف حمدي يمسح لسمحة :

— صفاء ستوروك

— حتى ؟

— الآن

— كيف عرفت ؟

— أنا الذي دعوتها ؟

— كيف ؟

— قلت غايلك مرعبة .. فقالت إنها مستأذن من أمها وتحضر .

وصحكت سمحة وقالت في غيث :

— إذا سأرتك في حجرة اليوم بيجور مانا . وسأدعها تجلس معاك .

وأمسك حمدي بذراع أخته وقال في عجلة :

— ليس هنا وقت مراح .. عندما نحضر حديها إلى حجرة الجيوس .. وسأتي

لجلوس معكما .

ودق الحرس . وانطلقت سيدة لتفتح وبكى حمدي جرها من يدها قائلا .

— عليكى اتنى .. أنا سأفتح .

وأقبلت صماء ومد حمدي يده لمسك بكفها وهو يبتلع من قلبه .

— أهلا .. صفاء .

ووقفت صماء تنظر إلى عينيها في انشامة رقيقة ويمتص به :

— أهلا حمدي

— صحت ألا أراك اليوم في النافذة . وملأ قلبي الجرع وأنا أرى الشمس

تنهب وياقظك ما رالت معلقة .

— كان الجو عاصفا وخفت ألا تكون في النافذة

— كيف .. أترى عصف الرياح يحول بيني وبينك ؟

وشدت صعاء على يده وابسمت ابسامها الرقيقة .

وسمع صوت الأم من الداخل تهتف :

— من يا سيده ؟

وهفت سيده تقول

— متى صعاء

— دعها تفصل .

وحس حمدي لصعاء

— ادخل سلمى على بيته . إنها ترتاح في غرفة اليوم

— وأين سميحة .. أهي حقا مريضة ؟

— كلا . لقد كان يجب أن أراك لأنه حدث اليوم ما بهتسى على

التشاؤم ..

وبدا المزج على وجه صعاء وهي تتسائل :

— ماذا حدث ؟

وأقبلت سميحة تحيي صعاء قائلة .

— أهلا صعاء .

— سلامتك يا سميحة .. أخبرني حمدي أنك متعبة .

— نعم قليلا في الصباح ولكني الآن أحسن .

— الحمد لله .

— تعالى سلمى على بيته لولا .

وظفرت صعاء إلى حمدي في جرع وهي تميز رأسه متسائلة .

ورد حمدي هائسا .

— سأحكي لك بعدئذ .

وسمع صوت الأم تنادي من الداخل :

— يا سميحة .

— حاصر يا نينة

وعبرت العتاتان الصالة إلى حجرة اليوم .. وأمضت صعاء برهة تحيي الأم

وتغيبها عن أسرتها عن أمها وعن أحوالها ثم عادت المحمرة مع سميحة إلى حجرة

الجلوس .

وجرى الحديث بين صعاء وسميحة عن التراب وتعب التنظيف وعن عمته

وأولادها وصعاء تطلع في قلق بين آونة وأخرى إلى حجرة حمدي .

وأقبل حمدي يسأل كتابها من ورق المصدة وتوقف متسائلا .

— أقرأت هذه القصة يا صعاء ؟

— أية قصة ؟

— قصة مدينتين .

وهزت صعاء رأسها بالنعم لم قالت :

— لقد قرأت لقاء صفحة التي كتبها عمي أخيرا .

— ما رأيك ؟

— أعجبتني جدا .. لقد أخبرتني سميحة أنك تكتب قصة .

— لقد كتبت عدة قصص . وقصيدة وموال .

— أين مستورها ؟

— ليست أطلى أستطيع بشرها في أي مكان سأصدرها بحملة خاصة أنا

— وأين ستطبعها ؟

— بطبعها ؟ أنت تحسبني الظن يا يا صعاء هل تطبخ أنا غلخت غي

الطبعة ؟

• — تطبخوها بالبالوظة

وقالت سميحة :

— أو الكريون .

— لا هذا ولا ذاك . سحرر بها سحرة نخط اليد . وسعها تحت أمر من
يريد قراءتها

وتسألت صفاء :

— لماذا ؟

— تتوقف على نوع القارىء . بعض القراء يمكن أن يدفعهم حتى يقرأوها .
وقالت سميحة صاحبة :

— أنا مستعدة أقرأها بشلن .

وسمع صوت الأم تنادى :

— سميحة .

وبعد سميحة متجهة إلى حجرة الأم وحلت الحجر إلا من صفاء
وحدى ، والترب حدى من صفاء .

وهضمت صفاء به فى لحظة :

— قل .. ماذا حدث مما جعلك تتشام ؟

— الوردة .

— ماها ؟

— عصمت الرخ بالكاتب الذى حطمتها بين أوراقي .

وانضمت صفاء فى رقة وهى تمسك يده بين يديها الصغيرتين .

— فقط .

— أنت لا تعرفين ماذا كانت نصي لدى .. كانت نصي أنت .. كنت

أنحسها كما أنحس بذلك الآن . لقد أحسست يد تحصر قلبي . وأنا أراها
تبتعد مع الرخ .

— ولكن أنا .. موجودة .

— أجل وستتقين موجودة دائما .

— إن الطريق أماما طويل .. طويل .

— ولكننا سنطويه معا .. يدا فى يد .

— وكفنا إلى كف .

— وقلنا . مع قلب .

— كل نجاح أحققه أحس به يقرمى مني . إلى أريد أن أكون أهلا لك .

أريد أن أقدم لك خير ما يمكن أن يقدمه إنسان .

— أنت تملك خير ما فى الحياة .

— سأصل من أحدث كل شيء . سأجابر كل صعب .

— أنا مملك على كل صعب .. لن أتركك أبدا .

وأصنعت سيدة من وراء باب الذهب إلى الخوار الدائب الذى يتنقل بين
الشعاع كأنه خفيف الورق لوز وشوشة الطير ..

هذا كلام عجب يا سيدة ! .

هذه العنقا النسخة العيس الرقيقة الخسدة ذات الشعر المسند على كتفيها تنبو
وهى تترك كتفيها بين كتفيه وتطلع إلى نظراته اللهي وهمس بوشوشاتها .. كأنها

شيء أكثر من آدمي .

إنها لا تملك امتلاء جسدها .. لا تملك الصبر والأرداف ولكنها تملك شيئا
أقوى من هذا

وبين الاثنين فى مساحتهما . شيء أمتع من كل ما اشيعته يا سيدة ..

أمتع من الطعام الشهوى .

والتياب الأنيقة

والنقود فى كفتك ..

أمتع من الراحة والنوم ..

والحرمان منه يا سيدة أليح .. أليح ..

لو أن كنتك هي التي تصم كفه . ولو أن وجهك هو الذي يتع بطراته
اللهمي .. ولو أن أذنيك هما اللتان تنطقان حديثه .. ولو أن شعيتك هما اللتان
تناحيانه

ولكن هل تستطيعين يا سيدة أن تقولى ما قالت ؟

لم . لا .

إنت تحسرين بكل ما تحس به . وأكثر منه

إنت لست على استعداد لأن تسيرى معه .. بهذا يد .. بل على استعداد لأن

تصيرى روحك في يده .

إنت لست معه على الصعب . ولكن فتاء كل صعب بلقاه . ومشقة

بصادفها ..

فقط لو أن لديك الفرصة ..

وسمعت وقع أقدام سمحة تعود من حجرة أمها .

وأمسكت صفاء كف حمدي تشد عليها فائلة :

— سأعطيك وردة أخرى .. عندما أعود إلى البيت .

ورفع حمدي يدها لمس بها شفتيه ..

وأقبلت سمحة تتسائل صاحكة .

— قرأت ها القصيدة ؟

وعلا الأحرار وجه صفاء .. وأجابت :

— وحفظتها .

وهضت متجهة إلى الباب وهي تردد فائلة :

— سأعود حتى لا تشعل نيرة على .

وبسرعة قال حمدي :

— سأوصلك .. قليل قد أتيل .. والقضاء مظلم .

ودفع حمدي إلى السهم بجوار صفاء وقد أمسك بكفها الصغيرة

ستطيه صفاء وردة أخرى .

ليصحبها بين صفحات الكتاب ..

وعندما رقدت سيدة على الحشية في حجرة الخلوس وشرذ بها الذه

أدركت ماذا يمكن أن تعيه وردة ما .. لإنسان ما ..

وأدركت . لماذا سألها حمدي في استنكار عندما أخبرته أنها ستحضر إليه

وردة أنت تحسرين إلى وردة ؟ .

وأحست بشيء يثقل قلبها ..

ولم تفلت أن تمنع عبرتين تترلقان ساعتين على صفحة وجهها .

عجبة هذه الدنيا يا سيدة !

لم ترق دميت الصمعات على وجهك .. والكلمات في ههرك

وأزرقته .. وردة .. عجزت هي مجرد إهدائها .

وعملية نظافة كاملة تجرى فيه .. والعبار بئار .. والمياه تتدفق .. والصباحات تتعالى .. والأثاث أكوام .. والبيت هيصه .. ما بعدها هيصه ..
ومنى محمد يتعثر في جرادل المياه .. ويسد أنفه العيار المتثار .. ويصبح بالست فاطمة ..

— إيه يا ولية التلى انتى عامله ده ؟

وهم صحبة بالرد شارحة :

— أصل يا بابا .. الشاردة الوقته ..

ونهب هيا الأم صالحة :

— شولى شغللك انتى .. مالكيش دعوة يه ..

ويصبح الأب مهتاجا .. وهو يسمح صربات المنفعة تفرع السحادة

المفرودة على حافة الشرفة :

— انتى المجنت ياولية ..

ويعتشى الساطة ترد الست فاطمة :

— جن لما يلحظلك

ويقترب منها وهو يررر أزرار القميص صالحا :

— قلبت الدنيا .. حرام عليكى ..

وترد الأم وهى ترفع الكرسي فوق المائدة :

— حرام على النطافة .. إلهى بملها لك ..

وبجيب الأب وهو يلطم ثيابه يحاول السجدة من آثار عمليات التنظيم ..

— البيت لا يطاق .. العيشة لا تحتمل .. سأخرج ولن أعود

وتواصل الأم عملها دون أن تنجيه .. وهى تعلم أنه سيعود في الظهر ..

يطلب العناء .. وقد سى كل تهديداته التى أطلقها في الصباح ..

وقبل أن يغادر الأب البيت تصبح به الأم منفرجة :

— اعمل حسابك .. ليس لدينا اليوم شيء للبقاء ..

(بحس لا مخرج للشوك جـ ١)

(١٤)

لا وقت للدموع ..

لحظات الإرهاف في موسا شعل برق تسطح لتربح ظلمة الكون من حونا ..

والدموع .. قطرات بدى تعمل شوائب الكدر من صدورنا

والكون .. ليس كله برقًا يمد الظلمة .. أو بدى يعمل الشوائب ..

والهياة .. ليست كلها إزهاقا .. وليست كلها دموعا ..

.. الحياة .. أحداث تدفعها رياح هوج تحمل أسباب الإرهاف والتبدل ..

والاهتمام والامسالة .. والإعجاب والسحرية .. والحزن والصمك .. في لحظة

تدفع إلينا بالمسبة وفي اللحظة الأخرى نهيبا عنها .. تسيل الدمع به .. ونجمعه

بالهبة التالية ..

ودمعة سيدة انتى تسيلها أمسية حربة .. في لحظات حس مرهف .. وبعض

تهدى إلى الكسمة الرقيقة والصمة الحاية .. بحمها صباح .. لا تترك رحمة الممل

فيه عرصة لدمعة تسيل أو بعض ترهف ..

صربات المنفعة على السحادة والفرشة تدعك البلاط .. والمياه تتدفق على

الأرض .. والأم تصبح بها تشهل .. والأب يصبح بالألم يسأل عن أورد القميص

وحبيبة تطوى الخشبات على السرير .. وحمدى يبرول بحقيقته نحو السلم صالحا

« أنا ماشى » ..

ووسط كل هذه الأصوات الشاعرة .. نعدو أصوات رهيبة .. بصباحات

محمودة متواصلة لا نصمت ولا نغير عما نريد .. ولكننا نتطلق في غير إرادة وبغير

تعير .. وجون أن نقول شيئا اللهم إلا .. لنسى .. دون أن نعى .. أن عدا ..

العبد عيد الأصحى ..

لا وقت للإحساس والدموع يا سيدة .. وليت مقلوب رأسا على عقب ..

ويستدير الأب مسائل في دهشة ، وكأنه سأل أنه لم يعود :

— لماذا ؟

— لأننا مشغولون بالتفصيل .

— وماذا سأكمل إذن ؟

— نعم سنبدر أى شيء . وكل أنت في الخارج . أو أحضر ما يجذبك

— سأحضر معي بسطومة ومرتلة

— أحضر ما تريد .

ويخرج الأب وقد عاوده الندوء .. وكأنه ما صرح . وما اعتاج .

وتستمر عملية النظافة على أشدها .. حتى ينتهي اليوم . ويبدأ الرحف على

الدرج الخارجى .. سيدة وقد فثرت جلبابها وربطت ذيله حول وسطها

ونعرت سيقانها وقد انحنت على حجر الدرج تحكه بالفرشاة وصحيحة تسكب لها

المياه باجر دل

ويفرش الرمل بالأصفر على درجات الدرج .. من كوم وصع في الحديقة ..

وتنفض الست فاطمة المصعداء . وهي تحس أنها قد أدت مهمتها التقليدية ..

استعدادا لاستقبال العيد

وتعوى موجة لأمل ل نفس سيدة موجة اليأس . وهي تشعر أنها قد باتت

جزءا من هذا البيت . بكل حساته وسباته .

ولا يعود إحساسها بالخمر من صلة ممية . تشعل نفسها . وهي تحس أنها

جزء من الكيان الكبير الذي بهضم الأسرة .. وأن صلتها العامة بها قد باتت وثيقة

بحيث يمكن أن نمسها عن هذه الصلة التي أبست الرغبة فيها اللهمة عليها إحساساتها

المرهقة النابعة من باطنها . والذي صاعق حديثا . إدراكها لقيمة النعمة ..

وهي ترى غيرها يمارسها .

وحرجت سيدة قبيل العشاء بعد أن انتهت عمية نظافة البيت وعرش الرمل

على الدرج وبعد أن اعتسل أهل البيت لتستفرى رباتي للأب .

وعبرت سيدة حوارى حبة ماميش حتى وصلت القبوة الموصلة إلى حارة

السيدة وصارت تسأل عن الريادى من حانوت إلى آخر حتى وصلت إلى نهاية

الحارة وبلغت شارع السد أمام جامع السيدة ..

وانتهت بمدة في شارع السد المزدحم وبدا الشارع مصيئا بالأتربة حول الجامع

وأمام دكاكين الجلالة .. ووقفت أمام حانوت على اللبان ولم تكلم تسأله .

— هل لك رباتى ؟

حتى أحست يد توضع على كتفها وصوت يسأله في دهشة :

— سيدة .

واستدارت لتجد أمامها عباس ..

وشهقت سيدة في جرع كأنها ترى عمرتها أمامها .

وهتف عباس في دهشة :

— يا بنت الرصصى . أين كنت طول هذه المدة ؟

وتلاحقت أمام سيدة وهي تشعر كأن طيرا كاسرا يوشك أن يشب بخاله

فيها وأجابته وهي تزدد ريقها :

— كنت أعمل

— أين ؟

— عند ناس .

— من هم ؟

— لماذا تريد أن تعرف ؟

— لنزورك . وتزورنا .

— مالوش لزور

— بخونك العيش والمخ يا سيدة .. لماذا هربت ؟

— لأنهم كانوا على وشك أن يذهبوا إلى إلى البوليس ..

— كيف ؟

— لأن الرجل صلبتي وأنا أحاول إعادة البقالة . وركزني أنت واحصيت .
 — ظنت أنك سترحبها بإسالة . وانتظرت أن تعودى إلى البيت فلم
 تعودى .. وقلت لعسى إنك طمعت فى البريزة .
 — ما عليا .. كل شيء انتهى ..
 — لقد جزع أبى عليك .
 — وأم عباس ..
 — قالت إن عيبك فحمت . ولم تعد منك فائدة .
 — وانتهى الأمر ؟
 — حاول أبى أن ينع البنويس . ولكن أمى سمته . المهم كيف أراك ؟
 — لا داعى ..
 — أم أم وحشك ؟
 — لا ..
 ونظر عباس إلى صدرها وإلى جسد هاى إعجاب وقال
 — ولكنك وحشنى .
 — كتر حورك
 — نظفت . وهدت عليك التهمة .. عند من تعصلين ؟
 — عند أناس طيبين .
 — من هم .
 — أسرة مستورة .
 — عندهم رجال طيبا
 — رجال طيبون .
 — ألا تعصيمهم ؟
 — ليس كما أعجبك ..
 — إذن ليسوا رجالا

— بل غير الرجال .
 — غيرهم أو شرهم .. المهم كيف أراك ؟
 — قلت لك لن تراقى ..
 ووضع عباس يده فى جيبه ثم شغل بما فيه قاللا :
 — معى نقود
 — اشبع بها ..
 — لست فى حاجة إلى نقود ؟ ..
 — لم أعد فى حاجة إلى شيء ..
 — استغنيت يا بنت الدلاخه .
 ومد يده فأمسك ذراعها . فجذبت نفسها بعيدا وهتعت فى حدة :
 — دع ذراعى .. وإلا أمت عليك الشارع .
 وتركها عباس وهو يمز رأسه مضطحا :
 — لا داعى .. المسألة لا تستحق .. فى وش الحركة الواحدة منك بشلى ..
 — إذن اذهب إلينى .
 — طيبا سأذهب .. ولكن لك يوم يا سيده .
 وغاب عباس فى رحام الشارع .. واستندارت سيده تكرر لباتع اللبس سؤلها
 الذى قطعها عباس :
 — عنك رهاى ؟
 — أجل .
 — هات سلطانتي .
 — ونظر إليها الرجل باسم . وهو يمر بعينه على جسد هاى .. صخبنا من
 صدرها إلى سابقها .
 ماذا فى جسدك يا سيده يجذب الرجال ؟
 هل يمكن أن يكون هذا الجسد بامتلائاته المميرة هو موهبتك فى

أحياء .. هو سينك إلى ما تريدن بها ؟ وسنك إلى الصعود بها ؟
جائر .

فهو يمر شئ جلاب ..

أفصح في شد أبصار الرجال كلهم . يمر مشاء . إلا هو . ولكن هل حقا
لا يجده جسدها ؟

ألم هو يترقب هنا ..

إب لم تر قط في عيبه هذه النظرة التي تراه في أعين الرجال ...

لأنه لا يحاول أن يتحصنها .. لا يحاول أن يعرف ما وراء الثياب .. وما
لأنه لا يتصوره .

تري لو أنه رآه مجردا يمر ثياب .. هل تبقى نظرتك إليها كما هي . نظرة
تجاهل لما تملك من مواهب .

ولكن لماذا تريد أن تجده . لماذا تذكره كلما رأيت نظرة رجل تخترق ثيابها .

لماذا تسأل نفسك دائما .. لو أنه هو ؟

ولكن هل ترى هذا هو ما تريد منه ..

ألم تراه كل ما تملكه له ..

وهل برصيا أن تمنحه إياه .. بدل هذه المشاعر الغائبة المرهقة ..

ولكن أليها أن تمنحها إياه .. أو تمنحها أي إنسان آخر ..

إذا كان الناس لا يرون بها إلا استلزمات الجسد فما قيمة ما تبطنه من مشاعر

وسارت سيدة الزبدي .. ونظرات المارة والباعة تسحق جسدها .

وعاودها الحين إلى تأكيد وجودها بمواهبها التي أقر بها الناس .. وأنكروا
وجودها إلا بها .

ووصلت إلى البيت .

لشجدة الأم مسترخية على الأريكة في حجرة الجلولوس والأب يمر جدي من
جحرته ليدبر له الموعود عراف ليسمع أسطوانة جديدة أحضرها لركي مراد

وبدا حمدي يدبر يد الموعود عراف ويصع الإبرة في مكابها . وبمذبرة علا
صوت الموعود عراف .

« سياتي سهام العين .. شوف قلبي يحبك هام » .

ووصلت سيدة الزبدي على المصنعة .. وانتهت إلى الدهليز المؤدى إلى
المطبخ والذي وضع فيه الدولاب الصغير . الذي تصع فيه سيدة ليانها ومسطها
ومرأة صغيرة أعطتها من صحبة .

وحلست سيدة أمام الدولاب وأخرجت الثوب الخدي الذي حاكته ها
الت فاطمة من أجل العيد والمذبل الذي أهدته لها صحبة . وعاودها
الإحساس بالارتياح والاستقرار ..

جميل أن يكون لك مكان خاص بمحاضاتك يا سيدة .. تصعين فيه قروشت ..
ومشطك ومرآتك ..

كانت تلك هي أمينك التي تنوون إليها في بيت أم عباس .

لماذا لا تصعين بها ؟ ولماذا تحاولين أن تقصرى إلى أماني أعسرى
مستعصية .

لماذا لا تضعين نفسك في موضعها .. فترين وتسترين ..

ولكن هل تملكين التحكم في أمانيك يا سيدة .

هذه الرغبة المثارة من باطنك في شيء بداته .. هل تملكين التحكم فيها ..
وتوجهها حين تشائين

على أية حال . انصبي يا سيدة بما تملكين . بما كان فيما مضى مجرد أماني

نحسني ثيابك .. ومشطك شعرك في المرأة . وصعي عليك بعض هذا
المطر الذي منحتك إياه صحبة .

فلعلك تصحيه .

مرة أخرى .. تدورين وتعودين إليه

أفعل ما تشائين من أجل نفسك . لا من أجل هذه الأمية المستعصية .

وسمعت صوت الأم يناديها :

— سيدة

— أيوه يا ست .

— تعالى .

وداهت سيدة إلى الست فاطمة . واقتربت منها مستظرة تعليماتها .

وقالت الأم في رقة

— اجلسي .

وجلست سيدة .

وعادت الأم تقول :

— مضت عنك مدة عندما يا سيدة . وأنت بنت حلال وأميرة وتستحقين

كل خير

ولم تعرف سيدة ماد ترصد الست فاطمة .. ولا عرفت بمادا ترد

واستطردت الست فاطمة تقول :

— وقد تجمع من مرتبك مبلغ طيب .. رأيت أن أشتري لك به هذا الخلق

الذهب .. وفي المستقبل عندما يتجمع لك مبلغ كاف سأشتري لك عوايش

ذهب .. اللؤلؤشات الذهب بنصفوك وقت الحاجة ..

وجذبت الست فاطمة لعافه بحورها وأخرجت منها حلقة ذهبيا ومدت به

يدها إلى سيدة قائلة :

— أنت ما ريت صغيرة .. ولا يعرف الفرء ما نغىء به الأهم . وعندما

ستزوجين . ولا بد أن يكون لديك شيء . والذهب يا سيدة مصون ..

وقيمته محفوظة دائما ..

وأمسكت سيدة بالخلق تتحسس في دهشة شديدة وهي تتسائل في شبه

همس :

— هذا في ؟

— أجل . عشرة شهور .. وصعت لك موقها أجرة الشهر القادم وهذه

ورقة حسابيا .. بها الوزن والتمن .

ولم تلق سيدة بالا إلى الورقة . همم يمكن للحساب بينهما . ولكن الخلق هو

الذي كان يبررها .

وعادت تتحسس في رفق وتتسائل :

— هل أستطيع أن ألبسه ؟

— طبعاً .

وأقبلت سميحة من الصالة باسمه الوجه وهدمت قائلة

— مبروك يا سيدة .

— الله يبارك فيكي يا ست سميحة .

واقتربت منها سميحة تساعدها على لبس الخلق قائلة :

— يا سلام يا سيدة .. مين فذلك ؟

ولم تعرف سيدة ماذا تقول .

أنصبت يا سيدة .. صاحبة خلق ذهب كأهم عباس ..

لم تعودى جرداء .. خالية .. بل أصبحت لدهك ثروة .. ملكك وحدك .

وغدا ستزوجين يا سيدة .. كما قالت الست فاطمة . وتصبحين زوجة ..

وصاحبة بيت .

أشياء لا تصدق يا سيدة .

ولكنها يمكن أن تحدث .. أو هي قد بدأت تحدث صلا .. أليس الذهب في

يدك . ألا تحكي هذا الخلق .. وغدا تملكين العوايش . وقد يتقدم إليك إسان

ما . ليحطبك ويقرأ ما تحب .. ويترجلك ويمسك الدار والأولاد ..

نرى كيف سيكون ؟

وحولت بصرها إلى حمدي وهو يدير يد الفونوغراف .

ولم تلبث أن أرغمت عيناها عنه .. وسرت نفسها عن التفكير فيه .

إذا كانت تسمي في أمانيها الغويا .. وإذا كانت تستطيع أن تأمل بعد الخلق
والعواشات الذهبية في زوج وبيت وأولاد .. بعد أن ظالت لها الست فاطمة وغدا
ستزوجين صيحب ألا تقفر بأمانيتها هذه القمرة الخمقاء .. والتي تجعل أمانيتها
تتردى في هوة الأوهام .

لا تجديه يا سيدي من أحلامك . هناك هناك .. هناك .. بعيدا ..
بعيدا .. بعد من أن يكون له صفة بواقعتك ..

وإذا كان لا بد من صلة هناك . على تكون أكثر من هذه الصلة الواضحة
القائمة على حيلة تؤديها . وعطف يحسه . أو الصلة الخفية .. القائمة .. على
إحساس يضويه اليأس في قلبها . لا يفتت منها إلا في مدة حذاء غمسه . أو شدة
وسادة ترتبها .

أما هؤلاء التي تجذب الرجال .. فهي أعجز من أن تترو ..
وهي لا تصيب سدا . فتسخرها نحوه أرق وأرفع من أن ترعى بأن تكون
هذه المؤهلات وسيلتها إليه

التي بواقعتك يا سيدي .. وتنتهي بأحلامك ولا تغطي الواقع بالأحلام .
حتى لا تتلقى الواقع وتهدى الأحلام .

وعادت سيدي تتحسس الخلق الذهبي في أذنها ..
واقع مرص . يا سيدي . يمكن أن يتطور في هدوء يصحك المرصد من
الرضاء .

ونظرت إليها الست فاطمة قائلة

— حدى بالك من يا سيدي . لا تخرجنى به إلى السوق .. فأولاد الحرام
كثيرون

وقبل أن تنتظر ردها قالت لزوجها عاتلة .

— يحضر العشاء ..

— عندكم إيه ؟

— جبة وزيتون ويضرب وريادي .

— متى ستبحون الحروف ؟

— في الفجر .

— ولماذا لا تدبحونه الآن . كان مصافى الكبد والكلاوى

— غدا سأطبخها لكم .

— ولماذا لا تأكلها الآن ؟

وهزت الأم رأسها في استسلام قائلة :

— الناس يدبون في العيد

— وهل ضروري أن تقبل كما يفعل الناس ؟

وتتمت الأم كلاما شامول أُن تسمى به الموضوع لم تسمع تفاعيله ولكنه بدا
كأنه أصحاب العقول في راحة .

ووجهت الحديث إلى سيدي قائلة باحتصار .

— حضري السفرة يا سيدي .

وانتهى العشاء وأوى أهل البيت إلى مضاجعهم ..

وبقى الأب يقرأ .. وحده يستذكر .

واستمرت سيدي تتحسس الخلق الذهبي في يدها حتى استغرقت في النوم .

ومع أول خيوط الفجر استيقظت سيدي على يد مبرها .

وجلست في فراشها تدعك عجبها . وصحمت صوتا يشف في الطريق جزير
لطيف .

وحضرت سيدي في فرح وهي تذكر أن خيوط الصوء التي تسلك من الباعدة
تؤدد يوم حامل . يبدأ بدمج الحروف .. والطهي .. ثم القس والخروج ..

وهي تنوي أن تزور أم عطوة وريب وصديقات الماوردى . فقد مصت مدة
طويلة لم تذهب إليهن . وستربن ملابسها الجديدة والفرط انتهى في أديها .

وأقبل الحرار في صحبة عم على البواب ولماذا الحروف إلى العاء الخميني

للحديقة . وتمت عملية الدبح والتعخ والضرب والمليخ والتوضيب ..
وكانت حيوط الشمس قد أخذت تتصاعد من الأفق . والأب قد استيقظ
بمدرس تفرجه الصباحي بالكلل الحديدية .. وبدأت رائحة الشواء تتصاعد
وذهبكت سيدة مع سميحة والست فاطمة في إعداد العطار من الكبش
والكلاوى .

وتجمعت الأسرة حول مائدة الإفطار . وجلست سيدة تناول نصيبها من
الطعام في المطبخ ثم بدأت بعد ذلك الإعداد للعشاء .
وقبل العصر كان العمل في البيت قد انتهى . وارتدت سيدة ثوبها الجديد
ومشطت شعرها ثم استأذنت الست فاطمة في الخروج للترهة .
وتساقطت الست فاطمة :

سأذهب إلى أين يا سيدة ؟

— سأذهب إلى الماوردى .. إلى بيتنا القديم .

— حاسبى على الخلق .. ولا تثنأى أخرى

— سأحضر قبل العروب .

وعادرت سيدة غناء البيت متجهة إلى سيدى الأرمحين حيث عبرت شارع
الخليج إلى الماوردى .

وعلى ناصية الحارة وجدت أم عطوة .. تجلس كما تعودت أن تجلس دائما وقد
وضعت بحوارها قصعة المول الثابت ومشة الفجل والخرجور وبحوارها القعص
الذى رصت فوقه قطع الحلوى .

ونظرت إليها أم عطوة في فرحة مريحة :

— أهلا وسهلا سيدة .. وحشيا .

— سلامات يا أم عطوة .. كيف حال عطوة ورب وبقة أهل الحارة ؟

— رب رب تزوجت ابى عمها الميكايكى .

وهضمت سيدة في دهشة :

— تزوجت .. متى ؟

— منذ شهر .. وسافرت مع زوجها إلى طنطا

— وعطوة ؟

— عطوة تركت عمل .. واشتغل في ورش غنار السكة الحديد

— لماذا ؟

— الأسطى أبور يأتى أن يريد أجره رعد أنه هو الذى يقوم بالعمل في المنزل
وحده .. ورغم أن ربما فتح عليه واغتني .

— وكيف حال أهل الحارة كلهم ؟

— عم بسى نميشى انت . والباقي كلهم كما هم . اجلسى يا سيدة
نمضى يا بنتى .

و . معرف سيدة أين تجلس . كانت فيما مضى تجلس على الأرض ببساطة ..
م تكن تخشى على ثيابها من الاتساخ . لأن ثوبها كان والأرض سوء

وترددت برهة . ولكن أم عطوة حدثتها من يدها قائلة ببساطة :

— اتقعدى يا سيدة . حدثينى عن أحوالك .. إن البصة تبدو عليك يا
سيدة .. ما هي أخبار أم عباس ؟

— تركتها من مدة .

— كيف ؟

— دقت بها المر ..

— وأين أنت الآن ؟

— عند ماس طيبين يقطون ها في حبة باميش .

وجلست سيدة بحوار أم عطوة .. وبدأت لها الحارة أضيق مما كانت ..
والقسامة براكمة أمام الدور . وكل شيء حولها يبدو قد ارتأى .

و لم تجد للمكان جاذبيته القديمة

و لم تجد باشتياء للحلوى المروحة على القعص

هل تعبر المكان يا سيدة . هل صاقت الحماره . وازدادت القفارة والزئاثه ؟
لا يا سيدة

المكان لم يتغير . والحماره لم تنصق
ولمما تعبرت أنت .

نظقت ثيابك . وتبدلت مقاييسك للمكان وللشجر .

تعودت عيبك .. على طرقات أوسع . وأمكنة أنظف وأتلات معدتك ..

فلم تعودى تلطعمى على بروت الخنزير وبراعيث السم .

و لم تظل جسدك سيدة بجوار أم عطوة .. وهبت تودعها قائلة :

— كتر غورك يا خاتنى أم عطوة .

ومدت أم عطوة يدها بقطعة من الحلوى وهي تحب قائلة :

— الله يعافيكى يا بنتى .. غدى هذه على ما قسم .

— كتر غورك يا خاتنى أم عطوة

وأحسنت سيدة أنها تود أن تمنح أم عطوة شيئا ولكنها كرهت أن تخرج

شعورها بإعطائها ثم الحلوى . صعدت يدها إلى العجل قائلة

— عايزة حزمين فجبل يا خاتنة .

— غدى ما تردين يا بنتى .

وأخذت سيدة حرمى العجل ووصعت يدها في جيبها وأمرحت قرشا من

العبيدة التى مسحها لىها أهل البيت .

وتساعلت أم عطوة في استكثار :

— ما الذى تعملينه يا سيدة ؟

— نحن للعجل يا خاتنى أم عطوة

— عيب يا سيدة عيب يا بنتى .

— لم يا خاتنة ؟ لقد أخذت ثمة من الدين أعمل عددهم ويجب عليك أن

تأخديه

— والبنى ما يستهلوا .. حول حزمين عجل .

— غدى يا خاتنى أم عطوة .. ده عرقت .

وأخذت أم عطوة القرش بعد تردد واستكثار . وسارت سيدة بعد أن ودعتها
متجهة إلى شارع الخليج ..

هذه الحماره يا سيدة .. لم تتغير .

وهؤلاء الناس الذين بقوا هيا لم يتغيروا .

أترى يتحتم علينا الكى يصبح أفضل .. أن نترك أماكننا ؟ .

ألا يمكن أن يصبح موطننا نفسه أفضل ؟ .

لماذا لا نجعل الطرقات أنظف .. والبيوت أنظف ؟

ولماذا عندما أصبح عى أنظف .. لابقى فيها وسظفها ؟ ..

كل من أصبح أفضل ترك الحماره ورحل . ولم يبق هيا إلا أولئك الذين
حدثت حياتهم هيا .. وأصبحوا يعقرهم حردا من فقرها . ويقذارهم جردا من

قذارها ..

ومع ذلك . ومع كل ما رآته هيا من زائلة .. وقادرة . ما زالت تحس

بالحين إليها . ونمت لو انطلقت تلعب الشحولة وتقرع الجبل مع أطعالمها .

وهي تحب أهلها .. إنهم طيبون .. يعاون بعضهم بعضا ..

وعبرت سيدى الأربعين وانجحت في طرقات جبية ماميش إلى البيت والشمس

على وشك الغروب ..

وعندما صعدت السلم تحت حمى يرقق في مائدته . وهت صفاة تقف في

نلقظها .. ووصل إلى مسامعها صوته يهتف ..

— كل سنة وأنت طيبة

وسمعت صفاء ترسل الرد ماعما كسمة صيف :

— وانت طيب . إن شاء الله السنة القادمة تكون حصلت على الكعابة

— وبعد ستين انتهيت من البكالوريا .

— وبعد أربع سبب انتهت من الجامعة .

وأحسنت سيدة بلهفة كل منهما على الآخر .

إيهما يتعجلان الرمي . ويدان تو ضويت السوات الست . لكي يصحبا أهلا للالتقاء .. وللزواج
أجل ما في الحياة أن تجد أن من تنلهف على لقاءه . أشد منك غمة على هذا اللقاء ..

وليس هناك من يذهب عندها يا سيدة أو يتعجل من أجلك الستين .

ومع ذلك الحياة جميلة . لا ضرورة لأن تأخذ لأنفسنا كل ما يأخذه الغير .. إنها أعدت منها بعض ما لم يأخذه أولئك الذين ما زالوا يقطعون في الماوردي ..

أعدت هذا الحلق الذهبي ، وأعدت اللقمة الطيبة والومة المريحة .. والمعاملة الكريمة .

ألا يكفينا هذا حتى نروح نتطلع إلى ما يأخذه العبر ؟

لو أن الإنسان استطاع أن يتبع شعوره بمنطقه . لاستراح

ولأحسنت سيدة بأنه يكفينا ما حصلت عليه .

ولكن مشاعره . ورجباتها غيبت من الباطن .. لا تنفتح بمحطق

إسار مره .. ليس لأن هذا ما يجب أن مره . أو لأنه ما يستطيع أن يأخذ . بل لأن شيئا أحرق في باطنها يمنع عليه في إصرار لا يقبل سطفا .. ولا يتبع بحكمة أو عقل ..

هذا هو ما يسموه الحب يا سيدة .

إحسان غير عاقل .. ولكنه موجود .. ولا حيلة لنا فيه .

ودخلت سيدة البيت . وتحركت بحور ليرة إلى حجرة حمدي .. لتفعل له شيئا أي شيء .

(١٥)

غمر التلامذة

بدأ موسم الامتحانات . وكان حمدي مقبلا على امتحان شهادة الكفاءة . وانقطع عن الذهاب إلى المدرسة للاستعداد . بعد أن انتهت الدراسة وبدأت امتحانات النقل

ولم يعد حمدي يتشاعل بلعب الكرة في الشارع أو السهر مع الرفاق في العفقات .

وبدأ سهرات الاستعداد مع صديقه صبحي ورفوف . وأعدت سيدة تؤدي مهمتها في معاونتهما على السهر بإعداد الشاي ، وتقديم العشاء . ولم يكن السهر كله استذكارا . كان جزء كبير منه يضيع في الدردشة والمزاح والمناقشات السياسية ، وشرب الشاي والطعام .

وكانت تجمع الأصدقاء الثلاثة صفة رصالة مرسية وثيقة . ولم يكن هناك تشبه بينهم . كان رفوف رعبيا يملأه الجسد صحو كما مهررا . وكان يقطن مع أحد أقاربه في حجرتين بخوار سيدي أبو الريش . وقد تعود صديقه احميدان بمجرد زيارته أن يقرأ هاتفي أسفل السرير العالي ذي الأعمدة الأربعة الخديبية السوداء . ويعرقان في قفص لندن والظلمة المثلثت والقشدة العلاجى

وكان صبحي طويل القامة قوى البنية . يجيد لعب الكرة . ويجيد العراك . ولم يكن يجيد استعمال دهنه قدر ما يجيد استعمال عضلاته التي كانت وسيلة الوحيدة لتفاهم .

وكانت الوالدة تعامل الاثنين كما تعامل حمدي ولكنها كانت أكثر إعجابا بأبيه . وكانا يؤكدان له أنه من الآباء القليلة . ليس له مثل . فقد كان يتعامل معهما وكأنهما صديقاه . وكان يتعجب لماذا كل هذا الوقت في (عن لامرغ الشوك)

الاستدكار قائلا : ماذا ستفعلون إذن في اللياس ؟

وكان الاثنان يهابان سميحة على طبيعتها .. ويتجنبان المراح أمامها عثية أن يبدوا من أحدهما ما يخلش سمعها .

ومن أجل هذا كانا يقصصان بكل مرارتهما على سيدة . الأنتى الوحيدة في البيت القابلة للمراح . وكان حمدي يهرما من أن لآخر قائلا :

— وبهذين يا ولاد الصرم .. اتلموا .

ويرفع رعوف حاجبه وينظر إلى سيدة متساللا :

— ما رأيك يا سيدة . تنزوجيني ؟

وتضحك سيدة قائلة :

— لما تشطر وتأخذ الشهادة يا سي رعوف .

ويبتف رعوف ضاحكا :

— بيت الداخنة . يعني هكذا .. لا أعجبت ؟ لا بد من الشهادة ؟

ويضحك صبحي قائلا :

— طبعاً .. اتسيفت .

وتعادر سيدة العرفة حامية برناد الشاي الفارغ . وتسمع صوت رعوف يلاحقها قائلا :

— والله بنت رى اللوز .. عليها صدر !

ويستدرله صبحي متساللا :

— صدر فقط ؟

ويصبح حمدي ناهرا :

— التلم ملك له .. يا فاجر

ويبدأ بعد ذلك النقاش في السياسة عن الإطهير والوفد والدستور .

ويقول رعوف :

— محسره . المداكرة ختمت على المظاهرات .

ويرد صبحي قائلا :

— عمال الصابر خرجوا أمس

— وماذا فعلوا ؟

— اصطعدوا بالبوليس عبد كوبرى أبو العلا بعد أن قذروا الترام

وحطموها وانبس الشارع كلها .

وقال حمدي في أسف :

— حسارة

وسأله صبحي :

— حسارة ماذا ؟

— الترام والعووبيس .

وقال صبحي في حماس :

— ليس هناك سبيل سوى هذا .

— لأجل ماذا ؟

— لأجل عودة الدستور

وقال حمدي

— ثم ماذا ؟

— يعود الوفد إلى الحكم .

— وبعد ذلك ؟

— يصبح كل شيء على ما يرام .

وتضحك رعوف ضحكة عالية قائلا

— حمار كبير

— لماذا ؟ إن الوفد هو يمثل الشعب .

— الشعب علبان يا صبحي .. أنت لا تعرف عنه شيئا . اسألى أبا عه و

بلندا .. في كفر مجور . لا تعرف ماذا يأكل . وماذا يشرب .. وأين يسكن

في حكم الوفد .. وفي حكم الأحرار .

ورد صبحي بقوله .

— يا مكل ما نجد عندك تحت السرير . مطير . قشطة . وسير .

— إنه يصمم ولا يأكله .. هذه أشياء يستمتع بها نحن . أما هو بما كان

التاو والسريس . ويشرب الماء المكر . ويام بخوار الجاموسة

وهز حمدي رأسه في أسى قائلا :

— محتاج إلى معجزة .. تدفعنا إلى ما يجب أن نعمله .

وأردف ريعوف :

— ومحتاج إلى عمر طويل .. من العمل الشاق الجلد ..

وعاد حمدي يهز رأسه في حيرة قائلا .

— أحسن كأننا نعيش في ضباب .. نحن لا نعرف ما نريد . وإنما نجرى مجرى

الجرى .. ونهتف لجرى الغفاب .

— يجب ألا .. أن نخرج الإنجليز .

وهتف صبحي :

— الوفد ينادي بإخراج الإنجليز .

وقال ريعوف :

— كان زمان . قبل أن يموت سعد .

— واليوم ؟

— تشمله أشياء كثيرة غير الإنجليز .. الدستور والحقكم ..

وهتف صبحي صاحكا :

— يحيا الوفد .

وقال ريعوف :

— كفى سياسة . نريد العشاء .

ورد حمدي

— تذاكر لولا .. لقد أمعيا ساعة دون أن نقرأ كلمة

وردد ريعوف في إصرار :

— العشاء لولا .

وصاح صبحي :

— أجل العشاء لولا ..

ومرت الليال بالثلاثة .. بين المذاكرة وشرب الشاي والعشاء والسياسة حتى

حل موعد الاجتماع .

وأحست سيدة بحمدى يستبسط قبيل القمر ليوضأ ويصل ويقرأ القرآن

وهتت من فراشها وهي تشعر برعبها في أن تعاونه دون أن تدري كيف ،

واقربت من باب الحجرة ووقفت به مترددة ونهها حمدي صاعدا في دهشة

— ما باللك يا سيدة ؟

— هل تريد شيئا ؟

— كتر غيورك يا سيدة ..

— أحضر لك القطار ؟

— ما زال الوقت مبكرا .

— أعمل شاي ؟

— متشكر .. مامي أنت

— ولكنك قد تريد شيئا .. أستطيع أن أقضيه لك

— سأذكر .. هل نستطيع أن نتذكرى لي ؟

وتهدت سيدة وقالت في حرارة :

— يا ريت يا سي حمدي .

وضحك حمدي قائلا :

— عندما آخذ الكمامة .. سأعصمك القراءة والكتابة حتى تتذكرى معي في

الجامعة

وهزت سيدة رأسها وأجابته :

— لا مائدة .. لقد حاولت ست صبيحة .. ولكن رأسي كالخجر .

— أنا أعرف كيف أعطسك .. وسأعطسك تقولين فيس .

واصمت سيدة وحاولت أن تقو لها ولكنها لم تملح ففالت :

— وماذا سمع يا ممي حمدي ..

ورد حمدي مستسلما :

— خلاص .. سمعنا سمع عشاق خاطرك .. روحني مامي بقي .

وكانت الشمس قد بدأت تنفي أشعتها الحمراء من الباعثة فقللت سيدة وهي

ترنو بصورها إلى الباعثة :

— ليس هناك وقت للنوم .. لقد طلعت .

— ما هي التي طلعت ؟

— التي ما تسماش .

وصحبت حمدي ثم اتفقت الكتاب جانباً وهي تتردى ملابسه قائلاً :

— إذن حصري الإفطار .

— أذهب لأشترى الفول ؟

— لا داعي .. حصري أي شيء ..

— أقبل لك بيضا ؟

— أقل .

— بالسطرمة ؟

— بأي حاجة .

ودعبت سيدة إلى المطبخ يملؤها إحساس بالرصاص .. وهتفت من قلبها : رصاص

بجحك .. ريتنا يا جند بيديك .

وعم أن هذه الدعوة .. تقربه من صعاء .. فهي لا تملك أن تمنعها عنه لأنها

تسمى الخبز .. له .. ولكل من يحبوه .

لقد باتت تشعر أن صعاء قريبة منها .. لأنه يحبها .. ولم يكن هناك سبب

للغيرة . إذ لم يوجد ما يشاغبها من شغلها فكل منهما يطعم فيما لا يطعم فيه

الآخر .. وأخذ ما لا يأخذه . ويعطى ما لا يعطيه .

وانتهت من إعداد الإفطار وحملته إلى حجرة الطعام . وكانت الست عاظمة

قد استيقظت مسألتها وهي تعانق عرقها :

— حمدي صبحي ؟

— من يدري .. وقد أعددت له الإفطار .

وبدا حمدي حار جاً من عرقه متوجهاً إلى مائدة وحولت إليه الأم أسنانيا .

— أليس الوقت مبكراً ؟

— سأمر على رعوف وصبحي لكي تراجع بعض الدروس مع

— ريتنا يتجسسكم .. ويعرض تصيكم غير ..

ومرت أيام الامتحان .. وكان كل من في البيت يبدو مشدود الأعصاب

يتنظرون عودة حمدي ليسألوه في لغة صامعيل عدا لأب علم يكن يبدو أنه

يخلق أهمية كبيرة على امتحان حمدي أو نجاحه .. وكان كل ما يسمعه في موضوع

الامتحان . ألا يرهق حمدي بعضه .. وألا يهجم كثيراً بنتيجة الامتحان . وألا

يتصابق إذا سقط .

ولقيه عند عودته في الظهيرة في أحد أيام الامتحان . وكان حمدي يبدو مرهق

متعباً . وجره من يده ثم صم إليه وسأله صاحكاً .

— مالك يا جحش .. تبدو وكأنك محسرت وأترلو ..

وتنهذ حمدي في حزن ولم يد عليه الاستعداد للامتحان . وعدد أبوه يرت صهره

في رفق مسائلاً :

— مالك ؟

— ليجت في الحساب .

— يا أحمي .. حساب إيه وتنازع إيه . جندك أكبر محساحي في البلد ..

أربع مرات .. وسيفلس عن قريب . يا شيخ بلا حساب . بلا كلام فارغ .

— أسأل لو سقطت في الحساب حاسط في الامتحان كله .

— اسقط . ولا يهلك .

— إذا سقطت . فلن آخذ الكفاية

— لا ضرورة لأن تأخذها

وبدت الانسجمة تسترق خطاها إلى شفتي حمدي وسأل أباه .

— إذا لم آخذ الكفاية . فلن آخذ البكالوريا .

— ولماذا تريد البكالوريا ؟

— لكي آخذ الليسانس .

وعضبت الأب في سفرية قائلا :

— ثلاثة أرباع خمير اليد أعدوا الليسانس وما زالوا حميرا .

وسأل الابن صاحبا :

— يعني أسقط ؟

— ولا يهلك .. إذا سقطت لك عندي مسحة لا تعلم بها

وسمعت الأم حصة الأب الأخيرة فأقبلت متجهمة وقالت في لحظة راجرة .

— إذا سقط مستسحه ؟

— أجل .

— أهدأ كلام بقوله عاقل ؟

— لم لا ؟

— وإذا نجح ؟

— لن أعمل له شيئا .

— أصحاب العقول في راحة

— يا بني أدمه إذا سقط فهو في حاجة إلى شيء يرحمه . أما إذا نجح

فكفيه فرحة النجاح .

ونجح حمدي .. أعاد الكفاية هو ورفيقاه في الدراسة ..

ظهرت النتيجة في عصر يوم حار . ولوحة صيد تسرى في الهواء وانزهر

الخمراء التي تكسو شجر الياسمين في شهر يوليو تريد من وهج الشمس

وصوت باعة الصحف يطلق في الطريق « عمر الثلاثة » « محقق البلاغ .. عمر

الثلاثة »

وقبل أن يبيط حمدي لشراء الصحيفة لمح صاحبه رعوف وصبحي يتدفعان

من باب البيت وهما يصيحان :

— مبروك يا حمدي .. نجحتا كلها .

وأخذ كل منهما يصم حمدي في فرحة ورعوف يتف :

— مش مصدق إلى نجحت .

وصبحي يتف ضاحكا :

— تأق مع الصبي طاهات .

واندفع الثلاثة إلى داخل البيت ورعوف يقول :

— ماذا عندكم يؤكل . ماذا تعطونه للناجحين الذي حصوا على الكفاية ؟

وكانت الأم قد خرجت على صوت الصحة وفتحت متسائلة :

— غير يا ولاد ؟

وصاح رعوف

— نجحنا يا تيرة .

— كلكم ؟

— أجل كلها

— ألف مبروك . ربنا يوفقكم دائما .. ويحل في وجهكم القبول

وبدت سميحة وراء أمها وهي تتف فرحة :

— مبروك يا حمدي .. مبروك يا رعوف .. مبروك يا صبحي .

وقال رعوف صاحبا :

— إذا حضرت الكفاية .

وانقص ريعوف بأصابه على العصابة .. ودفعه صبحى بمرفقه فألقاه على
العرش وتناول العصابة قائلا :

— ليته يا ملى ريعوف .. هي سايبة ؟ .

وعرس أصابعه في قلب العصابة وملاً قبضة يده بالكفاية ثم دفعها في حبه .
وبصر ريعوف فأمسك بالعصابة قائلا لصبحى :

— انت وحش .

— وانت جحش .

— ولاح الأب على باب العرفة وقد أمدت بالدميل في يده عسائلا في
التيام :

— من اللوحش .. ومن الجحش ؟

وصحبت حمدي قائلا :

— على أية حال كلاهما بالكفاية ..

— غدا يصحبنا بالكالوريا .. وبالنيساس . ويوطمان في دواويس
الحكومة .

ورد صبحى بقوله :

— أنا سأدخل البوليس أو الحرية .

وقال ريعوف :

— لى يا وبتك غيرها .. تلعب كرة وملاكمة . كانشاء ..

وتسائل الأب :

— وأنت ستدخل أى كلية يا ريعوف ؟

— سأدخل الحقوق .

— لماذا ؟

— لكى أصبح وزيرا .

— مرة واحدة !!!

— أليس الوزراء والزملاء كلهم من الحقوق ؟

— وأى وزارة ستوى ؟

ورد حمدي ضاحكا :

— وزارة العطر المشئت والقشمة .

وأجاب الأب :

— صحت بمسا للأكل . مارأيكم .. أن تعشى معا . سأدعوك الليلة على

العشاء عند الحائى : حلالة النجاج .. موافقون أم تأخذوا ثمن المشوة ؟

وتبادل الأصدقاء الثلاثة نظرات الشاور وكان حمدي هو البادى بالرد .

— تفصل ثمن المشوة .

واغترض ريعوف :

— أأنتقل إن عسى على الحديدة ؟

وصحك الأب قائلا :

— من قال هذا ؟

ورد حمدي ضاحكا :

— أنا يا بابا ..

— ليس لى هذا الحد .. تستطيع أن تدبر ثمن المشوة ولو بالسلف . كم

يكنيككم .. محسون فرشا ؟

وهتف حمدي :

— كفاية جدا

— اتفقنا .. تعال معى وغذها وأرحنى من وجهك ..

وأردف يقول وهو يغادر الحجرة :

— أنتم تتجحون . وأنا أذبح ثمن النجاج .

وانتهى الأصدقاء من أكل الكفاية .. وغادر ريعوف وصبحى الدار بعد أن

التفعا مع حمدي على العداة معا في المجد
واستقر حمدي في الحجرة وحده .. وكانت الشمس قد أوشكت على
المغرب .. ووقف نحو الباعة يرقب بافنة صماء .
ولم تبد صماء في الباعة . ونمسل حمدي في وقفته . وعادر العرفة في قلبه ثم
عد إلى الباعة ثانية . ولكنه لم يكد يدخلها حتى دق جرس الباب .
وجرت سيدة نحو الباب تفتحه . هبت أمامها صماء باسمة في رقة وسألها
قائلة :

— سمجة موجودة ؟

وكانت سيدة تعرف أنها تعني : حمدي موجود ؟ وكانت تعرف أن حمدي
يقف ليصرها في الباعة وتترك كيف يسعده بجيشها فأجابته بعروعي .
— أجل موجود .

ثم هتفت في فرح :

— أتعرفين أن سي حمدي نجح .. وأخذ الشهادة .

— أجل أعرف ولقد أثبت لبنتهم .

وأقبلت سمجة تستطلع من الطارق ومن ورائها بدا حمدي وهتف الاثنان
في نفس واحد :

— أهلا صفاء .. اتفضل .

ومدت صفاء يدها تصاحب سمجة قائلة في فرحة :

— مبروك نجاح حمدي ..

ومد حمدي يده يتلقى يدها المضبوذة وهي تهتف به :

— مبروك يا حمدي .. عقبال البكالوريا .. والبياسس

وبدا حمدي كأنه يوشك أن يصمها إليه وأجاب وأغمضه تلاحق :

— الله يبارك فيكي يا صفاء .. تفضل .

— آمال من تبرة ؟

وأقبلت الأم تحيي صفاء وتلقى هبتها ومن ورائها بدا الأب وقد أكمل ارتداء
ملابسه وأمسك الجاquette في يده صائحا بجمدي بعد أن حيا صفاء :

— خذ ياواد لبسي ..

وأمسك حمدي بالجاquette بلبسها لأبيه . ومد أبوه ذراعيه يصم حمدي إليه في
فرحة قاتلا

— من قدام ؟ عندما شماسر جي بالكفاة .

ورمق الأب ابنة بظرة إعجاب وهو يتحصص من أسفل إلى أعلى قاتلا .

— طولت يا حمدي .. تعال قف جانبي أمام المرأة لأقيس طولك .

وكان حمدي قد تعود أن يقف بخوار أبيه . يرى إلى أي حد قد استطاعت
قامته . ونظر أبوه إلى حمدي وهو يقف بخواره في المرأة قاتلا :

— إيه ده ياواد .. لقد أصبحت أطول مني . لن تجد بعد ذلك من تقيس
عليه طولك .

وبدا التحهم على وجه الأم وهي تأخذ قول الأب بطريقة منشائمة لم يقصدها
الأب فهتفت قائلة :

— لماذا تقول هذا ؟ ربما يعطيك العمر الطويل ويقيس طولك عليك دائما

قف من بقلك سبع ثقات .

وصاح الأب ضاحكا :

— يا سني لا أقصد أنه لن يمد من يقيس عليه طولك .. لأن سأموت .. بل
لأنه قد أصبح أطول مني .. ولن أصبح له مقياس للطول

وردت الأم في إصرار :

— معلش .. برضة تف من بقلك سبع ثقات .

— ولماذا سمجة .. خمسة لا تنفع ؟

— قلت لك سمجة .

— وإذا جف ريقى ؟

— ليس هذا وقت مزاح .
 — وتدخلت سميحة قائلة :
 — تع بقى يا بابا وربها .
 — حاضر .. حاتف عشرة .
 — لا .. سبعة بس .
 — وصحك الأب قائلاً :
 — يا ولية اعقل .
 ثم أصدر الأب صوت التفع والأفم تعد حتى بلغ السابعة فقالت :
 — كمى .
 — استرحت ؟
 — أجل ..
 ثم دعت من قلبها :
 — رب يخليك لمع .
 ونظر إليها الأب فى دهشة :
 — أmaal تدعى على له .. كل ما رعلك إن ربنا بأحدى
 — بعد الشر
 وقال حمدي ضاحكاً :
 — تقصد ربنا بأحد يدك .. وتجميع مثل .
 واتجه الأب إلى الباب الخارجى وهو ينظر إلى صفاء قائلاً .
 — وحشتها يا صفاء .. كيف حال بابا ؟
 — يسلم غيث يا عمى .
 — قول له إنه واحشى .
 — حاضر يا عمى
 ومد الأب يده يربت ظهرها قائلاً وهو يضحك :

— واسمى شوية .
 واحمر وجه صفاء وقالت فى استحياء :
 — هو أنا رفيدة يا عمى ؟ ...
 — تحتاجين إلى خمسة كيلو لكى تطفى الحصى ..
 ورد حمدي فى حماس :
 — لا يا بابا .. صفاء هائلة هكدا
 — اسكت ام . انت أصلك حذر . ربما يعطيك خمسة كيلو .. وما
 اعرف كيف أوزعها لك .
 وزاد حمجل صفاء وهفت سميحة فى احتجاج .
 — إيه يا بابا الكلام ده .. صفاء بتكسف .
 تدخلت الأم ماهرة الأب بقولها :
 — يا راجل اختشى .. اعقل ..
 واتجه الأب إلى الباب الخارجى وهو مستمر فى مزاحه قائلاً .
 — اسمى كلاسى يا صفاء . خمسة كيلو حتى تطفى الحصى
 وقيل أن بصر الباب وجه الحديث إلى الأم قائلاً :
 — سأناخر الليلة ..
 ثم هبط الدرج وهو يندب : يا عمت واحشى .. وروحي حيث ؟
 وتجمعت الأم قائلة :
 — ربنا بتعملك بعقل
 وشيعة حمدي بظرة ملؤها الإعجاب
 — ربنا يجمنا احنا بعقلنا .. بابا لا يوجد منه فى هذه الدنيا سواء
 وهفت الأم صاحكة :
 — ربك كرم بكفى واحدمه فى هذه الدنيا لأب لا تخجل سواء
 (عن لاروع الشوك ج ١)

(١٦)

طاقة الخلق

قال الأب عند خروجه إنه سيتأخر .
ولكن الأسرة فوجئت بعودته قبل العشاء .
وهتف حمدي في فرحة :
— بابا جه .

كان دخول الأب إلى البيت دائما شيئا مبهجا . تحوطة صيغة مفرحة . وتم
عنه وثبات على السلم تطرق درجاته في قوة وعف .. وتسبقة صيحات مازحة أو
مداعبات ساحرة . تصل إلى آذان الجيران . ليعرفوا قبل أهل البيت أن سي محمد
قد عاد ..

وكان سي محمد يحمل على كفه أو تحت إبطه أشياء ممتعة . عاكهة في
فراطيس .. حووح وبرقوق . وعنب ومشمش . ينسل عليها في الطريق
مبأني على نصف ما بها . غير ما يكون قد أكله في حانوت المكهاى أو أمام
عربته . وهي كميات لا يستهان بها وإن كانت على سبيل التلوق . ولقد حكى
عنه أنه وقف أمام حانوت سيد المكهاى على ماضية شارع التلول وشارع للسد
وبدا يتلوق اليوسف الهندي واستمر في تلوقه وهم سيد حائر في كبيعة الحساب
ولم يجد سبيلا إليه سوى عد القشور المتساقط من سي محمد والذي يقال — لا
يدري أحد إن كان حقيقة أو من باب التشجيع — إنه يلع الخمسين قشرة .

وقد يحمل سي محمد بطيخة تحت إبطه أو شمامة . أو أكياسا بها أصناف الحب
أو غلب المنلى والمريسة أو الكتافة والبقلاوة .. ولا يكاد تعبر قدامه الباب حتى
يصبح الأكياس .. وبأكل ويفرق ..

وكانت سيفة تشارك في فرحة دخوله ..
كانت لا تكاد تسمح وقع أفئدته حتى تترك كل ما بيدها وتدفع إلى السلم
لتلقف عه بعض ما بيده .

وكان يلقاها صاحكا .. مناديا إياها بسيدة البلطية . متسائلا .

— منك عرق ؟

— أيوه يا سيدى .

— مرعية .. والا هادية ؟

— كانت مرعية .. وهديت .

— وإيه اللي رعبيا .. وإيه اللي هنلعا ؟

وتصعد سيدة بجواره تقص عليه خلاصة ما حدث في يومهم . حتى يصلوا
إلى الصالة .

وهي تذكر ذات يوم عودته وهو يتوثب فوق السلم ويعبر الباب صاحكا وهو
يحمل غلبتين كبيرتين أبشتين وأقبل عليه حمدي وسبحة يرمقان الغلبتين في فرحة
وتسائل حمدي :

— ما هذا ؟

وأجابته سيحة تنسج إجابة أبيها :

— لازم شيكولاتة .

وتدخلت الأم صائحة :

— كل هذا شيكولاتة . متى تطلع هذا التبدير . ألم يكب نول بيت

وقاطعها سي محمد قائلا :

— يا معني لا تدققي . خليها على الله .

وردت الأم في استياء :

— من الذى سبأ كل كل هذه الشيكولاتة ؟

وردت سيحة وحمدي في نفس واحد :

— محي .

وتناول حمدي إحدى العنيتين وحسن إعادتها بسرعة ومد يده فاحلها في غمعة .
وأخرج كتابا .. وأخذ يقرأ أوراثة في دهشة .. وماء جانبا .. ثم مد يده بسرعة
إلى اللعبة الأخرى .. فإذا بها كتاب آخر .
وبدت غيبة الأمل على وجه سميحة وأحيا وقالت سميحة في بأس .

— إنها كتب

وأجاب الأب صاحكا :

— أجن .. إنها مجموعة قصص موباس

ورد حمدي معانبا .

— ولماذا قلت إنها شيكولانه ؟

— أنا لم أفل شيئا .. أنت سألت ما هذا .. وسميحة قالت لاروم شيكولانه ..
وأنتك بدلتني . لأنني ميسر . وأنا لم أفل في كل هذا شيئا . لا عليك . كل
الملاحظات التي تدور في هذا البلد . يتكلم الجميع . عدا الذي يعرف الحقيقة .
وقالت سميحة في لوم :

— عشتنا بالشكولانه .. وقضت نلتسا لها

ومد الأب يده في جيبه وهو يصطحك قائلا :

— يا سني . حقك على حمدي هذا نصف ريال اشترى به شيكولانه كما
تشالين .. وأنت يا حمدي .. نصف ريال لك .

ثم نظر إلى سيدة التي وقفت تنقطع إليه قائلا :

— وانت يا بنت يا بلطية .. أخذت نصف عملك عشائك .. شوق مع
عشت .

وهزت الأم رأسها في عيب . وهي تحده يدهم للقود بمة ويسره

وقالت تزبه كأنها تؤنب طفلا :

— ألم يكفك تدير في الكتب ما لاروم هذه الكتب التي أحضرها . ليس

عدك العولاب مليا بالكتب ما آخرة هذا الورق الذي ملأت به فادار ؟
وأسلت سي محمد بالكتايب الأتقين وهرما في يده قائلا .

— هذه كيتور يا ولية . وليست ورغا . لو أنك استطعت أن تتدو بها ..
لوجدتها أمتع من الطعام والشراب .. إني أستطيع أن أعلق على عصى حجرية .
وأظل فيها عامد رفقي كتاب دون أن أشعر بالوحدة .. الكتاب المنع يا
فاطمة .. خير مؤنس لنا . خير من خير صديق .. إنه عصا حرمك الله .. وبقيّة
الجهلاء معا ..

وأشاحت فاطمة بوجهها وأجابت في سخرية :

— طول عمرك وانت عرفنا في الكتب . ماذا أخذنا منها . كان زمانك

مدير .. أو وريو .

وهز سي محمد رأسه وقال في كبرياء :

— الحمد لله .. الذي عانا من هذا .. كنت سأصيف حمار إلى الحمير التي
ترعر بها البلد .

— قصر ديل . كناية عليك المربى والقهوجية الذين نصاحبهم وتصيب
معهم وقتك .

— الأسطى محمود الزبي .. خير عندي من مائة مدير .

— هذا هو ما أخذك منك .. خليك واكس نفسك وواكس ماعك . حتى
المعاش .. الذي لن يبقى لنا غيره .. لا تريد أن تبيه .

— سيخصمون ما بضعة جنيهات .. حسارة .

— حسارة أن يكون لنا معاش بمعنا في اليوم الأسود هل يدري أحد ما
تأتي به الأيام .

— دعيا يعيش يا ولية .. لا تحمل هم العد . عمر لخيام قال : « أمس وثني
وغدا لم يولد »

— هذا هو ما يأخذك منك .. ومن عمر سحاح بتاعتك .

ولم يكن سوى محمد بهمه .. غير يومه .. بسعي ليأخذ منه أقصى ما به ..
يفرأ ويكتب .. ويأكل ويشرب .. ويعاول ويصحت .. ولم يكن يرد الناس
بمراكبهم أو بأموالهم أو بأصلهم .. وإنما تحفة دمههم .. ولطفهم ..
وبشاشتهم .. وطيبتهم .. وكانت علاقته بهم تقوم على مدى قدرتهم على مبادلة
الحكمة ومشاركته المزاج .

ويروى أبوه عنه أنه استقال من وطنه في ورارة المعارف ليعلق على عسه
حجرته في البيت ليعفظ ديوان الرومي في وقت كان أبوه معلما وكان هو
تربته من عمله في الوزارة . مصدر الرق الوحيد للأسرة

ذلك هو سي محمد . يسير في الطريق متبع الأوداج كورير . ثم يستصعب
شحادا ليشاول معه الغداء في أقرب مسط .. ويمطر ريمالا من محبسته
فتح .. ثم يفتصر قرشا ليركب الترام حتى لا يعود إلى بيته في منتصف الليل
سائرا على قدميه .

بهر عريقه . إذا رأى من بعيد كاسا يشرب الحمار . أو رأى . حسر إحدى
يجلس أمام بيته .. وهو ينشأ من مظنه . ليلف بصحة كيلو مترات حتى
يصل إلى مقصده .. تجبا للشار .. أو لحسن التقدي .

وقبل أن يعود إلى البيت يصبح بما ولد وطاب . ويدفع إلى السلم طارفا
درجاته في عصف واعتداد وحرمة .. كأنه يقول : أنا قادم .. اخذوا الأيام
والأفخر واستقبلوني .

وعندما أتيل هذه المرة . لم تنم عنه طرقات أقدامه .. لقد عوجت الأسرة
به وهو بطرق الباب . ويقف به .

وكانت عودته المبكرة مفاجأة . جعلت حمدي يتف في حرفة :
— بابا . جه .

ولكن طريقة دخوله .. كانت مفاجأة أكبر ..

كانت خطواته متناقطة وقدماه تجرد على الأرض .. ولا تطرقاها

ونظرته قد حلاها بريقها . وملاح وجهه بعير الفرحه الصاحكة . بل يعلوها
وجوه مستسلم .. وكأنه يحمل عبئا على كتفيه .

وسار إلى باب الحمام المواجه لباب المدخل . في بطنه ثقل . وقبل أن يصل
إلى الحمام وقف مستندا إلى الحائط في عبالك . وأخذ يقصي حاجته .

واندفع إليه حمدي صائحا :

— مالك يا بابا .

ولم تترك عاطمة ما به . وغيل إليها أنه أثقل في الشراب .. واقتربت منه
وهي تقول غاضبة :

— هو ليه أصل ده .. للحمام ما هو قدامك .

وأسلت حمدي يدراع أبيه بسنده واقتربت سميحة وقد بدا في نظراتها
الدعول .

وعاد حمدي يتسائل في عيوف :

— مالك يا بابا ؟

وأجاب الأب في نبرات ضعيفة وصوت خفيض :

— لا أستطيع أن أبهر شيئا .. أنا متعب .. متعب جدا

وبدأت الأم تذكر أن المسألة ليست مسألة شرب . وعلا الأصغرار وجهها
واقتربت منه تحسب يدراعه في رفق وتتسائل في صوت مرتجف :

— مالك يا سي محمد .. ماذا بك ؟

— مش شايف .. مش قادر أقف .

— تعال .. استند إلي .

وسار الأب متكئا على الأم وعلى حمدي ووراءهما سميحة وميدة تتسائل في

دعر .

— مال سيدي يا ست سميحة ؟

— لا أدري يا سيدة .. إنه يقول إنه لا يستطيع أن يرى . وأنه متعب

— سلامته . ألف سلامة .

ووصل الأب إلى حجرة النوم وجلس على الفراش وهو يبدو مرهقا . رائع النظرات .. وتعاوت الأم مع حمدي وصبيحة في تمييز ملامحه . وما لبث أن استلقى على الفراش في إعياء وهو يردد في صوت ضعيف :

— تعبان قوى ..

وبدت الأم في حالة ذهول .. وهي تحمد الرجل القوي بهذا . وهو لا يكاد ينطق إلا بكلمات مدعمة بين آوية وأخرى . ليؤكد أنه متعب . ثم ما لبث أن صمت .. مستغرقا في نوم .. أو في حيوية .

ووقفت الأم تتسائل في حيرة :

— لا بد أن يحضر الدكتور إبراهيم .

ورد حمدي وقد بدت عليه الخيرة والخوف :

— سأذهب لأحضر الدكتور رضا من ميدان السيدة .

وانجبه حمدي إلى الباب الخارجي .. وسارت سيدة وراعه وهي تشعر كأن حملا ثقيلًا يهبط على لأسرة كلها . وعندما وصل إلى الباب تنعت به :

— هل آتى معك يا سبي حمدي ؟

— لا لا .. ابقي معهما .. فلهما يحتاجان إلى شيء ..

و لم يكده حمدي يهبط بصبح درجات حتى بدت صعاء تعبر باب المرل إلى داخل الفناء فتمهل في سيرها حتى تلاقى حمدي .

وقالت صعاء متسمة في رقة :

— مساء الخير يا حمدي .

ورد حمدي في شرود واجم .

— مساء الخير .

ودهشت صعاء من وجوهه وقالت متسائلة :

— ماذا بك ؟

— ألى متعب

— كيف ؟

— ألى إلى البيت الآن .. وهو لا يكاد يصبر شيئا .. ولم يعرف طريق الحمام ثم رقد على الفراش .. في غير وعي ..

وبدا الخوف والخوف في ملامح صعاء وانقرت من حمدي تردد قاتلة :

— مش معقول . لقد رأيته هذا الصباح وهو يرل السلم قفرا .. وعندما رأى قال مارحاً :

— ما زال أمامك أربعة كيلو

— إنه لم يسر بكلمة سوى أما تعبان .. ثم استغرق في النوم .

— ربما كان متعبا . واستغرق في النوم .

— لا يا صعاء .. إنه في غير وعيه

— ولى ألى أنت داهب ؟

— سأحضر الدكتور رضا

— لا تغف يا حمدي . إن شاء الله سيشفى .. إن أباه قوى .

— ربما يسمع منك يا صعاء .. أنت تعرفين غيره عندما .

— وعندما أبصا . وعد كل الناس .. سأخير ألى وأمى لكى سذهب

إليكم .

وغادر حمدي البيت ، وسار مختفيا شوارع حبيبة باميش . عابرا بذلك

معبد العجلاقي . عيبا بعض الرفاق الذين أحاطوا بالدكان بالحمون الكمر

الداخل للكرة . أو يحدون العجل الذى استأجروه ..

وهاء محمود الدكش صبي العجلاقي بالجناح وصاح به صاحكا :

— عازين الخلاوة يا بو حميد .

وأطلق حمدي رفرة من صدره وهو يواصل السير قاتلا .

— حاصر يا محمود ..

لم تكمل مرحلة النجاح يا حمدي .
لكن مآلك تحمل كل هذا الحم .. إن أمالك خير . إنها ردة بسطة سببها
أقوى مما كان ..

الناس كلهم يحرصون . عندما تخاف كل هذا الخوف على أيك
لأنه لم يمرض من قبل . لأنه قوى . صاحب . ساحر . لا يعرف
الصعب ولا الحزن .. ولا الخوف ..

وعبر القنوة . ولم يتجه إلى حارة السيدة بل عبر الحارة . إلى جبهة لاذ
مختصر الطريق إلى شارع الوادعية .. ومنه إلى شارع الخليج .. وسار حوار
شرهد التزام حتى بلغ ميدان السيدة . وانتهى إلى شارع الكومي . حيث عمارة
الدكتور رص .

وصعد السلم — شارع اندهى .. حتى وقف أمام باب العيادة .. ووجد
الطبيب قد انتهى من آخر مريض .. وأوشك على مغادرة العيادة .
ووقف حمدي أمامه وهو يحاول أن يلتقط أنفاسه .

وسأله الرجل الكهل في صوت رقيق :

— خير يا ابني ؟

— ألى متعب .. ونريدك أن تراه .

— أين البيت ؟

— في جينة ناميش .

وبدا التردد على وجه الطبيب . وكان حمدي يعرف أن اسم أبيه له وقع
جذاب .. وأن الكثير من مدرسيه .. عندما كانوا يسعون اسمه يسألونه ألك
صلة بالأستاذ محمد السمانوي .. وعندما قال يقول إنه ألى .. كان يسمع
باعتزاز ملجهم فيه وتقديرهم له .

وبدا له وهو يرى التردد على وجه الطبيب أن يستعمل جاذبية الاسم لئلا
يحدثي فقال في صوت خفيض

— إن ألى محمد السمانوي .

— الكاتب ؟

— أجل ..

وبدا الاهتمام على وجه الطبيب وتساءل :

— ماذا به ؟

— لقد دخل عليا .. وهو لا يبصر ما أمامه . ثم رقد في غيبوبة .

— انتظر لحظة . سأتي معك . إن أمالك يا بني .. رجل . لا يوجد منه
الكثير .. إن شاء الله لا يكون هناك شيء مزعج .

ووصل حمدي مع الطبيب إلى البيت . وكانت سميحة تجلس في غرفة الجنوس
مع صفاء وأنها وكان أبوها الأستاذ عبد الرازق يجلس على مقعد بخوار الفراش
الذي يرقد عليه الأب .. والأم تقف بخوار الفراش في قلق لم تسر إلى الباب
الخارجي متسائلة :

— لماذا تأخر حمدي ..

وتطمئنها سميحة قائلة :

— العيادة ليست قريبة يا بنة . ولا بد أنه عائد في الطريق

— يارب بيد الدكتور .

وسيدة تقرب الحركات المندفة في البيت . وهي تحس بأن الهواء قد ثقل ..
وأن التنفس أصبح شاقا .

ليس من السهل أن يرقد هذا الرجل في مثل هذا الإعياء

الناس كلهم يجور عليهم الرقاد والمرص إلا هو . إنها لم تره يمرض قط .
دائما يحيى . ودائما يرح . ودائما يلعب بالحديد . ودائما يندو عاريا ليأخذ
دشا باردا .. ودائما يستمتع بالطعام والشراب . وحتى عندما يكتب ..
يجلس ليقرأ ما كتب لأمه حمدي .. في استمتاع وفرحة ..

ليس من السهل أن يتعب هذا الرجل المشتغل المتوهم . الذي يحب الحياة .

ويستطعمها .. ويقتل عليها ..

ولكن لماذا يبتلع عبيد الوجوم .. إنه لن يبتلث أن يقف مرة أخرى .
يصحك ويصيح . ويقول لما يات يا بلطية . وهممرها بالفروش والفاكهة
ودخل الدكتور ووراعه حمدي .. يقوده إلى حجرة النوم .. وحيا الأم
بانتسامة رقيقة قائلا :

— مساء الخير .. سلامة الأستاذ ..

— الله يسلمك يا دكتور .

وأقبل الدكتور يخرج أدواته من الخفية .. وهو يسأله .

— إيه يا سي .. إيه الحكاية ؟

— أهدأ يا دكتور .. خرج الظهر سليما أربعة وعشرين قيراصا . وعاد مد
برهة . وهو لا يكاد يرى ما أمامه .. حتى لقد أعطى طريقته إلى الحمام . وأنها ما
أنه متعب .. ولم يقدر حتى على خلع ملابسه . ومد أن أتي وهو يرقد هذه
الرقدة .

وأعد الطبيب يمس البس ويقيس الضغط والحرارة . ويمحص القلب .
حتى انتهى من اجراءات الكشف .. وبدا الوجوم على وجه الطبيب . وهو
رأسه دون أن يطلق بكلمة ..

وتسألت الأم في قلب :

— خير يا دكتور ؟

— خير إن شاء الله .

— ماذا به ؟

— شوية ضغط .. لكن إن شاء الله رينا يسلم .

وانصت إلى الأستاذ عبد الرازق وقد صفاه قائلا :

— حضرتك قريب الأستاذ ؟

— أنا جاره .. ولكننا كأهل .

وعاد الطبيب يمر رأسه ثم بدأ بخط في روشة أخرجهما من حقيقته بصحة
أدوية .. ثم قال وهو يسلم الورقة لحمدي :

— أهم شيء . نرهنه الآن .. هو عاقبة تلج .. هل عندكم طاقية ؟

وأجابته الأم :

— لا يا دكتور

— موحدة في الأجزعانة .. تلحفوا تشروا واحدة الليلة . وأفضل أن
يخلق الرأس بالموسى .. حتى يوضع الشج على الرأس مباشرة . وسحتاج إلى
حقن الجلوكون .. وسأمر عليكم غد بعد الظهر .

وعاد الطبيب البيت . تاركا في جو البيت سحابة قائمة من الشقاق
والوجوم

وبظاهرت حمل عاتمة نطمأينة .. في جو ليس به ما يبحث على الضميمة
وبدا عبد الرازق . حمدي أكثر من في البيت إذراكا لتحقيقه . بعد أن أوصى
الطبيب إلى الخروج وتبادل معه بعض همسات

وحدث الرجل أن يشيع بين الأسرة إحساس الطمأنينة فقال متصاحكا
— حو يا جماعة .. إن شاء الله بصحة ألام والأستاذ محمد يقوم في أم صحة .
وتسألت الأم في صفة :

— ماذا قال لك ؟

— قال لي إن كل شيء سيكون على ما يرام ..

وتهدت الأم وهي لا تشعر بأنه ليس هناك ما يعنها على الطمأنينة وقالت
وهي ترمق حزنا :

— ربما كريم .

وقالت أم صماء وهي ترفع يديها إلى السماء في دعوة مغلصة :

— يارب لطفك يارب رحمتك .

وقال عبد الرازق الفندي وهو يمسك بالروشة

— سأذهب لإحصار الأفعوى .

ولكن حمدي مد يده إلى الروشة قائلاً :

— كتر عيورك يا عمي .. أنا أستطيع أن أذهب بسرعة لإحصارها وسأحصر طائفة الثلج التي طلبها الدكتور .

ولتعت عبد الرزاق إلى زوجته وكأنه يشاورها بالنظرات في شيء يريد أن يقدم عليه .

واقتربت أم صعاء من فاطمة ثم مالت على أنها هامسة :

— لارماك حاجة يا ست فاطمة ؟

— كتر عيورك يا اخي ..

— إنك متحتاجين إلى .. نقود للدواء ؟

— معي في الدولار ما يكفي .. ربما ما يخرج مني من أمصالكم .

— عيورك سابق يا ست فاطمة .. إحنا أهل .

— عارفة يا اخي .. ربنا لا يورس فيكم سوء أبدا .

وانجى عبد الرزاق اتندى إلى باب البيت قائلاً :

— أستاذ أنا .

وردت أم صعاء :

— سأجلس أنا مع الست فاطمة .

ودخل حمدي مع أمه إلى حجرة نومها .. وأخرجت من الدولار مديلاً

صرمت فيه بصعقة جسيبات ومدت يدها بإحدى الورقات إلى حمدي قائلة :

— الحق يا حمدي قبل أن تعلق الأخر حيات . وحد بالك من مصفت .

وعبر حمدي الصالة في خطوات متثاقفة وأبصر سحابة تقف بجوار باب حجرة

الأب تنطلق إليه في رفقة نظرات حريمة شاردة وصعاء تربت على ظهرها في رفق

قائلة .

— إن شاء الله سيقيم بالسلامة .

ونظر حمدي إلى صعاء نظرة اسنان ثم انجى إلى الباب وقبل أن يبلغه أبصر سيدة

تقف متطلعة إليه في صمت وحيرة وهي تتسائل .

— آجي معاك يا سي حمدي ؟

— لا .. روعي هاني بقرشين ثلج . وعوني على الأسطى محمود ادريس .

قولي له ييجي بسرعة .

— حاضر .

وانطلقت سيدة تحصر الثلج من عم حاد صاحب صندوق الكارورة نحو

سيدى الأربعين . وأخذت تملو في الطريق وهي تحس أنها تقوم بعملية

خطيرة . وصادها سيد البطل صبي البقال وهي تعدو واعتصر طريقها

مجازلاً :

— على فين يا حلو .. هدى شو به ..

ودعته سيدة في صدره بعنف قائلة .

— أوعى من سكتي .. أنا مش فاضلك

— ليه بقى ؟

— سيدى تعبان .. وجينا له الدكتور .

وهذا الانزعاج على وجه سيد البطل وتساؤل صائحا .

— الأستاذ تعبان ؟

— جداً ..

— غير محقول .

— من ساعة ما رجع .. وهو غائب عن وجهه .

— سلاته .. ألف سلامة .. احنا عندنا كام أستاذ في الحجة

واستمرت سيدة في التملو حتى بلغت صندوق الكارورة . وجمدت قطعة

الثلج الكبيرة بين يديها . بعد أن أعبرت عم جاد . وكل المحيطين به أن سيدها

هاد متعب إلى الدار .. والله مريض جداً .

لقد أحست سيدة أن مرض سيدها أمر خطير يجب أن يخرج له الجميع

ولم تحطئ في إحساسها . فقد كان الأستاذ كما يسمونه صديق كل من تصادهم في طريقها من أهل الحقنة . صديق البقال وصبيه ورائع الكارورة . والدندرة . والسيكويوت البانيليا .. وسعيد العجلاقي .. وعبد البواب .. وحسونة بائع خورية .. كأنهم كانوا أصدقاءه . كان يحدّثهم ويسألوهم بعمر تكلف ولا ادعاء .

وعادت سيدة إلى البيت لتصبح الثلج في جوف التلاحة . ثم تنطق إلى دكان محمود المري . وكان عليها أن تسدث إلى الدكان طريق الثوابور .. ومسور عرمالي . وأعدت مبرول وهي تحاول التقاط أنفاسها ، حتى عبرت البوابة إلى داخل الثوابور . وماكينات الطحين تعرق أنفاسها في عرمانها الزينية حتى وصلت إلى البوابة المصيبة إلى شارع السد . وانجذبت بمجة إلى حانوت الأسطي محمود علي ماصية شارع سليم . ووقعت أمام الدكان ذي الأكواب الزجاجية ولحقت الأسطي محمود بمحطته الأبيض بظرفه مقعده فوق رأس ربون مصطحع على المقعد الخديدي المستدير أمام المرأة . وقد جلس بصحة ربان في انتظار دورهم .

واقتربت سيدة من باب الحانوت ووقفت مترددة أمام الأسطي محمود وهو يدور حول رأس الربون بطرق في الهواء يصحح طرقات ثم يقص قصة من شعر الربون .

وانلفت إليها محمود المري بعد أن ميزها وتساؤل في دهشة :

— فيه إيه ؟

— أنا سيدة .. عند الأستاذ محمد .

— أعرف . ماذا تريدن يا سيدة ؟

— تريدك أن تحضرن في البيت .

وتساؤل الرجل في دهشة وهو يتوقف عن الطرفة

— لماذا ؟

— لكي تخلق لسيدى

— أحلق لسيدك ؟

— أجل

— ولكنه كان عدى هذا الصباح وحلق ذقه .

— ستحلق له رأسه .

— رأسه . لقد سأله أن أحلق رأسه . ولكنه قال إن شعره لم يطل بعد . ثم

لماذا أذهب إلى البيت .. وهو يقصص نصف وقته ها في الدكان . إنه يجلس ها أكثر منى .

— إنه لا يستطيع الحضور .. لأنه مريض .

— مريض ؟ غير معقول . فقد كان يجلس اليوم عدى . كالحصان

الأستاذ لا يمرض أبدا

وتهدت سيدة وردت في حزن :

— الأستاذ رائد في الفراش . والدكتور قال لا بد أن يحلق رأسه لكي نضع

هذه طاقة الثلج .

واستدار الأسطي محمود كأن شيئا لمسه وصاح في جرح .

— أحلق رأسه لأجل طاقة الثلج

وقد فاقص من يده وحرب كذا بكف وخنق كأنه يحدث نفسه :

— ليه . ليه كده يارب .

ثم تناول حقيقته بسرعة وهو يقول لمن حوله :

— لا مؤاحدة يا جماعة .. أنا متأسف . لا مؤاحدة . فيه طلب مستعجل .

وصاح الربون الذي يجلس على المقعد :

— يا أسطى . رأسى . يا أسطى . مش معقول تسيى من غير ما تكمل !

— ما تأخذيش .. مش حاقطر اكمل .. لارم شوف الأستاذ .

ثم عاد يصرب ككاف بكف وهو يصيح والدموع تترقرق في عيبيه .

— ليه .. ليه كده يارب .. دارجل سكرة .. داأمير .. فاسيد الباس

وساو . لرحل حقيقته فائلا لصبيه .

(نحن لا نزرع الشوك جـ ١)

— حدد بالك من الدكان لخدمة ما ارجع .. عن إيديكم .

وسار أمام سيده قائلا :

— يا لله يا سيده . ربما يظف .

وعادت سيده إلى البيت لتجد حمدي قد عاد بالأدوية وطاقية الثلج .. ودخل الأسطى محمود إلى حجرة اليوم .. ليجد الأستاذ رائدا في عيونه . وأحس بساقيه لا تقويان على حمله فتبارى عن الأريكة المنقطة . ومضت برهة يحاول أن يتألك فواه .. ويتقلب على جرحه . وحمدي وأمه يحاولان تهدئته . والرجل يبرز رأسه في أسى ويرفع يديه إلى السماء قائلا :

— يا رب لطفت . فاحبا عالماش غيرة .. حالمير .. وطيب .

وحمدي يرمت على كتفه قائلا :

— بابا بلك يا أسطى محمود .

— إن شاء الله .. ربنا كريم

وحلق الأسطى محمود رأس الأستاذ من أعلاه بالموسى . وأحدث سيده تكسر الشبع قطعاً صغيرة لكي تحسها في موهة الطاقية .

ومرت الليلة الأولى من مرض الأب . دون أن تشفق الأسرة اليوم إلا ما .. فوق المقاعد أو الأرائك .

سيده تكسر الشبع وتضعه في الطاقية بدل الشبع الدائب . وحمدي يتسلم الطاقية ليضعها على رأس أبيه .

وتسبل صوء العجر من السادة . يمسح وجوها أرقتها السهر .

وحسنت سيده في مراسها ترقب الصوء . المتسلل وترقب الوجوه العافية .

ورمت يصرها إلى الرجل الرائد في إعمايته الطويلة في الفراش . وتذكرت أباهما في ليلة المولد .. وعودته محمولا على الأكتاف . وسرت في جسدها قشعريرة .

ولكنها بصمت الحفاط عن دحها وحسنت لنفسها ما ييسر به من حوها .

• يا رب •

(١٧)

وجهان للموت !

حصر الجد والعمة وبقيّة الأهل لبشار كوا الأسرة الصغيرة جرحها على الأب والمتاعفا حولها .

ومرت بضعة أيام .. والرجل القوى . منقش في إعمايته الطويلة في الفراش .. بطاقية الثلج على رأسه . وإبرة الجموكور مدفوعة في أحد عروق يده .. يقطر منها السائل المسحور من الخراطيم المتد من الآلية الرحاجية معلقة في دائر السرير .. وأفراد الأسرة يتحركون حوله كالأشباح .

وفي يوم أقبل الدكتور . ليبحث الرجل الرائد والذي م يعق مد أن أعفى إلا دقائق نطق فيها بصع كسمات ثم عاد إلى إعمايته . يهذي بحمل متفصعة وكلمات غير مفهومة ..

وبدا الطبيب محصه .. وهذا الحد القوى وقد ترهلت عضلاته وبرزت عظامه .

وفي نهاية الكشف لم الطبيب أدواته في الحفية . ولم يحاول أن يكتب رويته التقليدية .. ولكنه نظر إلى الجد الذي وقف بجواره يشتد على عصاه وقد استطالت خيته وتآثر الشعر الأبيض حوها وأمسك بيده يديه يرمص يرمص عينا في حنان ويهيمس له في صوت يقطر الدمع من نبراته .

— سلامتك يا محمد . سلامتك يا سي . سلامتك يا حبيبي رد على ربكي .

• واستطاع الطبيب أن يتألك بعضه بشيء من الجهد ومد يده فأمسك بذر أع الرجل المحجور المسند إلى عصاه في وقته المتهاكة وحره برفق إلى خارج الحجرة

فأثلا :

— تعال يا حاج عبد الرحيم .

وانتفت إلى الأم التي وقفت كالشيخ وقد هرل جسدها وراعى بصرها .. وهي تسائله في لحظة :

— إليه يا دكتور .. إريه دلوقت ؟

وسار الطبيب إلى حارج العرفة ليحمد حمدي وسميحة ومن وراءهما العمة ينظفون في حرج وقتن إلى وجهه وتوقف الرجل أمام العيون التي تنقطع إليه تنهمة إلى كلمته تطمئنها وتهدئها من جزعها .

وتردد الرجل برهة وهو يبر رأسه مرة عصية حائرة ثم قال في حيرة حميم :

— إن شاء الله يكون الخطر قد زال .. لقد بذلنا كل ما في وسعنا . وبرحوا إن يتم الله بكم .. وإن بقيتم بالسلامة . وإن كان سيصاب بشلل يصمى .. ولكن المهم هو أن ينجو .

وسمعت سيدة حديث الطبيب وهي تقف باب الطريقة المؤدية إلى المنضح تمسك بيدها العنق الخلفي بقطع الثلج الصغيرة أعدها لكي تصعبها في الطاقة وأحسنت بالصمت يتبع على الرجوس . وبدا الأم على قسمات الوجوه كأن يدا قاسية تنصير أحشائهم .

وكان الحمد أول من يطق . فقد كان على إنسان ما أن يقول شيئا ما قل الجيد وهو يطلق رفرة حدة

— الحمد لله . الحمد لله على كل حال . ربما يجيء من كل مكروه ولم تملك الأم إلا أن ترفع يدها إلى السماء تدعو من كل قلبها .

— يا رب .. أنت قادر وكريم .. أكثر من كنهه وبشليل ..

وسارت سميحة وراء الطبيب لتوصله حتى الباب . وبدا حمدي كأن يدا

قوية قد لغضته . وأنه يوشك أن يخر راكعا . وانحه إلى حجرته يلقي وجيته ويطوى اللطمة في باطنه .

وهبط على حافة فراشه محي الجسد متكئا برعفيه على ركبتيه محبا رأسه بين كفيه

ووقفت سيدة ترقبه من خلال الباب ورثته يرفع رأسه من بين كفيه ثم يبر رأسه في عصية كأنها يحاول أن يطرد صورة بهيمة من محله .

وأحسنت سيدة أنها تود لو استطاعت صمه بين ذراعها ولكنها لم تملك إلا الاقتراب منه وفي يدها طبق الثلج محاولة أن تجره في حديث يشغله عن أفكاره القاتمة .

فالت سيدة وهي تقترب منه في خطوات متسللة :

— سي حمدي . الثلج جاهر لكي يضعه في الطاقة .

وهو حمدي رأسه في يأس وأجانب كأنها يحدث نفسه :

— لا فائدة .

— لماذا يا سي حمدي .. لقد قال الدكتور إن الخطر قد زال .

ونظر إليها حمدي نظرة شاردة كأنه لا يراها وأجابه بصوته اهمس وبراته الموحية :

— قال إنه أصيب بالشلل .

ثم أطلق رفرة حارة وعاد ليحدثها ساسا في وجعة كأنها يحدث نفسه .

— أرى أصيب بالشلل .. بكل ما عيه من قوة وعنوا .. بكل ما عيه من نجد للحياة وسخريه متيا .. لن يستطيع الحركة بعد الآن .. لن يستطيع النطق .. كيف يتحمل هو نفسه .. رغبته العاجزة المشلولة . كيف يستطيع ألا يندفع في فرة .. ويغنى ويخز ويقرأ ويكتب ؟

وقالت سيدة في لغة مترددة :

— ولكنه سيعيش .. سيكون موجودا بيتا .

— يعيش .. كيف ؟

وعاد يدهم رأسه بين كفيه .. وأحست سيدة بجسده يهتز .
حمدي يهكي يا سيدة .. ماذا تملكين له سوى وقتلت الماعرة تمسكين بطبق
التلج بلا حول ولا قوة .
لو أنك تستطيعين صمه إلى صدرك ..
لو أنك تستطيعين حتى أن تربتي ظهره يدك .
وتقدمت سيدة من حمدي ومدت يدها تربت ظهره في رفق وحوو قائلة :
— ما ترعلشي يا سي حمدي .. وقبسي ما ترعل . عشان خاطرى ..
واسهر جسد حمدي يهتز بالبكاء . وأحست سيدة بالدمع يساقب من
مقلبيها بغر وعي ولا إرادة .

وعادت تهتف به وهي تربت على ظهره في رقة :

— وحياة اللي ما ترعل يا سي حمدي .. سيدى سيشفى ويقوم بالسلامة ..
ورفع إليها حمدي عينين محمرتين وأجاب في صوت هائس
— يشفى كيف .. لقد شل يا سيدة .. ولن يعود كما كان ..
وعاد يهر رأسه كأنما يود أن يقذف منها شيئا يخره وقال كأنما يحدث معه :
— لن يعود قويا مرموع الرأس . وإذا لم يهكي قويا . وإذا لم يستطيع أن يمتح
صدره ويرفع رأسه على يكون إن حياته ضحكة وأمنية وانطلاقة .. وإذا لم
يقدر عليها .. فكيف تكون حياته .. وكيف يعيش ؟
وأطلقت سيدة زهرة حارة .

لقد كان الرجل كذلك يا سيدة .. كانت خطواته طرقات قوية على ظهر
الأرض وكلامه ضحكات . وصيحاته أغنيات ..
وهو لا يمكن أن يكون حسدا طريح الفراش . تنثر الكلمات على لسانه ..
وتحطم الضحكات على شعبه .
وأمسكت سيدة بفرع حمدي تشده لكي يهبط من جلسته الباتسة وهي

نقول .

— ربا كبير يا سي حمدي . تقدر على شعائته . وعلى إعادته إلى صحته
وقوته .. ادع الله يا سي حمدي .. قل يارب فهو يسمعا .
وهبط حمدي من حافة الفراش . وهو يرمق بأس ويتم فائلا :
— وماذا تملك غير هذا يا سيدة ؟ من أمامنا سواء .

ومرت الأيام التالية بعقبة ثقيلة انواء . تتعالى فيها الدعوات وتتصاعد
الزهرات . والأب يرفد في غيبوته بطافية التلج فوق رأسه . وإبرة الجلو كور
في دراعه . والألم تتحرك كالشيخ . هامة الخاق شاردة النظرات وأجد أعلى
حانوته واستقر بحوار به على مقعد خمر الرأى يسد رأسه على عشاء التي استقرت
بين ركبتيه وهو يكاد يخصي أنفاس المريض يرفع بصره بين أوبة وأخرى في جرع
كأنما يمشي أن توقف الأنفاس في عملة مبه . وبين أوبة وأخرى يرفع رأسه إلى
السماء هاتفا :

— يارب ..

ثم يخفض رأسه مقلقا في وجه المريض المرقق في غيبوته وقد بدا عليه الحزن
وهبت لونه الوردي .. وعطفه الصعرة .. ويتم ساديا في صوت خفيض كأنما
يخشى أن يسمعه أحد غير ابنه المريض :

— ليه يا بني يا محمد .. ليه يا حبيبي ؟

وتدخل العمة فلا تلتصق إليها .. ويظل يحدث الابن للمعي قائلا :

— حاتقوم يا محمد ؟ .. حاتقوم يا حبيبي . وحياة السي حاتقوم ؟ . قول آه

ويجي ..

وتربت على ظهره في رفق قائلة :

— قوم ياو محمد ..

— أقوم هين ؟

— قوم كل لك لقمة .

— آكل لقمة !!؟ .. وهو اكده ؟؟
وقد الأتة بعدها محاولة أن تساعد على النهوض .

— طب قم عو هدمك .

— أغر له ؟

وبصمت برهة ثم يصرخ قائلا :

— حاصصل قاعد قدامه . لعابة ما يقوم . لعابة ما يرد على ويكلمنى .

ثم يطلق آهة من أعماقه ويهاود رفع رأسه إلى السماء ويقول كأنه يعاتب من يحدثه :

— يارب .. له كده ؟ تعمل فيه كده له ؟ دانا معملتش حاجة تستاهل

وتصل الكلمات الخمسة إلى مسامع حمدى وهو يجلس فى الصلاة مطرفا .

ويحس بها كمطارق تهوى على رأسه وسكاكين تفرق أحشائه ويحس بالدموع

تساق إلى مقلتيه فيصير متوجها إلى حجرته يتم فيها عبراته الملحة .

وسحبة تكفكف دمعها المساب . وهى تتحرك مع سيدة لتضيف البيت

وأعداد الطعام . لتزود الأسرة كواجب ببعض لها بد من أدائه

والروار من أقارب وأصدقاء يروحون ويصلون . ينتمنون بدعواتهم

الصاخة وأماهم الطيبة التى باتت من مرط تردها كلمات خوف لا تبعث على

أمل ولا توحى بطمأنينة . وأصدقاء حمدى يحيطون به ويحاولون إخراجهم من

وجوده تارة .. ومشاركته الوجوه تارة أخرى ..

وصعاء . تقضى معظم أوقات النهار تشارك سحبة عملها . وتخضع من

وجبة حمدى ما استطاعت بالكلمات والظفرات .

ودات صباح .. والشمس توشك أن تشرق .. وسمة ليل الصيف

الندية . تسرى فى طمأنينة بين حنايا الشجر وفى مسالك الفروب .. وبصمات

الصجر لظفرات بدى على الأوراق .. ووشوشات بين الأعصان .. ثم تفرعها بعد

أشعة شمس النهار بساطها الملهم . وشجرة التوت تظلل باب البيت كدثار

أخضر يعطى قلعته ليقبه مرودة آخر الليل . ووردة فى آخر الحديقة فى تفتحتها
بسمة طفل يتسلى .

وجبة ماميش تتأهب فى كسل . أبواب الدكاكين تفتح فى استرخاء ..

ومظهر الحياة الوحيد فى حرقاتها هو بائنة النابت تنبع بصوتها المتحشرح

الذى لا تكاد تميز محارج الحروف فيه ولا تمنع ما يقول إلا لأنه هو الصوت

الوحيد الذى يطلق فى هذه الساعة النابت الأبيض . أبيض يا بيت !

وأهل حبة ماميش .. يهيمون من حياتهم لحظة كتيبة خطوات العمر .. ما بين

مستغرق فى اليوم أرحى جسده . ومتتائب بشدة لوجهه . وواقف أمام

الصور ليتطهر .. أو راكع يعطى ما قد الله . أو مطلق إلى عمله بطعامه تحت

إبطه وبذاه خالوتان فى جيوبه ..

وكل شيء يبدو هادئا .. فى بيوت جنية ماميش ودورها .

حتى هذا البيت الذى يرقد فيه الرجل المريض قد بدا هادئا بهير فى

صاحبه لحظات تعود أن يهرها كل يوم مدان بدأ الرجل رقدته ..

المريض مسجى على فراشه .. وأهل البيت بعضهم مرقه النوم فأعصى فى

مكانه بعد حلول سهر . والبعض يجلس بمحلقا فى المريض يرفق وجهه

الشاحب . ويحصى أنفاسه وآخر يذق الثلج ليكسره بيد الخول ..

وفجأة بدت حركة غير طبيعية فى حجرة المريض .

سهر الخد من مقعده فجأة واقترب من ابه . واندفعت الأم إلى المحجرة

وهى تجد الجسد يميل على الجسد المسجى وهى تصيح

— إيه . فيه إيه ؟

واستيقظ النائمون على صيحتهما واندفاعهما . أقبل حمدى يعضو مس

حجرته . وتاندقت سحبة من ورائه . وتركت سيدة بذ اللون إلى تكسر به

النتج وعدت إلى باب حجرة المريض لتجد الأسرة قد تراجمت حوله

وعادت الأم تصيح فى خوف :

— فيه ليه .. حصل حاجة ؟

وبدا الجدة فاعراها متلاحق الأعناس وهو يمسك بيد الابن وأحباب وهو يكاد يهيار :

— محمد تعبان

وارداد الجميع اقترابا من الفراش وشقت العمة طريقها إليهم بعد أن أبقتها النصيحة متسائلة .

— ماله ؟

وتوقفت برهة تنظر إلى وجهه وتحسب إلى نرد أعنسه ثم قالت .

— يظهر إن شاء الله ..

ثم انفتحت إلى الجدة قائلة :

— أنت تعبان بابا . يجب أن تستريح

ورد عليها الجدة راجرا .

— أستريح !!

ثم صاح على حوله .

— حد يشوف الدكتور .

وأجابته العمة :

— الآن .. والساعة لم تبلغ السادسة والنصف ؟

ورد الجدة في إصرار :

— أجل .

— الرجل لم يستيقظ بعد .

— أبقيطوه

وقالت الأم في صوت مرتعج .

— عندما تليقون بيته

وقال حمدي وهو يحس أن الأرض تدور به :

— سأذهب لأطلبه .

وتساعت سميحة .

— من أين ؟

وردت الأم :

— من بيت محمود بك الخاواقي

وقالت العمة وهي عز رأسها في دهشة :

— في هذه الساعة توقظون الناس ؟

وردت الأم وهي تزهد ريقها :

— الناس طيبون .. وهم يعرفون ما بها .

وقال الجدة في صوته الخرع المليء باليأس وبعاد الصبر .

— اذهب يا حمدي .. اذهب يا بني الله لا يسفك . قل له بلحقا .

وامطأ حمدي بعدو من البيت ليطلب الدكتور رصا في مرله

ولم تعرف سيدة ماذا يحدث ..

كان الجدة فرعا يمسك بيد ابه ويحلق في وجهه يهتف بصوت متبالت .

— يارب .. مش كده يارب .

ويصمت برهة ثم يهتف كأنه يستجد في عتاب :

— عانت كبري ..

والأم تبدو كأنها حطام إنسان .. تحلق بعينها ولا ترى فتعج شعيتها ولا

تحنق

والعمة تصر ب كما بكف وتنظر إلى أبيها في دهشة وتقرب إلى حوها وهي

تحاول طمأنينهم .

— هو دائما بيول . إن شاء الله سميحة

و سميحة تروح وتعدو . لتحصير شيئا أو تغفل شيئا وهي في شبه دهول

وسيدة تقف من ورائهم جميعا .. تحلق في وجه الرجل الراقد .. بالطاقة

فوق رأسه وعينه مغمضتان وحليط من الشعر الأبيض والأسود قد تآثر حول فقه . وأنفاس تتردد في انتظام يسمعتها صدره الذي يملو ويبيض .. وملاح وجهه بكل ما يكسوها من شحوب وهزال .. تتم عن السكينة والاسترخاء .

ماذا يرعج الرجل الكريم . ولماذا كل هذا ملع الذي يديه ؟

إنه لا شك يول .. كما قالت ابنته .

ويستوار الذي انطلق فيه حمدي يقلق الناس في مصاجعهم لم يكن له لروء . ومعت برهة .. لا يسهل حسانها بالرمس .. ولكنها بكل ما شجنت بها من التحال قد تكون دهرًا .

الجميع يرقبون في توتر والحد يبر رأسه كالطائر الحيس ويردد في عصبية — ماذا تأخر حمدي ؟ —

وتجيب العمة :

— هو الحق ؟ —

وبسود الصمت ثانية .. حتى يكاد يسمع تردد الأنفاس وتعود سيدة تندق في وجه السيد المريض .. بكل ما تحمل معالته من سكية . وصدره يملو ثم يبيض .. ويخو ثم يبيض . وفجأة أخذ المريض شهيقا طويلا . ثم أنطقه في رعدة طويبة أرحت جسده .. وشهيقا ثانيا ثم رعدة ..

وشهيقا ثالثا ..

وتطلعت الأعين إلى الوجه الساكن معلقة بهشعته وصدره . ومرت الثانية وراء الثانية ..

والزهو حيس الصدر . والشعتان مطبقتان لا تطفئانه .. ولم تفهم سيدة ماذا يحدث . حتى نصقت صرخة متحشجة من الحد وهو يهتف كالديب .

— خلاص محمد راج —

واهباز على مقعده خائرا بلا صوت يصدر منه سوى آه تفرح به كأنه

سكين يترقه .

واندلعت الأم في جنون تغضم الجسد الرائد ..

وهارت سحبة تن وغرق بأسانها بياضة الأريكة

مات الرجل يا سيدة

مات كما مات أبوك .

ولكنك في هذه المرة . رأيت الميت بعينك .

أبصرت كيف يموت الناس .

ليس اثوت فظيها كاسمه يا سيدة .

على الأقل بالسبب لمن يلاقه فعلا .. بقسماته الهائلة .. ووجهه الشاحب

الساكن أحد شهقتين . وأظفهما رفرتين .. تماما كما تفعل في كل وقت ..

وفي ثلاثة أخذ الشهيق كما يأخذه .. ولكنه لم يطلقه ..

العراق الوحيد بين ما تفعله .. وما فعله الميت .. هو أنه لم يطلق الرعدة .

بعد أن عيا في صدره شهيقا

يسك وبين الموت يا سيدة .. زمرة .. واحدة ..

إن أطلقتها حيث .. وإن حسبتها في صدرك صرت في عداد الموتي ..

عجبا يا سيدة . ما خطر ببالك من قبل أن حياتك مجرد رعدة

ولكن أذاك هو الوجه الأوحده للموت .. ؟

رعدة متحسنة . مخلوق استرخى واستكان وأعص عبيه . ومضى يديه من

كل ما حوته

أبدا يا سيدة ..

إن هذا هو الوجه المشرق للموت ..

الوجه المريح . المنقذ .. المخلص .. لصاحبه ..

أما الوجه الآخر .. فوجه أعير قائم . تعبر عنه هذه العاصفة من الصراعات

التي تصب الآذان . تعبر عنه الخلدود الملتظومة . والأيام المشقوقة .. والآهات

المكثومة .

لشد ما يتناقص وجها الموت يا سيدة .

وجهه يظل صاحبه بعمّة الراحة والخلاص . وآخر يلمس دويه بقمة الصباغ
والحرمان .

ابتلع الميت رعرته واستراح ..

وأغمض عييه وأصم أذنيه عن كل شيء . حتى عن عذاب الدين يكون
رحيله ويتوجعون لفرقة .

عجيب هذا الموت يا سيدة ..

لا تستطيعين أن تسميه حتى فرقا .

فالفرقة يستوى في آلامها طرعا الوداع .. من الأحياء ..

أما الموت عراقى .. يمضى أحد أطرافه في سكون وإرتياح .

ويتنزق قلب الآخرين من لوعة الفراق ووجعته ..

حرف يمضى .. دون أن يشعر أن هناك من يودعه . وآخر يتمنى لو فقد
الحياة قبل أن يودعه .

وجعته الموت يا سيدة .. ليست لصاحبه .

ولكن الوجع لمن يحبونه ..

ولم تذكر سيدة تصاعيل ما حدث بعد أن أطلق الأب آخر أنفاسه . ولكنها
تعرف أن دوى الصوات لم يقطع عن أديها حتى آخر الليل .. وقد أوى الجميع

إلى مصاجعهم .. وساد السكون الدار ..

ولا تذكر سيدة إلا أن الباب أغلق على حجرة سيدها

وأن العمّة .. وكانت أشدهم تماسكا قد صاحبت بها :

— ادھبي وبادى حمدي . قولى له لا داعي للطبيب .

وانطلقت سيدة بظلالها الصراخ إلى سيدي الأربعين حيث بيت محمود يك
المواوى فوق حائوت محمد البقال ..

ووجدت حمدي يعاندر البيت شارد البصر .. ووقفت أمامه لاهثة الأعمار
ونظر إليها متسائلا :

— إيه يا سيدة .. ماذا أتى بك ؟

و لم تعرف سيدة كيف تلقى إليه أنسا

لم تستطع أن تقول له . إن أباه مات . الرجل القوى الصالح
الصالح بالفناء .. مات .

لقد كان لا يطيق .. أن يفكر في رغبته المشؤلة العاجزة . لقد رفض دمه
قبول صورة أبيه مشلولا .. فكيف يقبله ميتا ..

لا تستطيعين يا سيدة أن تقولى له .. إن أباه مات ..

.. لا تجسرى أن تحزى بإط قلبه بهذا السكين ..

لماذا أرسلوك ورائه يا سيدة ..

ولماذا اندفعت أنت بقاء لتناديه ..

وعاد حمدي يسألك في صبر نادم .

— إيه يا سيدة .. انطلقى ..

أجل . انطقت يا سيدة . ليس معقولا أن تقضى أمامه هكذا لتخلف فيه

قولى يا سيدة ..

مزقته .. بالجملّة البسيطة .. « أبوك مات » ..

... كلمات سهلة .. يمكن أن يطلقها .. أى إنسان .. في أية لحظة .. لتضيع

في الهواء كالطفلة الطائشة ..

لكنها الآن .. تنطلق لتسفر في القلب ..

وبدا لها الوجه الشع لل موت . دى الخالب تنزع القلوب من الصمور .

وكرهت أن يواجه حمدي .. بكل ما فيه من بشاعة . ومريرة . وأنم ..

.. وأحست أن صوتها يحبس في صدرها . وأن وحشها ينشعب .. والدموع
تدفع إلى عييا ..

ووجدت نفسها وهي لا تقوى على أن تنطق باللعن الكريه
لا تملك أن تردد ما قاله الخلد حين احتسبت الرقرة في صدر ابنه الغيب

— خلاص .

وأستك حمدي دراعها يبرها في عنف :

— خلاص له .

— سيدى خلاص

واندفعت دموعها تهبس وجسدها يهتز بالبكاء ..

ولم يجها حمدي بل صرخ بغير وهي

— باها ..

وانطلق يندو تجاه البيت وهي في أعقابها .

وكان صوت الصرخ يسمع من بعيد وعندما احتارا اندخل كانت

بعضة مفاعد قد رصت في الفضاء .. وأناس يروحوون ويخفون ويصعدون

الدرج ويبيطون ..

واندفع حمدي يصرخ صرخات موحدة :

— باها ..

واندفع من باب الخجرة يرتجى على ملافة البيضاء التي عطي بها الخلد

وسرعان ما جديوه من الخجرة وصباحات تلاحقه مهدئة تارة . راحة

أخرى ..

— ويعدى يا حمدي . أنت راحل

وصوت آخر

— عيب يا حمدي . بلاش كده

وصوت آخر .

— سيوه . هو حايلاق مين بعده

والأم كن أبها موحدا كحيوان جريح ونهت في وجهه

— أبوك يا حمدي .. سابا

ثم تقول في عتاب أليم .

— ليه ياسى محمد . ليه يا حبيبى . ليه يا أمير . يالى عمرك ما عيت في

حد . ولا رعت حد ..

والخلد يرفع بصره إلى السماء وقد تحجرت الشموع في عيبه ويقول كأنه

يتحدث إلى من يخصه :

— أنا ما عملتش همت حاجة . ليه تعمل في كده ما تاخديش أنا ليه ليه

سايى ؟

ويقرب منه عبد الرزاق الذى يرت على كتفه في رفق :

— يا حاج .. قل لنا لله وإنا إليه راجعون ..

وصيحة تحبس مكشمة وجسدها يتر كلطو جريح في عاصفة وصعاء

تخطها بنواها يخنو وهي تفرب الذمع بجوارها .

أصوات تتوجع . وأهات تن ..

هذا هو الوجه الكريه البشع . للموت يا صيلة ..

ثم ترهب في رحيل أيدت مثل هذه الشاعرة يا صيدة لأنه لم يكن هناك الكثير

من يعكس عيبيهم هذا الوجه البشع .. دلال أطنفت صرخات جوفاء

والأقارب حاولوها . كأنها عتافات في مظاهرات . والباقيون أطلقوا

مدانيات ترحم واستعمار وأدوا عنهم كأنهم في مهمة يجب أن يؤدوها

بإتقان .

وهي . وقتت ترقب رحيل أبيها مشدوعة . جامدة النظرات كأنها

ترقب مشهدا مشوا .

دعب أبوها . مستلقيا في صدوقه على أكتاف الناس يوجه الموت المريح

” ولم يجد الوجه البشع . ما يعكس عليه :

ونحت عملية رحيل أبيها . كأنها . ثأث يفل أو مولد بعد . أما رحيل

هذا الميت .. فوجهه البشع أليم .. أليم .
وأحسنت سيدة بقلها غمزة فلوحة كل كلمة من أجد . يعاتب بها الله .
كل صيحة ألم من الصلة تادى بها أفعالها ..
كل آهة جرع من الأم . تستدعى بها الراحل أن يتحمل
كل دمة من سحبة تسمى في صمت على أياها الحبيب الرقيق .
كل نمة من حمدي يكبتها في صدره .. وكل صيحة مكتومة ينادى أباه .
وكأنه يستجديه البقاء .
كانت سيدة تحس بها طعنات تمرق أحشائها ..
وكانت تود لو دحنت إلى حجرة المسحى تحت الملاحة . تبعث في صدره
المررة المتحيرة . وتسال الله أن يقيه . من أجل أولئك الطيور الذين يحتاجونه
ويحبونه .
وكانت تود لو استطاعت أن تصممهم جميعا إلى صدرها ..
ولكنها لم تكن تحفل من أمرها شيئا ..
لم تكن تفت سري الذم . تدرفه وهي تتحرك لتؤدي ما يطلب منها .
ووسط الصرخات والأهات والأناث ..
كان أناس يتحركون ليعملوا ما لا بد من فعله ..
بفس الأشياء التي أعدت لرحيل أبيها . للنصبة دامت الأرجل المطوية .
واللوف . والقماش .. والصندوق ..
وصحيج وأصوات تملو . وقرآن يلى .
وغرور يجر ليذبح أمام الباب فوق الدرج .
والصندوق يهبط فوق الأكثاف ..
والأم ترغم في جرع حوى عليه .. كأنها تود أن تحبسه قبل الرحيل .
وصراخ يعلو بعظاعة .
وصحيج ماله من آخر ..

وأناس يتراحمون في الفناء وفي الطريق .
ويسرون وراء الصلوق انهمون على الأكثاف ورجال يحسبون المحاسن
ويرتدون القنوط الحمرء
وحمدى يندفع كالصاروخ ليعذب وراء المعش دون أن تمنع الأيدي في
الإسناك به . وقد ارتدى على رأسه طربوش أبيض . وانظربوش الآخر فوق
الخشبة
وصوات .. وصوات .. وصوات ..
وفي المساء صوت العقبة يعلو في السراق الذي نصب أمام البيت
وقاس يعصون ..
والصمت يسود في آخر الليل .
إلا من أنات موحجة تصدر من البيت الساكن . وصدى الصراخ يعلو في
الآذان
وفي الصباح .. سيمت يفتش بالأسود يقبس لعمراء . وعربد من
الصرخات تنطلق ..
والأسود يكسو بإصوات الفلار
ويوما .. بعد يوم .. تنقطع الأقدام الزائرة . وتوجه العربة
ولا يبقى غير الصمت والأسود .. والدمع المساب .
والعائب . موجود في كل مكان .
يخس به في كل ركس من البيت في الحمرمرون . وحديد والنياب ..
ومع أحزان العربة . أفلت مشاكل العيش
اليوم الأسود قد أقبل
والفرش الأبيض . قد راح مع العزيز الراحل .
كانت الأم تنح على المناس
وكان الرجل يؤجله

وأصحبى على الأسرة أن تدير أمورها ..
مصاريف العيش والسكنى ومصاريف الدراسة لعمدى
وكان على الأسرة أن تترك البيت لتعيش بخوار المد حتى يكون أقدر على
رعايتها .
وبدا الإعداد لرحيل من البيت بعد أن رحل عنه أمه من به

(١٨)

كلمات طائشة

على ظهر إحدى عربات الكارو استقرت سيدة فوق الأثاث تشق طريقها من
جنية ناميش إلى روض الفرج .

وكانت حواري جنية ناميش وجنية لاذ وشارع الخليج وجنية رشيد وبقيّة
العوالم المحيطة من حي السيدة ريب هي أقصى ما تعرفه سيدة من معالم هذه
الأرض . وعندما تجاوزتها وهي تغل عليها من فوق العربة الكارو . وبعد أن
ألفت عليها نظرة وداع حريمه .. أحسّت بأنها تنحصر محال متشابهة القسمات لا
تميزها علامة ولا يهدي المرء في طرفاتها دليل .

أخيراً . خرجت يا سيدة من محيط المألوف . دى الحواري الصبية
تدفعها أمعاس الناس ويؤس وحشها صحيحهم . الحواري التي رتعت بها صدأ
وعبت على هذه الحياة . حواري المازدى والمدبح وشارع المد والخليج
وحارة السيدة .. حتى الميدان الكبير الذى يستقر فيه الجامع وبائع الكشري أبو
حبة الذى كنت تعتبره أقصى الأرض .. والذى يبدو ما وراءه كأنه قارات
مجهولة لم تستكشف بعد .

خرجت من نطاقك يا سيدة إلى عالم جديد غوص فيه على ظهر العربة المكسدة
بالرأس والدواليب والكراسى . تحلين صهوتها وتطيرين إلى الخلق من عل ..
وكأنهم حراس يحفون بك كيك .

دكاكين على الأحباب وأناس يبيعون وأناس يشترون وباعة متجولون يتادون
في حماسة وعجلة وكأنهم يريدون أن يتقدموا ما يدهم الناس . ودراجات
وسيارات وعربات ترام ورمامير كمسارية وباعة يقفرون من سقم الترام ليبيحوا

www.mlazna.com
^ RAYAHEEN ^

على الأرض في تودة وكان حرجهم هي الميوط من سلم الترام .

(إيز وابور جاز) (مشاك عسيل) (ساسة وأهرام سياة) (حبة وطارة الصميت) (يا عب وقد ييض الحمام يا عب) (طلعت أجيح ترعى لقيته لور)

صباحات تخطط كنمنها وبمعانها في أدن سيدة .. معبرة بين آونة وأخرى من العربي لحماره (ضى يا تناح الكلب .. قلناك حيا) .

وسيدة تنظر في كل ما حولها مذهولة ..

ديا واسعة يا سيدة .. هذه الفاهل التي تقع وراءه للبدان للكبير . ما ظلتها بهذا الشكل الصاخب المزدحم .

ولو أتركت هذا الرجل الذي يسير في ثقة كأنه يتره في شارع أبيه . والذي يمارس السيادة على حمارة يجر وير مور كما كانت تعمل معك أم عباس لا أرجعها الله ..

لو أتركت الرجل يا سيدة لما استطعت أن تعرفي أين أنت ولا أين تذهبين . وكل ما عليك هو أن تستفري على ظهر الأثاث لتخوضي منه هذه الفاهل حتى يوصلتك إلى البيت الجديد في روض الفرج .

والرجل لا يأبه لك كثيرا .. فهو قد قبل وجودك على ظهر الأثاث كفضلة منه . وهو يكاد يسي وجودك .. في إهماله مع حمارة ومع من حوله من المارة .. والباعة .. وفي أحاديثه معهم شائفا أو مشغوما .

وأخيرا وقعت العربة أمام سور مرلقان سكة حديد .. عرفت من حديث شعري مع زميل له أنه مرلقان السنية . مد الرجل يده وأخرج من خرج أسفل العربة حزمة برسيم . بلوغا للحمار قاتلا كأنه يمس عليه :

— خذ .. حمارة في جنتك .

والتمت إلى رجل يجلس على مقدمة عربة جاز قاتلا وهو يخرج عنه دخان ليلف سيجارة

— قداما ولا نصف ساعة مرلقان خمس . عسى افوت عليه مرة والاقية مفتوح .

ونظر إليه صاحب عربة الجاز قاتلا في سخرية :

— ومستعجل له .. وركب له ؟

— وانا رارق المبال .. لما تنطلع هنا نص ساعة وهناك نص ساعة . صاع اليوم .

— بكوه يعملوا المنفق ويرمكوك .

— موت يا حمارة لما يمينت العليق . بفاهم سين وهم يقولوا حيا يعملوا المنفق .. وأدى احنا رايمين جاين على المرلقان .

— والخصى ده للى حيا يعملوه . ما هم يقولوا حيا يعملوا ميت ألف حاجة .. ولا يعملوش حاجة أبدا

ومر باتباع عرقسوس يصرب الضاحات الحاس بيديه . ويصيح بصوت معه (صخر - شعا) وتمت سيدة والشمس تصرب في رأسها وقد أخذ العرق يتصبب منها لو أنها استطاعت أن تتاول كوبا من القدر التي وصحت في فوهتها قطعة الثلج تيرق في أشعة الشمس .

ولكنها كانت تعرف أن الرجل لا يشجع على أن تطلب منه شيئا أو تشعله بشيء .

وأنى القطار وضع المرلقان . وعادت سيدة تمر رحلتها في الفاهل المصطخة بصراعات الباعة ورجام العربات .

وطال بها السير . وبادت الرجل تصيح به متسائلة وقد أنهكها الحر والاهتزاز .. فوق العربة :

— قاضل كثير يا عم ؟

— خلاص .. احنا وصلنا طوسون . حانعود على روض الفرج . وسأل على شارع الكركي .

وبدا الرحام يتفقد وحلت الطرقات . من البعة والعربات . وأحدثت العربة
تخوص في شوارع تآثرت بها البيوت . وسط أرض خلاء تتكاثر فيها الحفلة ..
وبدت في ناحية منها حقول تترامى على مدى البصر ..
وتوقف العربي قليلا وهو يتفقد بصاحب بقالة قد وقف داخل حائوته :
— وحياة والدك .. أي شارع الكركي ؟
— قدامك

ودخلت العربة في الشارع .. وبدت وسط البيوت التي رصت على جانبيه
ساقية قديمة عاطلة . وأحد الرجل يمحس أرقام البيوت حتى استقر أمام بيت في
نهاية الطريق قائلا :
— هذا هو ..

وعتقت سبحة وهي تجهد سمحة تقف في شرفة واطلة بدا بعدها سور عال
تكتأف عليه أوراق اللوز الخضراء الداكنة بأزهارها الصفر :
— ستي سمحة .

وأجابتها سمحة متسائلة في لفة :

— لماذا تأخرم هكذا ؟

ورد الرجل بإهانة عنها :

— المزلقات مقبول . ولطعا أمامه ساعة .. والطريق مزدحم

ودخلت سمحة من باب الشرفة وهي تقول :

— سأطبخ بيبة لأها شغلت عليكم .

وكانت الأم قد أتمت تعذيب الشقة مع سمحة والعمة وبناتها الكبرى حديثا
وحادمهم جاب قد روت ما وصى من أثاث وجلست تنتظر آخر نقلة للأثاث
تعمل سيدة بعد أن أوصدوا باب البيت القديم وسلموا مفتاحه للبوابة .

كان البيت صغيرا محفصا ملاصقا لسور حديقة طوسون وكان الحى كله
يقع على حافة الدراع المحيطة بقصر طوسون الذي تحول إلى مدرسة شيئا

الثانوية . وكانت الحفلة بأوراقها الحادة الحادة تنتشر في الأرض الخلاء المتناثرة بين
الدور متوسطها الأبار المزدومة يبقاها السواق تقوم فوقها
ويخترق الحى شارع روص المرح الرئيسي يتوسطه الترام المتفرع من دوران
شيئا يشق طريقه إلى ساحل روص للفرج .

ويبدو الحى كله خليطا بين المزارع والبيوت بحس المرء فيه مرائحة للأرض
والزروع وسط الدور وعربات الترام وحوايت القالة ودكاكين المربين والمحصرمة
والجزائرين .

وكان البيت الصغير رخيص الأجر قريبا من المدرسة التي سيلحق بها حمدي
قريبا من بيت الجدة الذي يأوى فيه العمة وأولادها .

واستقرت الأسرة الصغيرة في البيت الصغير الخزين حرمها بالأعطية السود
التي كست أثاثه . حتى دواب الكتب التي انتقل بها حواء قد أسدلت عليه
ستارة سوداء تحجب عن الناظر إليه ألوان أغنية الكتب المروضة على رصومه .

حرمها بالدموع تهمي في صمت من مائق الأم .. وكأن عبيها صبوران
تالغان . حرمها باستكانة الدل التي تبدو على ملاح سمحة وهي تتحرك كالشبح
لتؤدي ما عليها من واجبات .. حرمها بوجه حمدي المنقلب الخزين يرح به من
البيت ويعود به إلى البيت . ويسر به وحيدا تحت أشجار طاعو الحديقة بمدرسة
شيئا . حتى صباه الطفلة (الخزين) بعد أن تجمد التحنن والحنن في ملاحه بحيث
استقرت قسماته في وضعها الخزين بطريقة طبيعية لا جهد فيها ولا تكلف .

حرمها بالحد القادم إليه يدق الأرض بعصاه وهو لا يكاد يتفلسف من مكانها إلا
بمشقة تحت ثقل جسده المصل عليها في كل خطوة . وقد بدا أن ثقال سوات
عمره الطويل قد حطها للمصاب مرة واحدة على كتفيه . هاهنا . وباتت
حركته الوثيلة توحى كأنه إنسان يمر في أدهاله مصائب فرس .

حرمها بالإحساس الخفي بالحاجة . وبأنه لم يعد من حق أحد من هذه الأسرة
الصغيرة أن يشعر أنه يريد شيئا .. أو أنه يحس أن شيئا ينقصه . لأن الإحساس

الأصيل الذي تولد في عوالمهم . هو أن استمرار وجودهم لحياء مستورين
 مة تستحق الحمد . وأن مجرد تحقيق الضرورات .. هو فضل من الله . كان من
 الممكن ألا يكون .

ومع كل هذا .. سارت الأيام . بالأسرة الصغيرة الخربة . لم يتوقف بها
 الدهر . بل استمرت الشمس تشرق عليهم .. وتعرب بهم .. ويوم يموت بعد
 يوم . وحده يهود من المدرسة ليأكل . ثم يقف في الشرفة .. يرقب الضيف
 شارد النظرات . تصل إلى آدانه نعمات . بدأت تنقص بكل ما حوله . وكأنها
 تشارك في رسم ظلاله وتحدد معالقه .

بالج حصص الشام ينادي بطريقة مضمة :

(كبشة بديم يا حصص الشام) .

وصوت آخر يليه بنغمة أخرى :

(لليلة يا هال الجوزية .. يا عال لليلين) .

ويصعد إلى السطح ليقتف مستندا على حافة السور مطلقا بصره في مزارع
 القصب تتأهل أطرافه في مهب الريح فيبدو كموج البحر حركة بلا مسيرة وإلى
 غير هدف وبست الخيرة يكسو الأرض مسطحا في حصرة منظمة صائبة
 ووراء مزارع القصب يبدو سور قصر طوسون الذي يهيم المدرسة وقد
 تكدمت داخله أشجار الماعبر المتكاثرة يتوسطها مبنى القصر الذي بدت أطرافه
 من بعيد .

وتحدر الشمس يبطه في مسيرتها المادئة نحو الأفق العربي . وأشعثها الحمراء
 تبدو وهي تنكسر على أطراف القصر وقسم الأشجار كأن رحلة النهار قد
 أرهاقتها .. فهي تجر ديولها على الأرض في استرحاء المجهد بأوى إلى مصححه
 وحده يرقبها شاردا . ومادة البيت الملهوور تحوم في دمه عليها تجد مكانها
 في معرب الشمس . والذهب يتصيد بها شبح العائب يفتت منه نارة ويطل عليه
 أخرى

وإحساس بالخرن يرسم في باطنه .. كجزء من كيانه . يسرى مع كل
 فكرة تدور في دمه . أو رغبة تبص بها مشاعره .. أو أمل يرلود نفسه .

بات الخرن . إحساسا طبيعيا له . هو الأصل في قلبه وكل إحساس سواء
 طاريء غريب .

كان فقد أنه صدمة مروعة له . تركت آثارها عميقة في باطنه .. وفي كل ما
 حوله .. وعلى كل من حوله

انتهاء الرجل نفسه .. كان مفاجأة .. عبوة القبول .. صعبة التصور ..
 بكل ما يمثله من عناصر الحياة والثقة والبقاء ..

أن يكون ما يمثله من حقيقة الوجود .. شيئا ثابتا حيا . مرتبطا بهذا الكون
 بأوتق أواصر الحياة . بالحركة والحب والرغبة والأمل . ثم يرحح حياة بهذا
 العف والقسوة . ويعبر مير ولا منطق . ويبقى في عهاض الصباغ . أمرا كان
 في حد ذاته . يملأ نفسه بالمرارة والصيق والسخط على مطلق الحياة

ثم . أن يرحم عجاة . من ألحوب الناس إليه وأوتقهم صلة به . ليجده في
 لحظة مله حياته . وفي اللحظة التالية شيئا لا وجود له . كان أمرا عموفا .
 موجعا . دفع في نفس حمدي نوعا من اليأس يصعب اجتثاله والخلاص منه .

اليأس من كل شيء .. ومن كل رغبة .. ومن كل أمل . -
 عندما يجد أنصبا عجاة عاجزين عن أن يرى أوتق الناس صلة بها ..
 وأقربهم إلى قلوبها . عاجزين أن يراهم الآن .. وغدا .. وبعد غد . وفي الشهر
 القادم .. والعام القادم .

عاجزين عن أن تراهم .. أبدا ..

شيء مرير .. يصعب قبوله ..

ثم . أن يجد فقد هذا التعرير بعد هذا كنه قد أحاطا . بأسراب
 والسواد . والدموع . والوجوم . والخوف القائم من العد . والشك الدائم
 في أياما القادمة . وما يمكن أن تظن عليها به . تجد عملية العقد قد خلصت

اليأس في عوامة بالجمرد .. وبرقص كل ما يمكن أن نغمو عليها به الحياة . في خصم
أحزاسا ومواجبا .

ومثل هذا الشعور باليأس والجمرد وخاصة الحياة كان حدى يقف
ليزق من غرب الشمس .. بكل ما يذمه في نفسه من الذكريات . تسلسل من
المساعدة .. بشبح العائب . يظل ويخفى .. ويحوم في الدغى .. حوم الهائم لا
يستقر له قرار

لم ير حدى صماء مد أن رحل عنها إلا مرة واحدة في الأربعين عليها
حصرت وأنها وسط حشد النساء المتشحات بالسواد المواتي قدس للعرء وأقبل
عليها وحيدا كما يحيى الغرباء . ولم يعرف كيف يمكن أن يراها بعد ذلك بل لم
يحبس في قرارة نفسه أن له الحق في أن يبعث عنه أى نوع من العراء وانتعة والأمل
في أى شيء . وهو يشعر بالعراء العظيم الذى يعيش فيه . ويتقدم إليه . بلا
بارقة ضوء تلوح في آخره ..

كان يحس أن مجرد مواصلة الحياة .. قد باتت في حد ذاته أملا ليس من السهل
بلوغه ..

لقد باتت ضرورات العيش التى كانت تمارس بغير عاء . وتحقق ..
كثيرة مسنم بوجوده . باتت هذه الضرورات . أملا عسيرا . يحتاج إلى
تفكير دائم وجهد مستمر .. وتوارت إلى حوزة بقية الرعيات والأمال .
وأصبح الاستسلام إلى التفكير فيها والانشغال بها . نوعا من النرف .
ومعصية يستحق مع استلاء نفسه باليأس . ونفرد روحه على الحياة — أن يبقى عن
ارتكابها ويرجر عن إتباعها

كانت مواصلة الحياة . قد باتت أهم كثيرا من الاستمتاع بها .
مواصلة الحياة بصعلة جيهايات معاش استثنائي . وبصعلة أخرى محاولة من
الجد الذى يكاد دخمه من حانوت المائعاتورة يكفى ابته وأولادها
حيهايات تحتاج إلى ساحر كى يدير بها الحياة . بطريقة تحفظ للأسرة ماء

وجهاها . بيت نقيب .. ولقمة نظيفة وهدمة . لا تغفل أصحابها .
وكان على حدى . أن يستذكر لكى يجمع .

وعما مضى كان يستذكر لكى يجمع حتى يحقق أملا يملؤه بالفرحة
ويصير طريق مستقبل أمامه .

ولكنه الآن أحس بأن عليه أن يستذكر لكى يجمع . خوفا من أن تصعب عليه
المحاربة التى سعى أصدقاءه إليه لكى تحل له . خوفا من طريق مصمم يمكن أن ترداد
ظلمته .. كان الدافع له في حياته .. هو الخوف .. بعد أن كان الأمل .

ومن أجل هذا كله كان عليه أن يطوى صماء بكل ما غفله من مشاعر
وأمال . في باصه . وأن يستسلم لنحرمان منها كما استسلم
نحرمان من بقية منصات العيش وساحب الحياة .

تعد طواها في باصه . ولكنها مع ذلك استمرت موجودة . يستمد من
وجودها — عن غير وعى — حسا بشيء من العراء . ويصير من الأمل
قد يجلس على مكنته ويمسك النقم فيحفظ به ساحة ملاح وجهاها
ألمها الدقيق وعيها الواستين

أو يمسك بالقاموس . يفرق أوقافه حتى يصل إلى وردة جمادة تنبع بين طياته
وقد يقف على سور السطح الذى رحمت عليه أوراق النوف الخضر . تداكنه
وأزهاره الصبر وكبرانه المستطيلة ليداعبه في غرب الشمس طيفا يسرى مع
الشعاع والنسيم .

ظلت صفا .. أملا يطوى .. ولكنه موجود .

حررة كساعا الرماد . ولكن ما زال الدفء في قلبها .
حتى صاع الأمل . وصاع الدفء في جوف الرماد
في عصر يوم في أواخر الخريف

والسحب تنف يضاء تعدو في صعقة السماء . والنسمة حرة رصة تمس
برودها الخلد ولا تعد إلى العظم كريح الشتاء اللاسعة .

وحمدي قد عاد من المدرسة مجتازاً دهليز طوسون الذي تقوم على جانبيه أشجار العتة الشائكة لتفصل أشجار الخديفة المغيبة بالمدرسة عن المزارع . يسير بجوار ابن عمته عماد وصاحبه صلاح أقرب أصدقائه في دراسته الجديدة وودعهما عند نهاية الدهيز وسار كل في طريقه وأنجه حمدي إلى البيت .. وعند وصوله إلى الباب رأى سيدة تلتفت مسرعة إلى الطريق ..

وسأها مستفسراً :

— إلى أين ؟

— سأشتري كازوزة من عند علام .

— لمن ؟

— لست صفاء وأميها .

وانفضى حمدي .. ودعيت هذه فلة أكثراته وهمت سيدة بأن تعدو ولكن حمدي جذبها من كمها قائلاً .

— مني حضرتا ؟

— الآن .

— هل معهما أحد ؟

— كلا .

وازدرد حمدي ريقه .. ثم عاد يسألها :

— معك نقود للكازوزة ؟

— سأحضرها شككت قالت في سبقي . أحصرى راحة وسفرغها في كبايتين

ومكر حمدي برهة ثم قال في حرم .

— أحصرى رجايتين .

— ولكن سيدتي

— فلت لك أحصرى التين . سأدير أن أئمن الثانية .

وكانت الأم تقوم بعمل الساحر الذي يدير من الجنيات القليلة . حياة الأسرة ومطانيها .

وكانت تديرها هذه الطريقة .

رجاحة كازوزة واحدة غلاً كبايتين

والمطار .. بقرش تعريفة . أو أقل مول مدمس .. وغلاً السصينة

مول .. ومية مول . ويوضع عليه الخريت أو السمس

أما بقية الأصناف التي تصاحب المول .. فحواشي مبعوعة . ونزف لاروم له ..

مجنوع البيض .. مجنوع الجينة .. مجنوع الزيتون .

وبائع المول . عم ملكث .. بحرية اليد التي تنوسطها القدرة يقف عن

الناحية .. متكناً على يد العربة . هو مصدر الوحيد لمطار الأميرة .. وهو

بقامته الطويلة المنية ومعرفته في يده يدعها في حواف القدرة متصاعد منها

الدحاح . بملا السلطانية في كرم . ولا يتم الدفع فوراً .. بل يقيد في دمه

حساب بيوت الحجة كلها .. مستمداً في ذلك على دعمهم وداكرته .

وعطائفه يطوف بحرية الحمار . صوته مكر وسداؤه غير مفهوم . ولكنه

رقيق طيب بملا مطاس الحار ويحوّله إلى الصميدة . ويغني ويخرج .. والنس

يدفع له عندما تكون النقود جالعة .

الساس طيسون . والباعة طيسون . والخفاة يديرها الساحر ببصعة

الجنيات .. وبفضل ما يملأ نفوس الناس من طيبة وإحساس بالثقة والمودة

وانطلقت سيدة إلى علام بائع الكازوزة . وعبر حمدي الباب وهو

يتحسس ثيابه ويجمع طربوشه .. ويساوي بكفه شعره .

ولم يحس بطمأنينة إلى شكله ومظهره .

البدلة تدور رنة . إحدى بدل أبيه التي أُنصحت لكي يتنعم بها . وتومر

نقود تفصيل بدلة جديدة .

وشعره منكوش أسفل الطربوش . وحذاء مشرب من تراب دهليز طوسون ..

وهز رأسه في يأس وهمهم لنفسه :

— يعني جت ع الشكل ..

ودفع باب الشقة .. ليجد أمه تجلس على الأريكة مع أم صماء ... وهتت السيدة مريحة وهي تصمم حمدي إلى صدرها قائلة في حان

— اريك يا حمدي .. اريك يا حبيبي ..

— الله يسلمك يا تيزه

وقالت السيدة معاتبة :

— خلاص .. سبت جنية ناعيش .. وأهل جنية ناعيش .

— أبدا يا تيزه .. لكن المذاكرة ..

وقاطعتها أم صماء قائلة :

— بلاش حبيب . لقد قالت لي أمك إنك تحضر إلى السيدة في بعض الأحيان لزيارة أصدقائك .

— ليس كثيرا .

— إدد مر عينا . ألا تعتبرنا أصدقاء ؟ ..

وتدخلت الست فاطمة قائلة في عودة :

— أصدقاء فقط .. نحن أهل .

وردت صماء :

— صبا أهل .. ولو م يكن كذلك لما حشرت إليكم لأخبركم بحطبة صماء .

ومرت الكلمة على مسامح حمدي ببساطة لأول وهمة . ولم تعد في نفسه صدى لها . ولكن بعد برهة أحس بشيء يلتوي في أحشائه ووجد نفسه يردد

ريفة بصعوبة وهو يتسائل :

— صماء خطبت !!

— أجل . عقبال سميحة .. وعقبالك إن شاء الله بعدما تذهب إلى الجامعة وتخرج .. ونراك موظفا قد الدنيا ..

وعاد يردد السؤال نفسه دون أن يتناول على الخروح من شبعه

« صماء خطبت » .

ولم يكن الأمل فيها برلود معه . كان دائما يتوارى . كان يتركه للظروف التي قد تنمخ في زمانه يوما وتوهج جهرة ..

ولكنه مع ذلك كان موجودا ..

غيبا .. ولكنه مختبر .

بطوبه الرماد .. ولكن لا يغنيء جدوته

ولكن .. ومن غير ماسة . ودود أن يطمع في أكثر من مجرد وجوده كأمن مطوى . لا يملك حق الاستمتاع به

تطلق الكلمات البسيطة لتفصي عليه شجسته من جسوره . ثوقوف بهاته وتطعم جدوته

هذه الكلمات البسيطة .

تطلق في طيش تصيب في الصميم .

ذات مرة .. أبوه .. راح

وطوى الطلقة في قلبه .. وانقطع دماؤه في باطنه

ومن جديد .. تطلق الكلمات البسيطة . تنطق طائشة .. وكأشها مجرد عن استنق في قلبه ..

ومرة أخرى بات عليه أن يتلعها في مكون . وتنفذ دماؤه في صمت . وفي عرج حله ولا صحيح .

ولم يملك سوى أن يردد ريقه مرة أخرى

أو على الأصح يردد دموعه . ثم يقرب باهتمام لا تعرف معنى الاسم .

(يحى لأمروء الشوك ج ١)

— مبروك مبروك باتيرة

— الله يبارك حيث يا حمدي

وتردد أمه ببساطة :

— ربما يوفقها يا حمدي .. صفاء طيبة وبست حلال

ورددت أم صفاء :

— العربي أيضا ابن حلال . لا بد أنت تعرفه يا حمدي . إنه مدرس في

الثانوية فللكية .. مدرس رياضة .. اسمه محمد عبد الحميد .

وردد حمدي الاسم في ذهنه .

— محمد عبد الحميد أجل أعرفه . لقد درس له في السنة الثانية . إنه

رجل ممتاز .

وعاد حمدي يردد الاسم نفسه :

— محمد عبد الحميد . مدرس ثانوي . وأنت يا حمدي ما ريت ضابط

ثانوي .. منافسة غير معقولة . وانقارعة نوع من الصلح

إنه فعلا مدرس ممتاز شكلا وحيفا

ولكني تصبح مثله أمامك كمناج سوات طوبى . وقد تصل أو لا

تصل .

وصفاء .. حاضرة

ليس هناك ما يدعو أبدا . إلى أن تنتظر سوات كفاحك الطويلة .

من أجل ماذا ؟

من أجل الحب ؟

احب شيء كبير يا حمدي .

ولكن في نفوس أصحابه فقط .

أما في نفوس الغير أمام واقع الحياة . كمستند للاختيار ووثيقة تعامل بين

الباس في حياتهم التي تحكمها آلاف المفاهيم والاحتياجات غير

هريل مصحح

هل يستطيع أحد أن يقول غدا الصيلة الطيبة السعيدة بابتها لأنها ستروج

رحلا عاقلا ناهجا . أن تنتظر سوات حتى يجمع حمدي ويخرج . لأب

نبيه ؟

ولمادا هو ؟

لمادا لا تحب الأستاذ عبد الحميد المدرس ؟

لقد أحببت أمها أباه .. بعد أن تزوجته . وعاشت معه هذه السنين

الطوال .. على وفاق تام .

وكذلك تزوجت أمه أباه . ولم يكن احب بشكل عصا من عصا العلاقة

بينهما .. كانت عصا العلاقة .. أشباه كثيرة غير الحب . أمها بالسنة

لأبيه .. أن تتركه أمه في حالة .. وأمها بالسنة لأمه . أنه يقبل . ويكذب عن

التبليغ .. وأن يتركها تنظف البيت كما تشاء .

ما هذا التناقض العجيب بين ما يملأ أذهاننا وقلوبنا . وبين ما يقع به الواقع

و لم يملك حمدي سوى أن يطوى الأفكار المتصارعة في ذهنه وأن يكرر ما

قاله

— مبروك باتيرة .

وعادت أم صفاء تردد بإخلاص .

— الله يبارك حيث يا أمي . ادخل بارك لصفاء . إنها تجلس مع صبيحة .

وانته حمدي إلى حجرة صبيحة . ليلقى صفاء . بعد أن بددت الكلمات

الطائشة أمله المطوي . وأخمدت في باطنه . جدوة . لم يحاول قط أن ينفذ

نفسه بوجهها .. ولكن كان مجرد وجودها يقيه من لسعة اليأس

(١٩)

عرش من قش

أقبل حمدي على صعداء وقد جلست بهوار مريحة على طرف العرائش
ومد يده إليها وقد رسم على شعته ابتسامة بدل كل ما يملك من جهد لكي
يجعلها تعبر عن الكلمات التي يطق بها :

— مبروك يا صفاء .

ومست كفه وكفها والتقت عباها بعينها الراستحين .

وأجابه في استسلام حزين .

— الله يارك فيك .. هل أخبرتك بـ ؟

وتعلقت عباها بعينها وأصابه بأصابها وهر رأسه بالإيجاب .

عزيز آخر .. تحم عليك أن تشيعه يا حمدي تشيعه وهو حي . جميل كما
تعودت أن تراه .. رقيق كما تعودت أن تسمعه .

عش في هذه الحياة أحرار يا حمدي ..

أكبر من فينا أحرار ...

وكل ما يملكه في الحياة وهم ..

ورع مكية .. ما تحبب أننا نمك . هو قاعدة الحياة

برع ما نعر ما سبب لا نعرف لأي صالح .. ولا بأي منطق . اللهم إلا
منطق البحث أو الاستفسار .

ومضطر أنت إلى التسليم .. لأنك لا تملك سواه ..

أصرح وأطلق الآهة من أعماقك . انزل ذلك . فردد أن تعمل شيئا .

ونكسك في النهاية لا بد أن تسلم .. لأنك عاجز ..

عن أجراء .. وعجزة . في هذه الحياة .

فعل ما ينجم علينا أن نعمل .. وأحد مقابله من الحياة لقمة ... ولحظة
متعة .. ونظر أنفسنا أصحاب حتى ملاكا لمصادر نعمتنا .. ومتعنا ..
وبخبرتنا السيئ .. والمرور .. وفي ثانية . نجد حقا قد سلب .. مصدر نعمتنا
الذي ظنا أنفسنا قد امتلكناه . انتزع ببساطة . ونجد أنفسنا نقف بعمره .. لا
نعرف لماذا ..

لماذا امتلكناه .. إذا لم يكن من حقنا ..

ولماذا انتزع منا .. إذا كان من حقنا .

ما من إجابة هناك يا حمدي . لا ترهق فمك لتعرف لماذا .

لقد كفرت بالتفكير .. وبكل شيء .. حتى بالخزن

إن حرمك قد بات قطعة منك ..

أنت حزين بعمر جهد .. حزين لأنك لا تعرف ماذا تفعل سوى أن تحزن ..

مبروك يا صفاء ..

يا حبيبة القلب فيما مضى ..

يا مصدر النعمة السابقة .

أقام لك الدهر من شعاعه . عرشا . وصاغ لك القلب من شعاعه تاجا ..

وحملت له ألوهامه . أنه سيصنعك ملكة على مملكة حياته الواسعة المليئة

بالأمان المحضراء والآمال الزهراء الياقة .

عيل إليه كل ذلك يا حبيبة القلب باعتبار ما كان .

فاذا بالعرش الذي أقامه لك عرش من قش وإذا بالتاج تاج من ورق .. م
يتحملا نعمة واحدة .

طارا يا حبيبة القلب .. أمام هبة ربح .

.. وإذا بالمملكة المحضراء . يباب . والأغاني بواح . والأمان حطام

خطأ من البداية . أن ظنا أنفسنا عرورا أصحاب مدك . وعش في الحياة

مجرد أجراء

خطأ لأننا حططنا ورسمنا ورسمنا .. على أرض الحياة .. ونحن لا نملكها ..
وإنما هي التي تملك . تملك أن ترعى من موتها . في أي لحظة . كما فعلت مع
الرجل القوى الصالح الذي خسر أنه يملك كل شيء . فإذا به لا يملك
نفسه .. وإذا به لا يكون .. منه شيئا ..

ميروك يا صغاه ..

يا ملكة الأماني الصائغة . والآمال التي درتها الرياح

ميروك بلا دموع .. وبلا أحزان .

فالدموع قد جمدت في ماتقها . والأحزان قد احتللت بمشغرها . حتى
بانت شيئا أصيلا فيها .

وترك حمدي يد صغاه تسقط إلى جانبها . وأحست صبيحة أن كلاهما يود
أن يقول شيئا للآخر . فنهضت قاتلة :

— يبدو أن نية تبادي على من أدرك يا صغاه . ما أحصر حالا
وخرجت صبيحة .

وواجه كل منهما صاحبه .

ومد حمدي يده فأمسك بيد صغاه واحتارها في كفة لحظة ثم نظر إليها مستأدما
ورفعها إلى فمه بهذه ثم مسحها بشفته

ومدّت صغاه يدها الأخرى حسنت شعره . وقد تفرقت الدموع في
عيونها وبدأت أنها تبذل جهدا شاقا لئيلع دموعها .

وهرت صغاه رأسها وهمت .

— لم تكن هناك فائدة يا حمدي ..

— لا تعذري يا صغاه . فالاعتذار للذين يحطون وأنت لا تحطين أبدا ..

— حاولت أن أقول إلى لا أريد . فلم يقبل أي سبب لرغبي . ولم أحرز أن
أقول إنك السبب . كرهت أن أصعبك .. موضع التوهم أو الشك . أو أنزعجك

منطقة العيث .

وعاد حمدي يرجع يدها إلى شفتيه .

وفي هذه المرة لم يستطع أن يجمع دموعه التي لقت من عييه صلت يدها
وجرت دمعه .. دموعها المعلقة . وهتفت به :

— لا تبك يا حمدي .. إلى أكره أن أرى دموعك .

ومسح حمدي عييه بالمرورتين بعرف كفه .. وحاول أن يرسم بسأفه
على شفتيه .

ونغم وهو يزدرد ريقه :

— أنا عاصف ..

— لا تنأسف أبدا . إذا كنت أنا في طيئت لا أحطه . فأنت في طي لا
تفعل أبدا ما يؤسف عليه

وهر حمدي رأسه بهذه وأصغى رفرة فصورة قاتلا .

— ليس أمامنا في الحياة . ما دامت قد أبقت علي . إلا أن نعيش
ونقاوم

وصمت لحظة ثم أردف بضم :

— ما دامت الصربة لم تقص علينا . فلا بد أن نواصل السور . ما دم لم
نمت .. فحتم علينا أن نفعل ما يفعله الأحياء .

وردت صغاه في حجاب دالب .

— بعد الشر حنك .. ربما يوقظك .. ويهب لك خير ما في الحياة .

وهمس حمدي كأنه يحدث نفسه .

— كنت أنت خير ما في الحياة ..

— أنت طيب وصور . وشجاع . وسيحقق لك النجاح .. وتصبح
إسانا عظيما .

— ونفع حمدي بصفة سخرية مريرة .

— أنا إنسان عظيم .. بماذا .. ولماذا ؟

— لأنك تستحق أن تكون كذلك . هل تعلم يا حمدي .. أني كثيرا ما
جست أفكر وحدي في ساعات الليل الطويلة .. أن الله ربما قد فعل ذلك .
لكي يظل كل ما في نفس صاحبه . جميلا كما هو . إن مشاكل الحياة يا حمدي
تعظم مثل العنبة التي رسمها في أذهاننا .. ربما قد أنى الله عليها إلا أن يبقى .. كما
بحر أمم أنفسا .. فنادح طيبة لا تحطمها لطغات الحياة
— أنت رائعة دائما يا صفاء .
— لست أبقى كذلك في نفسك ..
— شقيق .
— وأنت كذلك .. لن تهت من نفسي صورتك رجلا كما أنت .. رقيقا كما
أنت .. شهيا كما أنت .. طيبا كما أنت .. وبعد عمر طويل .. عندما يبصر ما
الشعر .. لن أجد منك إلا ما تعودت أن أراه منك دائما .. أنت يا حمدي لم تكن
طفلا .. لقد كنت دائما رجلا ..
وأقبلت سمحة تتم في القطار :
— فأحررت عليكما .. أنا متأسفة يا صفاء .. بية تنادي عليك .
ونظرت صفاء إلى حمدي نظرة أخيرة ثم شدت على يده قائلة :
— هي إذنك يا حمدي . ربنا يوفقك دائما .
— وأنت كذلك .. ربنا ييسر لك دائما .. كل ما فيه الخير .
وعرجت صفاء وسمحة إلى الصالة واتجه حمدي إلى غرفته
استلقى حمدي على الفراش بملابسه وغطى وجهه بذراعيه .
انتهت الجسارة يا حمدي ..
عدت وحده . بعد أن شيعت . ذلك العزيز .. الذي يسموه الحب .
ولكن الحسائر محملة .
إما لأنك تعودت .. تشيع الجنائز ..
أو لأن التقيد الجديد قد هون عليك أمر فقده .

لقد دفع حياته ثمنا . لمودح رائع ليقى في الدفن عن مر الأهم
ثمنا عاديا يا حمدي ..
لقد اشترت الواقع .. بالوهم .
وأعيا مشكوكا في نتائج . بوهم . مصمون . ولكن ماذا علمت سوى
قبول الشمس ؟
شيء — حتى ولو كان وهما — خير من لا شيء ..
راح أبوك .. انتزع القدر ملكيتك له . بكل ما أحاصه غيبك من حب
وحال . بهرغم ..
وراح حيك . انتزع منك شعر وهي .
ومادا تملك أنت أن تفعل . وأنت عاجز . إلا من السر . والتحرك .
لأنك حتى لم تمت ..
ومن الباب أقبلت سيدة تقطع عنه أفكاره المشردة . البائسة . وهي
تعمل في يدها صبية هوفها كوب كازورة وهي تقول :
— تاعذ كازورة يا سي حمدي ؟
ورد حمدي دون أن يرفع ذراعه عن وجهه :
— لا .. أعطى الضيوف
— أعطيتهم كل واحدة كوبا .. اشترت رجائين كما أمرتني . وأمرعتهما
في ثلاثة أكواب .. وأعطيت الست الكبيرة كوبا . وست صفاء كوبا . وبقي
كوب لك
ورد عليها حمدي في خبط :
— قلت لا .
— نيل ريفك في البحر .. كازورة مثلية ..
— ورفع حمدي ذراعه عن وجهه وبدت عيانه محمرتين . وغير سيدة قائلا
— قلت لك لا أريد شيئا . ادعني وانركسي . أعطيه لأي إنسان أو

اشريه

و لم يكن هناك استعداد من سيده لأن تذهب وتتركه .

كانت تعرف ما به .. ولهذا أقبلت . يَكُوب الكارورة .

لعلها تستطيع أن تحبسه أو تخضع ما به .

إياها تحس له بالكثير .. وتغلك له الكثير .

لو أنه صعبها القصة .

إياها عن استعداد لأن تبذل له كل شيء .. فقط لو أنه يمتعه .

ولكن لا شيء فيها .. يذهب .. أو يمتعه ..

إياها .. تحكم إحساسها به كأعز ما في هذا الوجود . تشعر أنها قادرة على أن

تضحي بكل شيء من أجله ..

ولكنها لا تعرف أي شيء مما تغلكه يمكن أن ترضيه تصحيتها به من أجله

إياها لتلك الكثير من الخنا والحب .

تستطيع أن تضمه إليها وترجمه على صدرها ..

ولكن هل يعني هذا شيئا بالنسبة إليه ؟

إياها تحدث هذا القوط الذهبي .. تستطيع أن تحبسه يها . لو كان يهدده في

قصاء بعض حوائجه التي حرمتها منها ظروف المرحمان التي غر بها الأسرة .

ولكن هل يرضى هو بهذا ؟ .. ثم سيتلقى التصحية على أنها لطفة مدلة

لكرامته ؟

ما هذا الذي يحول ييبا وييه ؟؟

أهو الخدار السميت العازل الذي يقسم الناس أنواعا ؟

ولكن حمدي رفيع لطيف مع الناس جميعا . لم تحس مرة واحدة أن شيئا

يعرله . عن عطا الله تابع لحد بشعره الأشيب وجذابه المخطط وطافته من نفس

القماش تصل حتى أذنيه .. وهو يمشي له .. ويسأله عن أحواله .

لم تشعر قط أن هناك ما يعرله .. عن أبوسنة تابع الصحف .. أو الأسطى

إمام المرس . أو ملك تابع المول وهو يخرج إليه بعض الأحيان بالسلطانية عندما

تكون هي مشغولة في المطبخ أو في الحمام .

ولكن يته وييبا .. يقف شيء عازل ..

عازل غير مادي . ولا ملموس . فهو رقيق معها . لم تشعر مرة

واحدة بأنه سيد وأنها مسودة . بل هو في كثير من الأحيان يصونها فيما قد تعجز

عن أدائه مما يحتاج لقوة رجل . كتعبص السحاجيد أو نقل الدواليب .

ولكن الخاجر مع كل هذا يقوم في سلك وصلابة . حائرا مصوبا . لا

يسمح بتفاد الأحاسيس .. أو تبادل المشاعر .

لا يسمح بأن يربه منها سوى سيده . الخادمة .. التي تحصر أعبائها فيما

تؤديه من خدمة .. كس ومسح وعسيل .. ومشاور في السوق

حتى جسدها . الذي لم يترك أحدا في الطريق أو من الجيران .. إلا وقد بعث

فيه موعا من الإثارة ..

أثار حتى الصبية . والمجائر .

تصميقة كف . أو بتلعية حاجب .. أو بتداء غزل .. كان يعبر كل من

بفناء .. عن صدى ما تركه الجسد المتلى من إثارة في نفسه .

إلا هو .

— لماذا ؟ .. أهو احتقار لنوعها ؟؟

ولكنه لم يعبر قط بأية طريقة عن إحساسه بهذا الاحتقار ..

لعله إحساس بالقرى ..

كانها أمنت له .. أو ألم .. أو حمة ..

قد يربحها هذا التبرير .. لو كان صحيحا .

ولكنها لا تمك أن تسلم به لأنه لا يعاملها كأخت أو أم أو حمة . لا يلجأ إليها

ليشر لها بمتاعه كما يفعل مع سبيحة .

ولا يسمح بأن تضمه إلى صدرها إذا مرض كما تعمل أمه ..

ولا يختصها كما يختص عنته . إذا فرغهم بعد غيبة ..
وهو الآن يرفد كالبرخ ..

أو هو جريح مملأ . بعبية احمر ودموع فائضة . وبوجه علامات صباغ
وتحمر وبأس .

إن أهدأ لا يحس به .. إلا هي ..

عندك حبيبة العصر يا حمدي .. يا أعز الناس عند من لا معرفة لها في
فسلك .. من ثبوت ولا تغفلك ..

لم تشمع لك الوردية بين طيات الكتاب . ولم تشمع لك النفس تديها
حنانا .. والقلب يقفز من الصدر شوقا ولحفة .

لم يشفع لك شيء من هذا كله ..

وأدارت حبيبة العمر ظهرها لك . وانجهت إلى أول طارق يطرق بابها ..
وشار يتقدم إليها .

أنت ما رت صبرا وتديها . وأكثر من هذا أصبحت .. وستظل
فقيرا .. تمر بك السون الطوال . وأنت أحمز من أن تقدم الشمس الذي تعلب به

أولئك الذين ينافسونك في الشراه .

حياة قاسية شريفة يا حمدي ..

لا تملك مشاعرا العياصة مقاومة قسوة واقصاها .

أنت بكل ما تملك من مشاعر نحو صماء . عجزت عن الاحتفاظ بها . حتى
تستطيع أن تكون أهلا لها . وجر فكسا الواقع كما يجرف النهر الحصى كل إلى

قدره

وأنا .. يا حمدي بكل ما أملكك من مشاعر . لا أستطيع أن أمتحك حصة
عزاء ..

تأني يا آخر من تطلعت إليه عباي . أن أقدم لك شيئا أي شيء .. لأنه في
نظرك لا شيء

حتى هذا الجسد الكثير الذي يتطلع إليه الناس .. كل الناس . دون أن شعف
من قدرته على الإثارة . إن صاحته لا تدمعه في ثوب أبيض ولا تحيطه بعطر فواح

حتى هذا الجسد .. الذي — وجع من صغره وسواه ملاء — بما يشد إليه
النظرات ويلوى الأعناق — كان . وما زال على استعداد لأن يتقدم إليك راصيا

سعيدا .. ليحقق لك بعض الشعة وسط أحزانتك .. لم يملح في أن يتورك . أو
يقنعك بأنه يمكن أن يكون شيئا . يستحق أن تتسل به في أوقات فراغت .

أو تتخذ ملهاتك في لحظات مللك وحيفك .

ومع ذلك لا أملك إلا أن أخرج من أجلك .. وأود لو فعلت لك بكل
عجزى .. وبكل ما أمثله في نظرك من اللاتيمة واللاشيء .. شيئا يرفعك من حوة

الناس .. ووعدة الضياع .

وحطت سيدة خطوات أخرى في العرفة ووعمت الصبية بالكوب على
الصدنة الصميرة ثم انخرت من حمدي وانحست عليه وهو يرفد عن العرائش بعد أن

حجب وجهه بذراعيه مرة أخرى

قالت سيدة .

— سي حمدي

— ماذا تريدني ؟

— أريدك ألا تحزن

— كنت حزينا

— لا تصابني لأن سنى صماء حطبت

وبدا كأن حمدي يصمط على صروسه في عيط وسأله وهو ما زال يخفي
وجهه

— من قال لك إنني تصابني ؟

— لأنك لأنت تحبها

ورفع حمدي ذراعيه من فوق وجهه وسأله في عيط :

— ما هذه الجمافة التي تقولها .. من قال لك هذا ؟

— أما أعرف منذ أن أطارت الريح الوردية .

وحدى حمدى فى عيبها بطرات بدهرة وكأنه بكروه أن يكشف أحد حبايا
نفسه وقال فى هجة صارمة :

— لا تتحدثى فى مثل هذه الأشياء مرة أخرى ..

— ولكنى أكره أن أراك حزينا .

— حزينا .. أو لست حزينا .. هذا ليس من شأنك .. طامحة ؟

— قد أستطيع أن أصنع لك شيئا يريحك

— أنا لست متعبا .. ولست أنت التي ستريحينى عندما أتعب .. فكفى عن

مثل هذا الكلام .. وانصتى لى عملك

ولكنى يبنى الحديث .. ويحوله تماما عن مجراه . رجع بصره إلى المشجب

وقال لها فى لهجة حارمة امرأة

— عدى القميص الذى فوق المشجب واعصيه بسرعة وانشره حتى

يستطيع الذئبوجى كفيه غدا .

وانتهت سيدة إلى المشجب ومدت يدها فتاولت القميص ثم تركت كروب

الكردورة وغادرت الغرفة

هذا هو حديث يا سيدة . غسل القميص وبشره

لا تحاولى أن تتعدى . مه .. إلى أبعد من القميص . لا تحاولى أن تتمسكى

فى صدره أو تتمسكى طرفه إلى قلبه ..

على السطح فقط مقامك يا سيدة .

فكفى عن محاولة التسلل إليه عبر الحائط السميك ..

إنه لا يترك يا سيدة إلا مرادة للقميص المتشح . والعرائش المكوش والأرض

المترية .. والحذاء المصير .

لماذا ؟ لماذا ؟ ..

حتى هذا البلاء المستوى .. المندوم .. لا يريد أن يراه هيك .

لو كان لك ثوب أنيق وحذاء فى وجهك وعطرى شعرك وصدرك تبرز

هذا الجسد .. لما عجز عن أن يراه .

أجساد الرافعات اللواتى ترى صورهن فى دغلات وفى إعلانات المخابر لا

تصل جسدها

ولكن من يدريها أن الرافعات هى قسمة فى قلبه

وأنى لها .. أن تصبح مثلهن ؟

كمى عن هذا نعل يا سيدة . وانصتى إلى عملك كما قل هولاء ودعه

لأحزانه .. ما دام ليس لديك ما يظلفها عنه ..

احترق مشاعرك فى باطنك . طيريقها إلى نفسه مسدود لا سبيل إلى

اجتيازه .

ومرت سيدة بالصالة تحمل القميص فى يدها .

ووجدت صماء وأنها تنجم بالبهوس استعدادا معاداة اندر .

وسألتها البت فاطمة :

— أين سيدك حمدى يا سيدة ؟

— فى عرفته

وانتهت سيدة إلى الحمام لوضع القميص

وصاحت الأم تنادى ابنتها :

— حمدى . حمدى .

وأجابها صوت حمدى من عرفته فهتعت به فائقة :

— تعال سلم على خالتك .. وعلى صفاء .

— حاصر

وأقبل حمدى . رافع الرأس متصب القامة ليس به من أثر الجريمة سوى

احمرار خفيف فى عييه .

ورسم الابتسامة على شفتيه و موى يده يحيا السيدة الكورة قائلا ..
مع السلامة

— مستظريك تروى .. عملك يسأل عليك دائما .

— الله يسلمه .. سأزورك في أقرب فرصة .

— إياك أن أعرف أنك حشرت إلى السيدة دون أن تزورها .

ومد يده إلى صفاء وشد عليها بخفة .

وظلت صفاء تمسك بيده وهي تقول في هجة لم تستطع أن تمنى ما بها من
حزن :

— لم تعد للمحى بوجه بعد ذهابكم ..

ونمتصت أمها في أسي :

— الله يرحمه .. كان صوته يملأ البيت .. وأخى كله .

وأردفت صفاء :

— بنتا نكرة البقاء في البيت .. ونتمنى لو تركناه .

وردت أم حمدي :

— كتر حوك يا بنتي . البركة فيكم .. ربما يديكم طولة الحسر وبوقفت
ويجيكى ..

وأردفت صفاء :

— وربما ينجح حمدي . وبوقفه ..

وأرددت أمها تقول :

— ربما يذهبوا ويترك لك فيه . حمدي طيب وأمر . ياريت كان عدى
بست نبيك له

وخرجت سيدة تميل في يدها رجايات الكارويزة الفارغة ووصلت إلى أديها
كلمات أم صفاء الأخيرة .

« ياريت كان عدى بست تليق له »

الديا عجبية يا سيدة .

ما يليق . لا يوجد .

وما يوجد لا يليق .

ومن الذي يحدد ما يليق لنا لو ما يليق بنا ..

وجهاً نظر يا سيدة . سبب كل هذا التصارع . والاضطراب في
ديانا .

كل يرى بمقاييسه ويحدد بمعايره ..

وبين ما أراه يليق .. وما تراه يليق . هوة سحيقة من اختلاف . وعليه أن

تتأطع .. وتراق دملؤنا .. وتنبشم عظامنا . وبمى كل ما صاحبه لكى .

يؤكد له أن ما يليق .. هو ما يراه هو أنه يليق

وما يليق يا سيدة في النهاية . حائر مائع يتأرجح بين الرغبة في

باطسوا والخوف من حوسا . بين ما يرمى شهواتنا وما يستر رواتنا من

الآخرى . بين ما يرمده لأفئسا من طبخة . وبين ما يرمده العير ما . بين

حقا وحق العمر عينا

وتركت صفاء يد حمدي .

وخرجت من شفتى حمدي زهرة فصوة . لم يحسها سوى صفاء

وانتهت الأم وابتنى إلى خارج الدار .

وانتهى حمدي عائلا إلى عرقته .

وانطلقت سيدة إلى بائع الكارويزة لتعيد القوارغ وتعطيه النقود وأحسنت بأنها

تود أن تقذف عن كاهها عبئا قد صاقت بحمله ...

أحسنت بأنها تود أن تتخلص من قيد مشاعرها .

(٢٠)

منطقة نفوذ

الدنيا واسعة يا سيدة ..
وأنت أسيرة هذا البيت ..
أسيرة لطف أهله ورفقهم .. وحنوهم عليك ..
سيرة طيبة هذه السيدة وحنوها الكريم التي رغم كل ما تمر الأسرة به من صيب
لم تنس أن تؤكد لك أن حقلك محفوظ .. وأنها تجمع لك مرنثك كل شهر ..
— ما هيئت بمحفوظة عدى يا سيدة — من الشهر الذى اشترت لك فيه
القرط .. وأنا أحوشها لك لكي اشترى لك عوايش ..
— كتر حورك يا سنى — لقد بت واحدة منكم .. وبس في حاجة إلى
مرنى ..
— كيف ؟ .. هل نظرون أنك ستقضى عمرك معنا ..
— وم لا ..
— ياربت يا سيدة .. نحن لا نستغنى عنك مطلقا .. ولكن لك حياتك
وأمامك مستقبل ..
— أى مستقبل ؟ ..
— ستزوجين .. ويصبح لك بيت وأولاد .. وستحتاجين إلى مفود .. إلى
أجمعها لك في المصاع .. فهو دائما يعمط قبسه .. وإن شاء الله عندما يحين
الوقت .. وبنا يتقدم على مملوكتك ..
وكانت سيدة تأخذ كلام الست فاطمة على أنه مجرد تغيلاب ليس هناك من
سين لتحقيقه .. لأنها قاعة ما هي فيه .. لا تريد حرامه ..

قاعة بأن تبقى حرياً من هذا البيت
قاعة بأن تقوم حول .. الذى تدخر له في معسها كل ما تملك من
مشاعر .. دون أن تجسر على إطلاعها أو الولوج بها
ولكنها تحس الآل .. بالرغبة في كسر القيد .. والعكاز من الأسر .. لقد نقل
إليها حمدي .. من حيث لا يشعر .. إحساس التمرد ومحاصرة الحياة ..
الدنيا واسعة يا سيدة ..
وكأقلت لك السيدة .. لن تظلي أبداً أسيرة هذا البيت ..
إن لك حياتك .. ومستقبلك .. وطريقك الخاص ..
طريق قد يكون غير مشرق .. ومستقبل قد لا يحقق لك شيئا من آمالك ..
وحياة قد لا تحل لك الكثير من المتع ..
ولكنها على أية حال .. حياتك .. التى لا بد أن تكون فيها .. وطريقك الذى
لا بد لك أن تسلكه انجذاباً إلى مستقبلك ..
حياة يا سيدة أبداً ما تكون عن أوهامك الوردية .. ولكنها حياتك .. التى لا
مفر لك منها ..
ووصلت سيدة إلى علام بالغ الكارورة .. مجلس على دكة بجوار صندوقه
الحشيش الأخضر الذى تسلفته شجرة لبلاب وأحاط به العباب الأخضر ذو
السنابل الرشيقة في آخره .. وروعت رجاجات الكارورة على الأرفف في أعلاه
واحتوى باطنه ألواح التلج ..
وعدت سيدة بدءاً بالرجاجات الفارغة
ولم يطبق علام على الرجاجات .. ولكنه أطبق على بدءا :
— تعالى يا بت القعدى شوية ..
وجذبت سيده يدها قائلة
— اترك يدى ..
— تركت يدك اجلسى ..

— ليس لدى وقت .

— اجلسى برهة

— لماذا ؟ .

— نتحدث يا سيدة . بأعدت ونعطى .

— ليس يسى ويسك شيء نتحدث عنه .

— اجلسى يا بنت الحلال .. قد يكون يسا شيء .

— شيء مثل ماذا ؟

— يا سيدة اجلسى نتحدث .

— لا .. لا أستطيع الجلوس بجوارك . ماذا يقول الناس ؟

— ليس هناك ناس .. إننا وحدنا .

— قد يمر البعض .. ويظنون بنا السوء .

— والله لا أريد بك سوءا .. أنا أريد بك الخير ..

ونظرت سيدة إلى الرجل .. بحليابه الطويل والليدة على رأسه تبدو مها
سوالله الطويلة السوداء ووجهه الأصفر بتقاطيع اس البلد الغملوى وشعر شاربه
متكاثف فوق شفته .. وأحسنت فى هجته .. نوعا من الحادية . كانت صمة
حديثه . لا تحمل ذلك الغرل الصراخ والاشتباء المكشوف .
كانت عيابه تزيدها . ولكن بحر أكمف تصفق أو حواجب تهنز متراقصة
هوى عييه ..

لماذا لا تستمعى إليه يا سيدة ؟ .

استمعى إليه

ما دام حتم عيبك أن تغر جى إلى طريقتك الخاص وتغرسى حياتك .

ما دام حتم عيبك أن تقطعى الأحوال التى تشدك إلى سوء أعلامك الوردية .

استمعى إليه .

فقد يكون شيئا ..

بعد أن أصبح كل شيء عندك .. لا شيء .

وانغذت سيدة مجلسها بجوار علام .. ووصح يده على ركنها بطريقة غير
متكلفة فضمت يده بعيدا وهى تحس بإحساس الأثنى أن مسه يده . لا تحمل
البراعة التى تحاول أن تبدو بها .

وقالت سيدة باهرة :

— أبعد يدك ..

وضحك علام قائلا :

— بعدنا أبدينا .. أنا قصدى شريف يا سيدة .

— ياخصار ماذا تريد ؟

— طولى بالك يا سيدة .. الدنيا أثقلت فى سبعة أيام

ونظرت إليه سيدة بطرف عييا ورددت سائرة :

— وبسلامتك تريد أن تحقق دها ؟

— لأ .. أدخل دنيا .. وأنت الصادقة .

— ماذا تصي ؟

— نأعد ونعطى يا سيدة .. صبرك هل .

— عندى شغل يا علام .. قل وخلصنى .

— مد متى تعملين عند الجماعة الذين تعملين عندهم ؟

— عند عدة سنوات .

— وماذا يعطونك ؟

— ومالك أنت ؟

— أعرف إذا كانوا يصفونك أم لا

— الناس طيبون ولا أريد منهم شيئا . يكفى عشرتهم ومعاملتهم

ورفع علام حاجبيه فى دهشة :

— تحبهم .. بالعشرة والمعاملة ..؟ يقوا بصايرين .

— أحرس . قطع لسانك دول أسبذك

وصححك علام وعاد بتحسسى ركبها قاتلا

— لا تمسسى هكدا . أنا أمريح

— ارفع يدك أولاً

— وبعدى معك يا سيدة .. ما تروفي

— قلت ارفع يدك

— ما هذا الشرف الذى حبب عليك ؟

— شريفة عصب عن عيكت وعيى الى يتشد لث .

— حاضر .. حاضر .. تعدى .. تعود إلى موضوعنا .. ماذا يعطوك ؟

— وانت مالك .. عندك عمل لى ؟

— جابر .

— ولكننى مسترمة هكدا .

ورد علام فى صوت جاد .

— نقد كبير يا سيدة . ولا بد أن تطرى إلى مستقبلك .. هل تبيعى

فرشك ؟ .. أم يأخذك أهلكت ؟

— ليس لى أهل .

— أبدا ؟

— أبدا .

— ليس لك أم ؟

— ولا أب .

— من يأخذ مرتبك إذن ؟

— نحوشه السيدة .

وضحك علام فى سخرية ورد قولها .

— نحوشه السيدة ؟ . ابهى تعالى القضى .

ونظرت إليه سيدة فى غيظ وأجابت فى تحد :

— اسمع يا علام . السيدة أشرف منك ومن أعنت . لقد أحصرت لى هذا

القرط الذهبى الذى فى أذن

— أهد دهبى ؟

— لا فالصو

— وماذا أحصرت لك أبها ؟

— ستحصر لى غوايش دهب ..

— من يمس لك ؟

— أنا لم أطلب منها شيئا .. ولا أريد شيئا . ولكنها هى التى تعصر على أن

تعدى ليوم أحتاج فيه .. يوم يكون لى بيت وأولاد .

وهز علام رأسه مصجبا وتم قاتلا :

— والله ست طية . ومعنى ستحضر لك الغوايش ؟

ونظرت إليه سيدة فى تشكك وتسايلت :

— ومالك أنت ؟ ..

— شايك عليكى ..

— كتر خورك .. وفر خوقك على ..

ثم وصعت يدها فى حصرها على طريقة روجة أبها دلال .. واستمرت تقول

فى تحد

— أما أدها وقدود يا مى علام . لا تخف على أبدا

— إني أريد توغيثك . أنا أحرص على مستقبلك يا سيدة أما أناحه عليك من

أولاد الحرام .

— كتر خورك . ولكن ماذا تريد مى باختصار ؟

ومد علام دراهمه وأحاطها بها وصمها إليه قاتلا وقد تلاحت أنعامه .

— أنا باحلك يا سيدة .

وأحسنت نفسها رعة في التجاوب معه حتى تستكمل آخر الطريق الذي يريد أن يصل بها إليه

فاستسلمت لغضبه وتسللت بساطة :

— وبعدن ؟

— قلت لك بأحبك يا سيدة

— مفهوم .. وبعد ما تعني .. ماذا تريد ؟

— أريد أن تجهيني .

— وبعد ما أحبك ؟

— يصبح مع بعض .

— كيف ؟

— كما تريدن .

— وكيف يمكن أن يصبح الناس الذين يحب كل منهما الآخر مع بعض ؟

— يتزوجون .

— وأنت تريد أن تتزوجين يا علام ؟

— طبعاً أريد أن أتزوجك .

وعصمت سيدة لحظة تستوعب الكلمة في ذهنها

هذا أول عرض يا سيدة لخروجك إلى الدنيا الواسعة .

جاء .. أو غير جاء

ومهما كانت نتائجه .. فهو لا جدال بمعة جديدة في حياتك ..

شيء غير ألعاف السباب التي تعودها من روجة أبيك وأم عباس وغير ألعاف

السبادة التي مهما بلغت من الرقة والحو .. فهي لا تبدو في جوهرها

سوى أسلوب سيادى لتعامل وقيق حوق .. من الأسرة الطيبة الكريمة . وشيء

غير ألعاف العزل العاصحة التي تلاخفت في كل عدوة وروحة .. من صبه

الطريق والباعة .. والأفندية .

وشيء غير العهد الرقيق الذي يهلك عن حمدي . ألعاف المعبود الذي يأتي إلا أن يصحك في موضعك أمام طشت العسيل أو وراء مسحة البلاط .

ألعاف جديدة . أيا كان صاحبها وأيا كان عرصه صبا . وأيا كانت نيتها

ها

فهي من غير شك تشكل بمعة جديدة في أدينا

لأول مرة يقول لها إنسان ما .. أريد أن أتزوجك بطريقة حادة

ولكن هل هو جاد فيما يقول ؟

هل هذه هي الطريقة التي يتزوجون بها .. ؟

ماذا بمعها الطريقة .. ما حامت ستؤدى إلى الزواج ..

وهل هو يحبها حقاً ؟ ..

وما هو الحب ؟ ..

أمر ذلك الشعور المبول الذي نحس به لخمدي .. والذي نحس به هو

لصعاء .. والذي يشهد لنا قصورا في الفواء .. ويعققا بحال ذهنية من سح

أوهاما .. ويظل يؤرجحنا .. حتى يرتطم بوقفا . وسبع لتشمس طرفنا على

الأرضى .. ملحق دمايما وبصمد جراحنا ؟

قطعا هو لا يحس لك هذا يا سيدة .. ولا أنت تظنين مع هذا . ولا تحتاجين

إليه .

مخلوق واحد لوها بعض هذا الشعور . لمحك به . بمعة كبرى . تجعل

حياتك .. وتسد أيامك .. وتضيء ليليك .

أما ولم يمنحه إياك .. فقدبت في غنى عنه من سواء .

وبات عليك أن تينى نفسك لقبول ما يمكن أن يمنحه الغير من مشاعر .

هو يقول إنه يحبك .

وقد يكون في قوله صادقا ..

فليس كل الحب هو هذا الحب الذي نحس به لخمدي .

قد يكون حبه لك .. جزئيا ..

أى يحب بعض ما عشت . وأغلب الظن أنه يحب هذا الشيء الذى يتطلع إليه الناس منك وأنت سائرة في الطريق .

هذا الشيء المتعبر الذى لا تفتح الثياب في إجماعه . والذى يبدو دائما وكأنه تأثر على ما يحبه . يود لو يرمعه عنه ليقول للناس ها أنا .

وعيون الرجال تعرفه . دون أن يراخ عنه العطاء .. تعرفه . مكذبا خيل الغطاء .. وتكاد تعرفه نظراتهم البهية

بحسب منك علام هذا الشيء الذى يتطلع إليه الرجال

وماذا في ذلك ؟

لا بد أن يكون هناك في النساء شيء .. يصحى من أجله الرجال بحريتهم

وسرك يا سيدة في هذا الشيء الكامن تحت الثياب ..

ليكن .. فهذا خير من أن يكون ما حده إليث شيء لا يخصك .

فبعض الرجال .. يتزوجون النساء .. من أجل الحسب والسب ، أو من أجل العنى .

وأنت يا سيدة عاطل من هذا وذاك

ولكنه سأل عن ماهيتك . وعسى يأخذها . ومادا تعلمين بها . وأصبت باهتمام إلى حديثك هي القروط والغوايش .

وماذا في ذلك ؟

إذا كان ينوى أن يتزوجك .. فتكون هذه ثروة زوجته .

ثروة !!

يت ذات ثروة يا سيدة .. يتطلع إليها الرجال ..

يا سيدة . يا جربوعة . أصبحت ذات مصاع . بسأل عنه الذين يطلبون بذلك .

وعلت شغفى سيدة إصامة بعمر إرادة .

وتطلع إليها الرجل مستائلا :

— ماذا قلت يا سيدة ؟ ..

— في ماذا ؟ ..

— في أن أصبح مع بعض

— أزواج ؟

— طبعاً .

— دعني أفكر .

— تفكرين في ماذا . هل تطيق أنت متجدين زوجا حورا مى ؟

— ومن أدراك أن أرهب أن أزوج ؟

— لأن كل بنت تسمى أن تتزوج .

— لماذا ؟

— لكي تحمد رجلا يلها ..

وضحكك سيدة وأجابات :

— ولكني ملومة .

— في بيت أسادك .. مجرد خادمة .

— وكيف ستلمى أنت ؟

— ست بيت ..

— أين هو هذا البيت ؟

— سأقصه لك .

— والظن ؟

— مشربه .. وتصحيح ست بيت .. وجوب عليك ربما من الشف والمهمة .

مُقول هذا يا سيدة ؟

بملكك هذا الرجل ست بيت . تأمرين فيه وتنهين وتجبين منه أولادا

وبنات .. وهبة

ورفعت سيدة رأسها إليه حائرة .

— ومعتك تقود يا علام ؟

— ربما يفرجها .

أجل يا سيدة .. ولماذا لا يفرجها !!

الطريق الذي حدثت فيه سيدتها الطيبة . مفتوح أمامها .

ليس الرجل في حد ذاته أسية . وليس له من ميرة تجعله موضع لفة .. ولكنه رجل كبقية الرجال ..

رجل كهؤلاء الذين تمدون وتروح أمامهم طيلة اليوم ..

ليس وجهها كمثلك ناتع العول . بقامته المارعة . ووجهه الأبيض .

وعينه اللولبية وشاربه المبروم .. ولكن ملك متزوج . ومن غير دهبها لأنه فيعطى . فقد رأته للصليب على باطن رسمه . ثم هو لم يمرض عليها الرواح

فلماذا المقارنة ؟

ثم إنه ليس فيها كمعطاء الله .. بالنع الجليز .

وليس عبيطاً كأبو الريح صبي المكو جي .. الذي يطلب منها الرواح عمدل

خمس مرات في اليوم ..

علام له سوق رائجة مع خادمات الخي .. وهو ذكي مهلوى .

وإذا كان يمرض عليك الرواح يا سيدة .. فلا بد أنك تستحقين المرض .

انلهم إلا إذا كان يريد أن يميت بك .. ويأكل بقلك خلاوة .

ولكن « ذا بعده » .

لست عبيطة يا سيدة . حتى يحاول علام يمهلوت أن يأكل بقلك خلاوة ..

وبعرك بالزواج ويبرجلك ..

وعاد علام يستحقها وهو يحاول ضمها ويغرب شفتيه إلى وجهها :

وتخلصت سيدة من ذراعها ودعته في ذقنه لتبعد شفتيه قائلة :

— ابعدي يوزك .. جاك قطع يورك

— الله .. ويعني معاك يا سيدة .. ما حنا حائنا أهل .

— لما تنأهل ياروح امك .

— طب هاني حاجة على الحساب .

— ما بشككش يادني .

وضحك علام قائلاً :

— إذا علتي باقطة على صدرك . . الشك ممنوع والزعل مرفوع .

وهزت سيدة رأسها قائلة :

— لما افتحه محل عمومي .. أسطع الباقطة .

ورد علام :

— لا والله ناصحة ..

ونصت سيدة قائلة .

— عي إندك .

— إلى أين ؟

— إلى البيت .

— بفرى .

— بفرى من صمرك ياروحي .

— لم تعطيني حقاً نافعاً .

— لما أشاور .

— تشاورى مين ؟

— أشاور عقل .. وأشاور الناس إلى آويني .. أهل معني .

— ربما يتوب عليكى . وتبقى حرة بصلك .

— عيليتك بجماعة .

— بجماعتكى يا سيدة .. حاسناكى إمتى ؟

— يا نجيبا صيوف .

— انجمنى ؟

— علشان اشترى كازورة

— بتكلمنى جد ؟

— أنا معرفش غير الجلد .

— يهى لى أراك حتى يفرجها ربنا بالضيوف ..

— ولما دأتى لك . عندك شىء غير الكازورة ؟

— عندى .. روحى ..

— ما تلمساش .

— بكرة تلمسك .

— ما ترمى افوق لك .

— يهى حاتردى عل .

— ربنا يفرجها .

— متظرك ..

— إن شاء الله .

وعادت سيدة إلى البيت . ولدها حلية بح

الطريق الخاص . مهددة هذا المرحل أمامها .

طريق المستقبل . قد فتح الباب إليه .

كيف يمكن أن يبدو الألق مع هذا الرقيق ؟

بيت صغير . حجرة أو حجرتين . فرش وأريكة وطبلة . أو مصفدة .

ودولاب كبير غلابسها ومرتأة تربتها .. وحمام ما وحدها .. وهى تنصيح به

« الست » أو « الجملاعة » .

ست سيدة

أجل .. بعض الناس سيادونها هكذا

اسمها ليس له ربح .. سيادى . رغم أن لفظه يحمل معنى السيادة . ولكن لا بأس به

عدا . تلد . ويصبح اسمها . أم . أى حاجة

ستبقى هى الاسم المعروف . إذا كانت بنتا بنتها بيعة أو سمحة أو حتى

صعاء . من الذى يستطيع معها ؟

ستكون الست أم بيعة . اسم لطيف محترم

وإذا كان القادم ولدا .. سمته . ماذا ؟

— حمدى طبعاً ..

وراك . وراك . يا حمدى . إذا استعصيت روجا . هل تستعصى

ولدا . لى يهلت اسمك من حياتى

أم حمدى . الست أم حمدى .

عدا متصبحين كسيدتك الست أم حمدى

المخيران جميعا يادونها هكذا

عاشت الأساس يا ست أم حمدى .

وماذا أهبنا بلىء لك المستقبل فى جمعة ؟

مطبخاً نظيف فيه طعامك . لتأكله أنت .. وروحك . وأولادك .

أى يعود سيكون لك يا سيدة . وأى سلطان وأية سيادة ؟

كل هذا ستأمرسه وحملك . أنت صاحبة البيت .. وربة الأسرة

ستأمرى أحراراً بعد طول إطاعة . وتسودين بعد طول خدمة .

ستجلسين فى العالقة لتفترقى مع اخبارات . كما كانت تفعل أم عباس .

وتعملين لتستحيى عنجان قهوة . تربى به رأسك أو عنجان شاي تعذلين به

مراجلك ..

ستعذلين مراجلك . حتى ولو كان معدولاً . وتربى رأسك حتى ولو

كان موروما .

ستعلم كل ما تشاءين . دون أن يفتشك إيمان مادام تعلمين . وتدعين أياً
ادعاء .. دون أن يردك أحد
فتح أمامك طريق السيادة يا سيدة ..
فأقبل عليه ..
لا يهم من الذى فتحه . علام أو عصا الله أو ستة أو أبو اليرك المهم
أن تكونى سيدة حق . لا سيدة اسم .
وأقيمت على البيت وكانت سمجة تقف فى الشرفة وقد بدا عليها القلق .. ولم
تكد تراها حتى هتعت بها .
— كنت من يا سيدة ؟
— كنت عبد علام . أعيد الرجاجات المارغة
— كل هذا عبد علام . لقد استغيتك مرة
مادام يحاسبوها عن بضع دقائق نفبيها هنا أو هناك .. لماذا يستغيرونها كأنها قطار
سكة حديد يتحتم أن يصل فى موعده ..
ودخلت سيدة إلى داخل الشقة فوجدت السيدة تقف باب الصالة وقد بدا
على ملامحها الغضب .
— نصف ساعة لإعادة الرجاجات .
ولم تستطع أن توجه نظرات عصب السيدة وعادوها الحورف الطبقى الذى
تعودت عليه ووقفت أمامها كمذنب يستغفر .
وأجابته متلعججة .
— أصلى .. أصلى .
— أصلىك إليه وفصلك إليه .
— أصلى مائتين على علام .. وقت استاه .
— تستنيه نصف ساعة ؟
— حتى عاد

— ثانى مرة تقدر الرجاجات فى الصنوق وتعودى .. فائمة ؟
— فائمة .
— ادخلى اشطعى هدمتين الفسيل ..
— حاصر .
ودخلت سيدة إلى المطبخ وقد تسرب إلى عسها إحساس بالقرود ..
والسحط .
لم يكن ما قبل لها جندنا عليها ..
ولكن الجديد .. كان فى نفسها ..
كان فى العلالة التى بسجها علام بمرصه .. والثى سلطت صوفا كاشعا على ما
يمكن أن يمحها إياه طريقها الخاص إلى مستقبلها .. طريق السيادة .. طريق
السلطان على مطلقه يعود . مهما عائلت . ومهما تصابلت .. هى قادرة على
أن تجعلها سيدة .. تأمر .. لا خدمة تطاع .

(٢١)

رحمة ونور

بدأت الحركة في البيت . والليل ما زال جامدا .. وأصواء العوايس تبدو من خلال النافذة تترافق مرتجعة . لا تكاد تبدو من ظلمة الطريق سوى دائرة محدودة الضوء صفراء شاحبة .

ولم تكن بغفلة آخر الليل جديدة على أهل البيت . فقد اعتادوها بعد وفاة الأب والانتقال إلى روع المرح في رباتهم للمقابر أو كما كانوا يسمونها (طلعة القرامطة) التي تحدث توقعنا أسبوعيا كل يوم خميس ثم أحدثت الريارات تساعد حتى استقرت في المواسم والأعياد .. والسبوتية ..

وأحست سيدة بحركة الأم في فراشها .. ولطفلة الفرائش أسفلها . وهي تنهض في تناقل وسؤال سميحة والنوم عليها :

— أليس الوقت مبكرا ؟

وردت الأم في صوت خافت

— يا دويك .. أحضر الألبسة .

ثم أردعت في حجاب

— نستطيع أن تنامي برهة .. حتى ننسى من تجهيزها .

ولكن سميحة طرحت النوم عن عينيها وهضت في صحوة كاملة وهي تنهض : — اسفريجي أنت وأنا سأجهز كل شيء .

وكانت سيدة قد تركت مرقدها ووقفت على قدميها . وأقبلت على الحجرة تقول :

— لقد أعددت كل شيء قبل أن أنام .

وسألت السيدة :

— وصعت القرص على بعضها . والبلح الأبرمى والعاكبة ؟ .

— فعلت كما فعل كل مرة

وأطلقت الأم زهرة حارة من صدرها :

— إذن يجهر أنفسا حتى تأتي ست زكية .

وتساءلت سميحة :

— هل ستمر عليها عمتي ؟

— قالت هذا .

وبدأت الحركة في البيت .

حرت سيدة السلال التي حوت قرص المير والبلح الأبرمى وغيرها من أصناف الطلعة التي تورع على أرواح الموتى والتي يحصرها الأقارب والأصدقاء إلى البيت ليلة الطلعة .. مساهمة منهم في الإعداد ها بالقرص والعاكبة .

واستقط حدى على حركة نقل السلال إلى طرفة السلم .

وارتدى ثيابه بسرعة بعد أن غسل وجهه ..

واستعدت الأسرة للخروج .. بعد أن ورعت عليهم السلال . ووقف حدى

في الشرفة ينتظر عمة العمة

وبدا شحها في الظلام تسير تجاه البيت متثاقلة الخطوات .

ولم يكدها حمدي يراها حتى خضب .

— هيا بنا .. لقد قدمت عمتي .

وحمل حمدي أثقل السلال وأكبرها . وحاولت سيدة أن تأخذها عنه ولكنه

بهاها في حزم قتلا :

— احمل هذه .

— ولكن هذه أثقل .

— ومن أجل ذلك سأحملها أنا .
وحاولت سيدة أن تجذب منه السلعة قائلة :
— اتركها لي أنا أحملها .
ورد عليها حمدي ناعرا :
— قفت لك احمي الأخرى . المعروف أن يحمل الرجل .. الأثقل .
ورفعت سيدة السلعة الأخف ..
هذا الإنسان هو الوحيد في هذه الدنيا .. الذي يعاملك كسيدة .
وهو أيضا الوحيد الذي يرفض معاملتك كأثني ..
دائما يحمل عنك الأثقال ..
بعض عنك السحاجيد .. ويقبل بذلك الدواليب ويشعرك بأنك سيدة .
يجب أن يحمل عنها الرجل أعباءها .. وهو يبحث إحساسا متعا .. عندما يتقدم
ليحمل هذه الأعباء عنك .
ولكنه لا يفعل أكثر من هذا ..
إنه يحملها عنك .. ويصرف ..
لا يمتحنك أكثر من هذا ..
إنه يحل عليك دائما .. هذه النظرة التي يفرقك بها الرجال .. والتي
يتحسسون بها صبرك وبقية الأجزاء الباهرة من جسدك .
لماذا ؟
أي شعور هذا الذي يمتكم تصرفاته تحرك ؟
إنه يفرق بك ..
بل .. أكثر من هذا يحنو عليك
لو مرضت .. فهو سباق .. إلى عيادةك .. حريص على عيقتك وسائل الشفاء
لك .. والأطباء ان عليت .
يتقدم إليك بقرص أسبيرين .. أو يأمرك بأن تستريحى .

ثم يتصرف عنك .. كأنه لم يفعل شيئا .
وهو يصرفي حرم على أن يحمل عنك الأثقل .
ثم يسير بحمله كأنه لم يفعل شيئا . لو كان هذا هو المعروف أن يعمله ..
بينما غيره لا يفعل ذلك ..
الناس يسيرون بها بأنفسهم .. ولكن عندما يحسون أنها ستكون لهم جهدا أو تعبهم
هم .. يتجرون بأنفسهم .
هكذا كان يفعل عباس وغير عباس ..
ياتهم شيئا منها .. ثم يصرف ..
لم يحدث مرة واحدة .. أن تطوع لمساعدتها .
كانت تنوء بحمل صعيبة المياه على كتفها .. وتكاد تسقط باليساط على
ظهرها .. ويهر بها فيضعها جانبها لأنها تسد طريقه ..
والناس كلهم يفعلون بها هكذا ..
إلا هذا المخلوق الخير المصيب ..
ومع ذلك ففي كثير من الأوقات تحس أنه لا حق لها بالاستمتاع بهذا الرفق
الذي يراها به لأنه شيء خاص به .. لا يشكل في حقيقته أى مظهر من مظاهر
التمييز لها .
هذا الشيء الذى يحبه إياها .. يمكن أن يحبه لأى مخلوقة في موضعها ..
وهو أمر رعم كل ما يحسها من الارتياح . لا يجعل حسته خالصة في نفسها ..
لأنها تمتثل للنعمة المصيرة لها مهما صوّلت . على النعمة الشاملة لم حوها ..
مهما كثرت ..
ولقد يحصل البعض منا قيراطا من الخير يمر به عن القطيع .. عن أربعة
وعشرين يتساوى فيها مع القطيع .
ونظرت إليه سيدة وهو يتقدم الركب بحمله الثقيل يشد دراعه وكتفه إلى
أسفل .

إنه يسير بصبر شارد في ظلمات الطريق ..
لا تنبهه هي في شيء .

تماماً كما لقيها أول مرة في طريق المذبح .. ودرأ عنها غائلة الشر التي أحاطها به
الأساس . وجهاها من فتكهم . ودفع لبقال القرشين نحو المصاصة وعليه
السردين .

ثم فصحتها بالأنا تمل مثل هذا ثانية .. وتركها وهم بالانصراف . فلما
سأته أن يأخذها لتستعمل عندهم . ساقها بجواره إلى البيت .. دون أن ينظر
إليها ..

كان ممكناً أن يفعل ما فعله .. مع أي إنسان في مكانها ..

و ما زال يفعل ما يفعله نحوها . بحكم طبيعته . لا لأنها تخون غير بداته .
ما عليها .. إنها لا تملك سوى أن تأخذه كما هو . البيع الذي يبيع من حوله ..
نعمة .. دون أن يخلصها بشيء ..

إنها أيضا يجب ألا تأمل في شيء خاص بها .. ما دام بأن أن يجعل منها شيئا
ضئيف الأشياء المبهطة به ..

فليق هو في موضعه بالنسبة لما شيئا عاما .

وعبر الراكب بتقديمه حمدي وتليه سميحة وسيدة ثم السيدات بخطواتها
للتأقطة .. وابور الطحين بطرقاته الزينة . تشق مسكون آخر الليل .. وهممة
بعض العمال والزبائن تسرى وسط الطرقات .

ووصلت الأسرة إلى شارع الترام .. حاليا مظلماً .. إلا من دوائر الضوء
الصغراء المتراقصة حول الفوانيس .

وقالت العمدة منتبهة في برات متجومة :

— متعب هذا المشوار إلى الدوران .

وردت الأم .

— لو انتظرنا حتى يسير ترام روض العرج . لأشرقت الشمس علينا . قبل

أن يأتي

وكان على الأسرة أن تسير شارع روض العرج بأكمله حتى تصل إلى دوران

شبرا .. لتأخذ ترام A الذي يخرج من محور الترام في الدوران

لم يكن المشوار قصيرا .. كان عليهم أن يقطعوا ثلاث محطات للترام بدل أن
يأخذوا ترام روض العرج من محطة الهامى أو من محطة كوابية ، مياه عبد دوران
روض العرج .

وقالت سميحة وهي تحس بدواعها تكاد تنصلب تحت ثقل سدة البيع الأبرمى
التي تحملها :

— الحمد لله أن جدى ليس معا

وردت العمدة :

— كان قد جلس على الرصيف .

وقال حمدي :

— أذكر مرة ذهبت معه لزيارة أخيه عمى سليمان في بركة العيل . وعند
عودنا اقترحت عليه أن يعود سائرين على الأقدام . وعندما وصلنا إلى ميدان
السيدة كان قد مرهده .. ونظر إلى في عيظ ثم هبط على رصيف جامع السيدة فأتالا
في يأس :

« لحدّها . وسيدى يا عمى »

وتسألت سميحة .

— ماذا يعنى ؟

وردت العمدة :

— كلمة يشوها . عندما يعصيه اليأس عن معه . الحمد لله الذى رضى بأن
ينهب هو مع الأولاد مباشرة إلى الحوش .. يمكنهم أن ينتظروا حتى يسير ترام
روض العرج .. بدلا من السير إلى الدوران .

ووقفت الأسرة على محطة دوران شبرا . تنتظر أول ترام يخرج من محور

ولم يقل لهم الأمر حتى أقبل الترام بصوت طين عجلاته فوق القصباء وهو يلبس ليأخذ مكانه في طريق شبرا .

وأحد حمدي يرفع السلال ويصمها بين للقاعد وهو يشير إلى الكمسارى أن يصبر حتى تركب الأسرة كلها .

وكان الترام حاليا .. إلا من شرطى يجلس وراء السائق الذى لف رأسه بمدبيل محلاوى فوق الطربوش ..

واستدار السائق لينعجل ركوب الأسرة صائحا بالكمسارى :

— خلاص ؟ ..

وأجاباه الكمسارى برمارة طويلة ثم فصر إلى السلم وأقبل على الأسرة يفر عذبة التذاكر هاتفا :

— تذاكر .

وهت العمة بإخراج كيس بقودها ولكن الأم جذبت يدها فائتلة في بصرار . — أبدا .. خلى عنك .

ودفعت الأم غم التذاكر .. واسترخت الأسرة في المقعد الخشبي المستطيل .. وحركت اندفاع الترام ريح العجر البارد فانكشف كل منهم في ثيابه .. وبدأت حركة الترام المنتظمة تدفع اليوم إلى أعينهم . فاسترخت أطرافهم . وتناقلت أجهانهم .

واستمر الترام في رحلته عثرقا شارع شبرا إلى المحطة .

وفيل الكوبرى بدت يشار الصبايح حوائيت العول والطعمية تفتح أبوابها والأبدي الحديديّة النقيبة تبع في الأجران الحجرية تسحق الخمول والبصل والكرات وبقية خلطة الطعمية . ومقاعد القاهي تصف خارجها . بعد أن فقه الصبية بعملية الكس والرش . وعربات اليد بالشمام والبطيخ تحترق من ناحية شبرا .

وعبر الترام الكوبرى وبدت المحطة تنعج بحركتها الصباحية . عربات تاكسى

نروح ونعمو . وعربات ترام تنطق منها الرماير . والباغة السريعة محدون مكابهم على الكوبرى وأسفلها بالشرابات والمباتلات ومشابك العسيل والخيار وسرت الشام والسيبة العاكهة والسلال الفارعة . والقادمون من الصعيد أو الراحلون إليه بأحاملهم وقمعهم يديون في ماء المحطة الخدمي

واستقر الترام شارع كلوت بك .. وبدت على جانبي الطريق الأعمدة الصخمة تحمل القنوت المستديرة تبدو ورعها الدرجات الحجرية المربصة للؤدة إلى الأرتقة المضيق .

وقب الترام في إحدى المحطات في الشارع الطويل

وهتف الكمسارى بيه قلاحا أعنى على مقعده .

— وش البركة .. يا حضرة ..

وصاح الرجل مقيقا من إعجابه .

— ها ؟

— أجل .

وهزول هابطا من الترام بثلث حوله في قلق وإرتياب :

وأطلق الكمسارى رمارته في شبه رغودة وصاح السائق صيحكا :

— يا لالا يا أبو حميد . بنى عليه عشم قوى .. إن شاء الله حيا بطشوا ! مع الجلالة والبلعة .

ولفتت سيدة حوطا في حذر .

إذن هذه هي وجه البركة التي كان يذهب إليها عباس والتي قال لك سائرا عندما نهرته عند حاتوت الثيان في شارع السد . « الكيشة منك في وش البركة بشلن » .

ها إذن يعملون هذه الأشياء لمزية التي كان يفعلها معها عباس . والتي ضحها عن صمها قرشا .. بدا وتلك ككروة طائفة .

وذكرت مبيض النحاس .. ودلال ..

ولكن أين يعملونها ؟

لا شئت داخل هذه البيوت

ولكن هذه البيوت تبدو كبيوت الناس الطيبين . وبها دكاكين بقالة
وجريرة . وحلوى . وأشياء أخرى من التي تباع وتشتري
إذن أين يعملونها ؟

داخل هذه الأرقعة ولا شك .

ولمحت في آخر الدرجات المؤدية إلى أحد الأرقعة . امرأة سمينة تجلس على
البسطة وقد تردت ثوبها رقيقا لا يمحج شيئا من معالم جسدها المخبر بلانيات
داخلية تلمسه . ومدت ساقيها العاريين المكشورتين مفتوحتين فوق درحات
السلم .

هذه لا بد أن تكون إحدى إحداهن يا سيدة . فهي تبدو كصاعقة مرعوضة أمام
حانوت .. تعلن عما به من أوصاف طيبة .

— ولكن لماذا تجلس في هذه الساعة المكررة من البهار ؟ أم لعلها في ساعة
متأخرة من الليل ؟

وهل هذه الكبة صبا يشلن ؟

بل هل يمكن أن يكون هناك كبة من هذه باكملها ..

وتحرك الترام وتباعدت المرأة للقابعة على باب الرقاق .

ولم يعب حمدي أن يلقى عليها نظرة . ولكنها كانت خاطفة بحيث لا يمكنه
أحد متبصيا بها .

وسأل نفسه كما تساءلت سيدة :

هذه إذن هي وش البركة التي حدثت عنها أصحابه ..

والتي يأتي إليها صبحي مع شلة الكرة كل يوم محبس عقب الماتش .

نتر فيه عن أنفسهم عدد العور ولندراء ولسلوى . عدد الغرمة .

هذه هي وش البركة التي استقر فيها كابتن الكرة .. بعد أن انضم مع

إحدهن . وفصلها عن الدراسة بعد أن وجدها . أربع وأربع

هذه هي وش البركة . التي لهنه أصحابه بأنه عشم . لأن قدميه لم تظا

أرقها . المليئة بيوت النساء والخانات والمتقاهي . دنيا حافلة صاحبة يتحرق فيها

الناس من طلائع البراق وقشر نيم الراحة . ويطلقون الإنسان البدائي في بطونهم

على سحبه عائشا صاعيا راقصا قويا مستصفا . يخرجون من جوفهم كل

المتناقضات العجيبة التي تضمها .. الحب والكراهية والتعالي والمذمة . و .. و .

وعبر الترام الشارع الطويل بأرقعه . ذات الدرجات والأسرار .

والأجساد المبعثرة والسيقان الممدودة العارية . وطويت صورته من دهن حمدي

كما طويت من دهن سيدة .. أما الباقون فلم يكن يمس في أذهانهم شيئا .. ولا يثير

من الهلالات أكثر مما يثيره أي شارع سواه .

ووصل الترام إلى العتبة المحصورة وهبط حمدي عبر السلال واحدا بعدد

واحد . برصها متجاوزة على رصيف المحطة ثم أعدد يساعد أمه وعنته على

التزول .

واستقرت الأميرة بسلال الفرس والمين والصلح الأبرمى في العتبة المحصورة

وكانت أشعة الشمس قد تصاعدت من وراء الأفق حمراء رقيقة تسمح حدران

البيوت وأطراف الشجر .

وحمل حمدي سفته وتناول باليد الأخرى سفة صبيحة وهو يتجه إلى عربة

سوارس الحشينة الصغراء التي كتب على جانبها بالخط الفارسي العربي

« الصبان » وشدها فيها حصان هريال يصر بان أسعدت الطريق بموافرها

الأمامية قلعا .. ويملآن الأرض روثا .

ووضع حمدي السلال في العربة وعلون أمه وعنته على الصعود وتبعتهما

صبيحة ثم سيدة واتخذ الأربعة مجلسهم على المقاعد الأربعة الخالية في العربة المزودة

ووقف حمدي مستندا إلى أحد أعمدة العربة .

ونصت سيدة من مقعدها هاتمة بحمدى :

— انفصل القعد يا سي حمدي .

ورجرها حمدي في حزم قائلا :

— القعدى انت ..

— مش ممكن أقعد وانت واقف .

— قلت لك القعدى .. وبلاش زبطة .

وجلست سيدة ..

لتكى سيدة . ما دام بأنى سيدها العزيز إلا أن يعاملها كسيدة .

وشقت عربة السوارس شارع الموسكى يقف سائقها في مقدمتها بالكرهاج في يده يستحث بطرقته الخليل أو يبه به اللارة .

سارت العربة هتت وتأتارجع في الشارع الصيق المردهم ولم تغض بصع دقائق حتى تشاهد الخالسون في الحديث كأنهم معرفة قديمة .

بدأت إحداهن الحديث بقولها ببساطة :

— النهاردة بانه طالبع حر ..

ولم تكن توجه الحديث إلى أحد بعينه فقد كانت وحيدة .. صعدت وحدها .. وجلست وحدها . ولكن حديثها بدأ موجها للجميع وكأنها تعرف الجميع

وردت عليها سيدة تجس في مواجعتها .

— رعة الليل . رطوبة وحر .

وتدخل رجل بلبس جلبها وجاكته .

— يقولون العيضان هذا العام شديد .. والليل على ..

وم يجبه أحد ولكن امرأة تلبس الملاية وتحمل طفلا على كتفها صاحبت متسائلة .

— أمال يا اولاد امتي جبر البحر ؟

وأجابها الرجل ذو الجلباب والجاكته :

— بعد كام يوم .

وسألت فتاة صغيرة أمتها الجالسة بجوارها :

— حاتصرج على الصواريخ يا ام ؟

— أيوه .

— من نير ؟

— من فوق المطح .

— لما لا نذهب إلى البحر ؟

— زحمة .. وليس لنا أحد هناك .

وهتفت للمرأة التي تحمل الطفل :

— انفصل عندما يا اختى .. أنا جورى صاحب قهوة هم الخليلج . المعلم أبو سريع .

ورد الرجل ذو الجلباب والجاكته :

— يا صاحبي . راجل سكرة . أمانة تسلمى لي عليه .

وبدا للفتاة أن تشارك في الحديث .. فقد تعذر عليها أن تظل محتملة بلباسها ساكنا بين شذئها . وقالت بلهجة العارف :

— قهوة أبو سريع في عمارة شحاشوى .

وردت عليها زوجة القهوجى :

— لا وانت الصادقة . عمارة شحاشوى . عوف قهوة أبو سريع القهوه اتوجدت قبل العمارة .

وبدا الخليل على وجه حمدي . وهو يجد عمته نخوص في الحذل فائلة

— القهوه تبني قبل العمارة ازاى بقى ؟

وأجابها المرأة في ثقة .

ثم القهوه كانت موجودة في حنة الأرض قبل ما تنسى العمارة . وبعدى لما تبست . نقل أبو سريع عدته في الدكان إلى فيها ..

— إلى أعرفه . إنه كان فيه أحرغاة قبل القهوة . عنى صلوحه طول عمرها ساكنة هالك ..

— أبو سريع هالك قبل شعاشرى وقبل عمتك صلوحه .

وتدخل الكمسارى قائلا :

— يا جماعة مصروف سيرة بقى .. أبو سريع وثلا شعاشرى . أهو كله يحصل بعصه

وكانت العربة قد وصلت إلى الدراسة . وتوقعت قبل نلال الشقافة التى تشرف على البيوت الواطئة الواقعة فى آخر الدراسة .

وبدأت العربة تمرع حولها التى ركنها على غير معرفة . وعادتها وقد توطدت بينهم أواصر الصداقة . ولم يبق أحد منهم سر لم يح به . وتبادلوا

جميعا الصالح والامشاعات الطيبة . من شيع وليان ذكر وياويج وكافور وبدأت الأسرة المرحلة الأخيرة من الرحلة . وهى أشقها مشوار صويل

وسط التلال الشترية من الدراسة إلى قطع المرة إلى باب الورير إلى الممر وعلى جانب الطريق أقباص رص عليها سعف النجيل وورهور الرضا

والقفيفة . وحليط من مروع عصراء لأشجار الغمل وحسن حمدى فى يده الحالية صيحة منها بعد أن بقى البائسة بصعفة ملايم

وواصل السير يتقدم ركب الأسرة فى الأرض الشترية . وكانت فاحمة طواف الرحلة صامعة شاردة النظرات .. لم تشعلها أحاديث

العربة . ولا لثثرة الصمة . عن صورة تلتصق باظها وتجب عنها كل ما عدها

صورة سى محمد . بحسده القوى وصوته العالى .. بجراحه .. وانطلاقه فى الحياة يصم بها بلا مبالاة وبلا إحساس بمشولية إلا أن يسعد ويسعد

غيره . فى هذه اللحظة التى يجيها . ثم صورته عائدا فى تلك الليلة السوداء مترج الحمد مثقل الحصى

ورقدته الطويلة فى الفراش بلا كلمة ولا حركة .. ثم خرجته بعير عودة وبدأت الدموع تنهمر من مآقيا عندما لاح لها طريق المقبرة بعد أن عبرت

الشارع ودخلت فى الرقاق الصيق تقوم على حوايه شواهد المقابر يملوها الصبار السلق .

الوحيدة التى لم تحف مآقيا سد موت المرحوم هى فاطمة أوصى البكاء عندها عادة . تجلس جلسنها المعتادة مترعة على الأريكة فى

الصالة ثم تصعب بعدها على حننها .. ويسابب الدمع من عينيها فى صمت وفى أول الأمر كانت صريحة تشاركها البكاء وحمدى بهاها عنه ولكن طول

الندة جعل كلاهما يسد مدعوعها ويشعر أن هذا قد بات الشكل الطبيعى لها بعد وفاة أبيهما . فاما كهذه الأخطية السوداء التى كست بها أثنت البيت وأنت

أن نرعبها رعم إلحاح الأقارب عليها بعد مرور السوية الأولى ووصل الجميع إلى المقبرة . وأقبل لفقائده عم إبراهيم الترى بقامته الطويلة

وجنباهه المقطط والعمامة البالية المثيرة . وحيا الجميع فى رقة وبشاشة .

— أهلا وسهلا .. الحوش جاهز ..

وفتح الباب اتلفشى فأحدث فتحه صريحا .. وبدأت الشواهد الثلاثة التى حوتها المقبرة وقد أحاطت به بعض أصغر

الصار ونقش على رخام أحد الشواهد بخط معقده ها ترقد السيدة زينب هانم حاتون توفت عام ١٣١٢ هجرية .

ومرشت بعض الحصار حول أحد الشواهد فوق لأرض المثربة ورصبت المقاعد فى مدخل النساء وخارجة .

ولم تكد الأسرة تستقر بالسلام حتى اندفع جمع من الصبية والعينات بطلون الرحمة وبصعة رجال . غير الوجوه بين أكرش وأعجف يفتحون

هذه المقبرة في ثقة كأنهم أصحاب بيت وقد خلعوا تعاقفوا واستقروا فوق إحدى الحصائر وأحدوا في القراءة بعير استبداد . رحمة وسور على أرواح هؤلاء

وتتابع أصواتهم في نثار مفرع . وأحدوا يتأدون القراءة . كأنهم في سبق التبع يتناوب كل منهم آخر الخصلة من صاحبه يلحم بها أول حملته ثم يصل يقرص الكلام بسرعة كأنه فأر يقرص لوحاً من الخشب حتى يتناوله من صاحبه يلهف الكلمات كما يلهف المتسابق الراية من المتسابق الذي وصل إليه ووسط كل هذه الصيحة . واستمرق الأم في البكاء جوار المقبرة . وتتصاق ابتسما تشدركها البكاء وتزيت يدها بين آونة وأخرى وتهمس بها في رفق وهي تشاركتها البكاء :

— كفاية يا بهمة كفاية بقي .

وحمدى يجلس على أحد المقاعد يحس الظهر يدور رأسه بين كعبه . في هذا الميدان العجيب الذي احتلطت فيه الدموع بصيحات الصبية والفتيات يطيبون نصيبهم من الرحمة . والعقهاء يتأدلون كلمات القراءة كأنها بهم الكرة الطائرة وسط هذا الجو العجيب . وصلى الترقى يحمل المقبرة على ظهره ليرش الأرض بالمياه ..

لم يكن هناك من يستطيع السيطرة على هذا المحيط العجيب سوى العمة .. ومعها سيدة ..

دفعت العمة مظاهرة الصبية والفتيات إلى عخرج المظفر قائلة غم كفاتدة طابور عسكري :

— بنظام منك له .. وإلا معيش لقمعة حاكمي .

ثم وجهت نظره لاسية إلى المعهاء الذي يمدون بأيات الله .. كأنهم يحشون

من يخطئها من شفاهم ..

وقالت في حرم :

— إهدا شوية منك له . ملحوقين على إيه ؟ .. التي فيه القسمة وحانتا حنوه . لرومها إيه الكلفنة ؟ .. ده حتى ما يرصين ربنا ..

وهذا الفقهاء من سرعة قراعتهم ..

أما بنار أصواتهم فلم يكن هم قدرة على إصلاحه .

وأحمرأ ورت الرحمة .. وسكت الدموع . وأخذ الفقهاء يصيح فرص .

وكبشة بلح أبرمى . نظير كلمات الله التي أطلقوها في سرعة الترقى .

وحضر الجدد ولولاد العمة . وبقية الأقارب .

وبعد أن جمعت الدموع . وقرئت الفاتحة بدأت الأحاديث ذات الشجون . وتحدثت الأسرة في مشاكل الحياة . وقال الجد إنه يجب إصلاح المقبرة لأنها أصبحت أتعاسا .. ثم أخذ يلوم إبراهيم الترقى الصواب لأنه اقتطع منها قطعة أرض في المدخل وباعها لإحدى الأسر بنت عليها مقبرتها ثم ادعى أنه هو ضمه بيتاً غير آخر فدخل ضاء المقبرة ..

نصبه .. وأحبال .. حتى في مقابر الموتى .

وأخذ حمدى ينصت إلى الأحاديث الدائرة ..

وبدا ذهبه هو الآخر ينطلق في سبيله ..

إنه يوشك أن يخطو في حياته إلى مرحلة جديدة .. فهو يستعد للحصول على البكالوريا وبعد ذلك عليه أن يختار الكلية التي سيدرس فيها في الجامعة ويعرف صاحبه بعمره بالحقوق . وصبحى بعمره بالحريية . وهو لا يحس أن هناك شيئاً يجديه . لأنه لا يهصر في نهاية الطريق شيئاً يتطلع إليه .

ووقفت سيدة ظم السلال الفارغة .

وانطلق ذهبا هي الأخرى في سبيله .

إن علام بائع الكازورة ما زال يعربها بعرض الزواج .. إنه يحاول أن يحسها الطريق الخاص والحياة المستقلة .

أترأه جادا فيما يقول .. أم هي مجرد محاولة للتفريغ بها ؟

وهي حائرة .. هل تقول له نعم ؟ ..

وإذا قالت نعم .. فكيف السبل إليها ؟ ..

وبدأت الأسرة الاستعداد للعودة .. بعد أن ورعت الرحمة والدموع وتبادلت المشاكل والشجون .

(٢٢)

صاحبة ثروة ..

ختم الشيخ معوص قراءته .. وانفص العراء من المعريس وبقي الأهل والأصدقاء والمقربون لتناول العشاء . وصمتهم بعد ذلك حلقات طرحت فيها المشاكل واحتلظت الدموع بالسمات والرفرات والتهدات بالصعوبات . وروى الأهل الأحبار .. وتبادلوا النصائح والاستشارات

حسنة أمة العمة الكبرى قد جاءها عريس يحمل معاون إدارة في الصعيد وانطلقت تعليقات الأسرة :

— ماذا يكرهها على الغربة ؟ ..

— العريس مقدر .. لماذا لا تذهب معه ؟ . كلها اتعربا في شبها .

— المهم أنه يكون طيبا وابن حلال .

ورد الجند على التعليق يقول :

— ابن حلال مصفى . أعرف أسرته كلها . أبوه الحاج متولى كان جارى في العودية .. وهو من تجار الأحذية الليانيين . ورجل طيب لا يخطئ في حق أحد .

وتطالير سؤال طائش :

— هو أبوه جريجي ؟

ورد الجند في دهشة .

— وماله .. ما احتاج نوع متينغافورة .. هي التجارة عيب ؟

ورد المائل محتدرا :

— لا أقصد إساءة . ولكني أسأل فقط .

www.mlazna.com

^RAYAHEEN^

وردت العمة .

— وروح حالته . الحاح عبده العطار . له وكالة تحت الربع .

ورد صوت يساهم في المناقشة .

— على بركة الله .. الرواح كورقة اليانصيب . قسمة ..

— ربنا يوفقها .

وفي شقة البسات التي صمت سميحة وحديجة والصغيرة كوثر وبعض بات
الأسرة . تساءلت سميحة هامسة :

— هل يصحبك يا حديجة ؟ ..

وبدا الخفاء حل وجه حديجة وقالت :

— لم أجلس معه سوى مرة واحدة . وإن كنت قد رأيته من بعد بصح
مرات .. يبدو عليه أنه طيب وأمر .

وتساءلت سميحة :

— ما شكته ؟

وأجابت كوثر :

— أسهر وذقة تشك .

وضحك البنات .. وتساءلت إحدها :

— أسهر وهرضاها .. ولكن ذقة تشك .. كيف عرفت ؟

وأجابت كوثر ببساطة :

— كل ما يزورنا يصلي ويقبلي .. ويشكني بذقة .

وردت إحدى القتيات صاحبة :

— إذن فكوثر أدري به ملك يا حديجة .

وانتقل الحديث من رواح حديجة إلى مدارس الأولاد

عماد ابن العمة قد رسب وهو يريد أن يدخل البحرية التجارية . لأنها لا
تحتاج إلى بكالوريا .. والكل يصحونه بأن يستمر في دراسته .. لأنه بغير

بكالوريا لا يستطيع أن يكمل دراسته العالية ويحصل على الليسانس ويصبح
مهندساً أو طبيباً أو موظفاً محترماً .

وتطالعت التعليقات :

— يمسى حايقي ليه في البحرية التجارية ؟

ورد عماد :

— سأصير صابطاً بحاراً ومن يدري ربما أصبحت كاتب مركب

ورد عليه الجدة ببساطة :

— اتلهمي .

وأجابت العمة :

— وتبقى طول همرك متغرب .

— ولماذا لا تكمل دراستك ؟

— وما الفائدة من التكملة .. ماذا سأصير ؟

— تأخذ الليسانس .

— ولماذا تأخذ الليسانس .. حاجيب الذهب من دبله ؟

ورد الجدة محاولاً إنهاء الموضوع :

— ادخل ما تريد .. طول همرك نحك ضلم ..

وانتقل الحديث إلى حمدي ودراسته .

وسأل أحد الأقرباء :

— وأنت يا حمدي ماذا ستفعل ؟

ورد حمدي في غير اكترات :

— أي شيء .

— مثل ماذا ؟

— كنهه يحصل بعهه .

ورد عماد متسائلاً :

— لماذا لا ندخل الحرية أو البوليس ؟

— ومن أين لنا بالواسطة ؟

— عجب .

إيها يوهان مصروفات مئة .. والوظيفة مضمونة ..

ورع حمدي رمة قصيرة . واطلق دمه بتحول حزبا بالثا في دروب

مستقبله .. بات مستقبلك يا حمدي معلقا بقدرتك على دفع المصروفات

والقدرة المحدودة . واحتياجات المعيشة تعيق عليك الخلق . والمجاهة التي

أمكن تديرها في سنوات التعليم الثاوى قد انتهت . وأصبح على الساحر الذي

يدير المعيشة بالجنيات الملعودة .. أن يدير أمر مصروفات الدراسة العليا . أو

تتوظف بالبيكالوريا . لتقضى عمرك موطعا مسيا وسط ملعات الأرشيف بين

دروب المصالح الحكومية الرطبة المظلمة .

ملكبة جديدة توشك أن تنزع منك يا حمدي .

إحدى الملكيات المفهومة ملكبة الآمال المشرفة في طريق المستقبل

المرهر .

تبر حياتنا وتبدد ظلمات الضيق واليأس التي تحيط بنا .

الملكبة الأخيرة التي بقيت . في روايا نفسك .. توشك أن تنزع .

العراء الذي مسحه لك صماء . وهي تنقلت من طريق حياتك . بأملك

ستكون عظيما .. أصبح نوعا من السخريات .

عظيما .. كيف ؟! واستمر دراستك قد أصبح بشكل عفا على أكاف

الأخمين .. أملك الحسنة .. وأتخطك الرقيقة العزيزة .

بدل أن تتحمل أنت عنتهم .. وتربح أملك من عاء التوفير والتفكير .. وتمتد

أحتك حياتي القادمة . لتكون روحة كما توشك أن تصبح امة عمتها

حديثه . وكما أصبحت صماء .

بدل أن تتحمل أنت عنتهم .. ستجعلهم يتحملون عنتك .. أربع سنوات

طوالا حتى تحرح . وتصبح إنسانا قادرا على إعالتهم .

واستمرت التعليقات تنظير عى مستقبله وهو مصعب في صحت .. ودارت

المناقشة حول أى مدرسة عليا يمكن أن توفر المصروفات ونحوه وطيفة مضمونة

في أقل مدة دراسية ممكنة .

كان ذلك هو أسلوب التفكير في مستقبله .

وهم هو بأن يعلنى في حزم أنه سيتوظف بالبيكالوريا .

ولكن الجدل كان أسرع منه إلى الرد على التعليقات عندما قال في صوت حزين

وهو ينقر بعصاه على الأرض :

— حمدي سببكم دراسة كما يريد .. كان محمد يقول عنه .. سيكون ذا

شأن . ومات قبل أن يبيىء له ما يأمل فيه .. ولن أترك الأمل يدوى .. سأفعل

من أجله كل ما أستطيع .

وصمت الجدل لحظة ثم أطلق تهبدة طويمة وقال صاحبا :

— نحن لم نشعث بعد .

وقالت الأم داهية :

— ربا يعطيك طولة للعمر .

ورد الجدل في سخرية :

— لقد شعثت طولة يا فاطمة .. وبنا يربنا .

ونظر حمدي إلى جده نظرة حب وحمد . وملأه إحساس بالارتياح يس

الطريق مظلمة كما بدا . إنه يستطيع أن يواصل السير .

وأخيرا انصاع لقاء الأسرة

وقبل أن تأوى فاطمة إلى مصجعتها بادت سيدة .

ولقبت سيدة تسأل الأم عما تريد .

وقالت الأم وهي تجلس على طرف الفراش :

— اتقدي يا سيدة .

وجلست سيدة بجوارها

ومدت الـأم يدها وحتت درج الكومودينو ثم أخرجت منه لفافة تحتها
وأخرجت منها بصع غوايش دمية ثم قالت لسيدة :

.. هذه الغوايش كنت قد أوصيت سيدك الكبر على شرائها من الصاعة .

لقد أعصيته كل ما تجمع من مرنث مد أن اشتريت لك اخلق . وقد أحصرها
اليوم مع . كان يجب أن أشتريها لك قبل الآن . ولكن الظروف الصعبة
اصطرتني أن أسدّد بقودك بعض احتياجاتنا . ولكن ربها رجعها أخيراً . فقلت
لنفسى أغلصك قبل زلفة أخرى .

وأمسكت سيدة بالغوايش .. تتارعها عند مشاعر .

أصبحت صاحبة ثروة يا سيدة .. لا تملك عظمها لم عباس ولا دلال .. ولا
أحد من تحكم بيتك وبسط عليك سلطانه وعرض سيادته .

تستطيعين يا سيدة أن تخرجي وحدك . لتواجهي الحياة . دون إحساس
بالبضايح .

تستطيعين أن تملكى هريقت الحاص .. وتعرضي إرادتك وتحارري
حياتك .

ولكن أية حياة يمكن أن تكون غيرها من حياتك مع هؤلاء الناس الطغيين ..
الذين بت واحدة منهم .. شاركهم سراهم .. وتشاركهم ما يلاقونه من
ضراء .

سميحة الرفيقة الطيبة التي تحمر شفتاها عن إطلاق اللفظ الجارح ، أو الكلمة
الناجية . التي لا تملك مواجهة الشر إلا بالاعطاء ولا تقدر على رد الأذى بغير
الدموع . والتي لم تشعر بأنها سيدة .. إلا برقتها وطيبتها وخلقها للكرم .

وهذه السيدة العجيبة التي أقامت بناء هذه الأسرة بعد أن انهارت دعائمها
ووقفت في حزم الرجال لتواصل السير رغم قسوة الصراع .. ومرارة الخيبة .
وحدى ! هذا الإنسان الرقيق مع الناس الصارم مع نفسه .. يواجه لطعنا

القدر في حرم وصبر وجلد . ويعبر العبر في مصابه بكل ما يملك من حاد وحب
ومودة أصيلة تنبع من داته . يظنها بحمايته وحواه . على غير قصد منه . ويعبر
تصل .

هؤلاء . ورحلهم الراحل الطيب الكريم . قد هيأوا لك في صغراء حياتك
واحة .. استظللت فيها من هجير الضياع ..

لماذا ترهدين أن تسخى نفسك منه . وترعى نفسك من حيثته ؟
لأنك ترهدين أن تعيشي حياتك أنت .. لأنك ترهدين أن تكوني حرة .
تواجهين الدنيا بإرادتك بكل ما فيها من مساوئ وحسات ..

ترهدين أن تمارسى سلطاناتك وسيادتك .

ولكن عي من ؟ .. هل علام بالغ الكارورة .

أي إنسان . ليكن من كان . ما دام سببه لها مسطرة العود . ومحار
السيادة .

ولكن هل حقيقة .. ستأمرين السلطان . وتحققين السيادة
وأم لا ؟

إن مجرد خروجك من نطاق هذه الأسرة . بإرادتك هو نوع من ممارسة
السيادة ..

وقبولك لعلام بالغ الكارورة . أو غيره من الرجال . كأنما كان هو
تحقيق لمرتك في الاختيار . وإرادتك في صياغة مستقبلك
وعندما تتزوجيه يا سيدة ..

من يصس لك السيادة والسلطان .

من يصس لك .. ألا تدخل في منطقة تعود أخرى ..

من يصس لك أن علام أو سواء هو الذي سيمارس سيادته عليك .

مهما كانت السيادة الجديدة . على تحرمت من الاستقلال الذاتي ومن
ممارسة السلطان في دائرتك الصغرى . في بيتك . وعلى أولادك إذا أُنحيت

أولاداً ..

وتحت سيدة اللعافاة وتحسنت الغوايش .
وعادت الأفكار تلطن في رأسها .

هذه الغوايش لا شك قد كسبت السيدة عالياً .. إنها تحتاج لكل ما يمد
على ذلك القروش التي توفرها من هياوس هياك .. والحرمان الذي تعرضه على
نفسها وعن الأسرة كلها من أقل مظهر الرفاهية ومن أبسط أشكال الترف
والكماليات .. ومع ذلك فقد أخذت نفسها بحرم وصرامة لكي تجمع أجزءها ..
وتشتري لها به ما تراه نافعا لها في أيامها القادمة .

ومدت سيدة يدها بالغوايش وهي تتمم قائمة :

— إنى لست في حاجة إلى شيء . لقد عشت معكم كواحدة منكم .

وربعت السيدة على ظهرها وأجابها في عطف ورقة :

— هذا حقك يا سيدة . ولقد بت في حاجة إليه الآن أكثر منك في أي وقت

مضى ..

— ما دمت معكم فإني لا أحتاج إلى شيء .

— ولكنك لن تبقى معاً إلى الأبد يا سيدة .. غدا ستزوجين .. ويصبح لك
بيتك ورجلك وأولادك . ولا بد أن يكون لديك شيء تستعين به على أيامك
القادمة . إن العيش ليس سهلاً يا سيدة .. غدا ستعربين قسوة الحياة على حقيقتي
عندما تواجبهما وحدهك ..

— لقد واجهت قسوتها وأنا صغيرة .

— متحسناً بقسوتها أكثر عندما تواجبهما .. وأنت صاحبة مسئولية .. كما
أواجهها الآن . وكما كنت أواجهها دائماً بالحساسى الخفى الذي كان يتوقع
دائماً .. هذه الأيام المريرة

ومدت سيدة يدها مرة أخرى بالغوايش وهفت بسديتها :

— ومن أجل هذا لا أريد هذه الغوايش . إنها قد تعبت يا سيدتي .

— إنها حقك .. ويجب أن تأخذيه .

— لقد أخذت حتى منكم . حبا وعطفا .. طوال وجودي معك ..

— الإنسان لا يأكل حبا . وعطفاً يا سيدة . الإنسان يأكل خبزاً ..
ثم أردفت وقد علت شفتيها ابتسامة طيبة :

— ومع ذلك .. علم تكن عشتنا كلها حبا . طالما ضربت وقرصتك
وغيرتلك .

— كما تفعلين مع ست سميحة .

— لقد كنت دائماً كسميحة .

— إذن لماذا لا تعاملينى مثلها ؟

— إن سميحة حببتي مشكلتها أعوض . إن على أن أدبر لها من الآن قيمة الجهاز ،
لقد حوشت من أيام المرحوم بعضه ولا بد أن أدبر بقیته ..

— ربما يورقها باین الحلال الذى يستحقها .

— وأنت أيتها يا سيدة .. ربما يوفقت إلى من يصونك ويحرص على راحتك

ليس هناك نعمة خير من الزوج الطيب ..

وانتهى ذهن سيدة رأساً .. إلى غلام .

أترى يمكن أن يكون هو الزوج الطيب الذى يبيى لها البيت ويكفل لها
الراحة ؟ .. لا تعرف ..

إنها لا تعرف ما له .. وما عليه ..

ولكنها تعرف أنه هو الوحيد .. الذى تقدم إليها .. بمهدى الطريق الخاص ،
ويعرض عليها مظلة القعود التى يمكن أن تقارس فيها سيادتها ..

وهو شكلاً كبقية الرجال .. ليس به ما ينفر .. وليس به ما يجذب .

وقد يمتاز عيماً .. بأن رغبته فيها وإعجابها بها .. لم تكن طليارى .. بل كانت
مصحوبة بعرض جاد للزواج ..

أما لماذا .. عرض الزواج ؟ .. فأمر قد يدعو إلى التساؤل .

أمرى رعبته فيها .. التي دعتني إلى ذلك . باعتبار الزواج .. هو أصعب وأسهل طريق للحصول عليها .

ولكن أليس حقيقة أصعب وأسهل طريق . للحصول على امرأة من ناحية .. أصعب .. فأجل .

أما أسهل فتتوقف عن المقارنة بين ما يمكن أن يكلفه الحصول على ما يريد .. بعرق الزواج وبين ما يكلفه بناءه .. إذا ما سلك غيره من الطرق .

مثلا عباس . كلفه ما يريد الحصول عليه في أيام مصت . قرشا وقد كان بالنسبة لها حينذاك .. مبالغا .. فوق التصور .

وإن كان بالنسبة له .. أسهل كثيرا .. من الزواج .. لو كان مشهورا حينذاك .

أما بالنسبة لعلام فالأمر قد يختلف كثيرا . فهو لا يعرف ماذا يمكن أن يكلفه ما يريد الحصول عليه . بعير الزواج . بل هو لا يعرف .. ما إذا كان ممكنا . أو مستحيلا ..

وعلى ذلك فهو السبيل الأصعب . أما ماذا يكلفه .. فأمر سعى .. متوقف على ما يرى أن يفعله . وعسا يملئ من إمكانية فعله .

ولكن لماذا تشغلين رأسك يا سيدة بكل هذا ؟

إذا كان الرجل قد اختار إليك طريق الزواج .

فما شأنك تزعجين رأسك بمحاولة استقصاء الأسباب ومعرفة الجورات ؟ وتناولت السيدة العوايش وأعادتني إلى درج الكومودينو قائلة :

— سأحفظها لك متى . خشية أن يلبسها منك أحد .. فأولاد الحرم كثيرين .

ترى هل يمكن أن يكون علام ؟ .. من أولاد الحرم هؤلاء .. الذين يمكن أن يعلموا في العوايش ؟

ولكنه لا يعرف أن عندها عوايش ؟

كيف لا يعرف ؟

إنه يعرف أن لما مرتبا .. وأن للرتب يتجمع وأن عندها قرطا ذهبيا .. وأن سيدتها تشتري لها عوايش .

ولكن أليس معرفته لكل هذا أنه يعرفها بالزواج حتى يلبس منها الحل الذهبية ثم يتركها ؟

على أية حال يا سيدة .. يجب أن تكوني حريصة ..

إذا كان يطعم في جسدك . فلي تسلميه له قبل أن يدفع ثمة رواحا .

إذا كان يطعم في الحل . فلي يعرف الطريق إليها قبل أن يصبح روحا لك .

إذا كان يلبس أنك . (هبة) . وأنه يستطيع أن يصحك عليك ويستكرذك .. فقد جاء نفعه على شونة .

ليس كل الظور الذي يؤكل لحمه .. يابس علام ..

ونجست سيدة تاركة الحجره وعلت نفسها الثقة ..

ولا مائة مثل علام .. يصحكون عليك يا سيدة .

وامت سيدة في تلك الليلة . من أحلامها . الدنيا الجديدة التي توشك أن

تغوصها بالفرط في أديها . والعوايش في يدها . وبيت وعلام

وأولاد .. وأشياء كثيرة مزدحمة متشابكة .

وتداعمت الأيام . وأقبل الخريف من جديد .. يبتاع حصص الشام تصاعد

أعنامه مع أدان المغرب .. وأشعة الشمس العارية تعكس وراء حقول الخيرة

الخرمية .

وأعواد القصب تترج أطرافها في مهب النسيم .

وحمدى يجلس في انتظار الرفاق يتوايدون للحلوس في الشرفة الواطئة . لا

يعرعون طريق البيت من الباب بل يقبل كل منهم ليقلب أسفل البيت ويمد يده إلى

الواقف في الشرفة ويصعب قدمه على حافة سور الشرفة السفلى ويجدبه بسرعة بقمر

إلى السور ليحمله ثم يبط منه إلى الداخل .

وضعت الجلسة رفاق المدرسة صلاح وحلمى وطلعت
وبدا الحديث عن مجلة المدرسة وقرعة التمثيل والمظاهرات ووزارة الوعد
والمفاوضات والحب والملاكمة والتجديف ونيب الموكبي وعلوى احدى مدرّس
الألعاب الرياضية ومباراة كرة القدم بين مدرسة شبرا ومدرسة المتوحشة
وكان حمدي قد أخذ يمدح في حياته الدراسية الجديدة . واستطاع رملأوه
بعد عام من القرعة والحرر أن يخرجوه من قوقعة يأسه وتغرده الصامت إلى صخب
الحياة .. ولم تعد ممتلكاته الحرة الصائبة تمثل نفسه محجرا يدميه كلما طاف
بدمه . ويذكره بأن أجل ما في حياته قد راح يعمر رحمة ويحيطه بموجع خاتى من
اليأس يقش أنفاسه ويحجب عنه أية بارقة يمكن أن تلوح بالأمل في حياته .
بدأ حمدي يخرج من عرلته الحرية التي سببها موت أبيه . ثم قد صماء
ويشعل بأشياء صغيرة وصمت بيه وبين الناس والحياة .. ولم يعد أبوه
الرحل .. يجده بمقدسه إلى هوة من اليأس لا قرار لها . بقدر ما أصبحت ذكراه
نظمية يكن ما تحسده من معاني المودة والحب والمرح والقوة والإقبال على
الحياة .. تملؤه بالإيمان والأمل والصفاء والود للناس .
ولا أصبحت صماء .. تشده بمقدسها إلى هذه المررد والضياح . بقدر ما
أضحت تمثل في نفسه حيفا رفيقا .. يمر به يمسح حبه .. ويربت كفه في رضى
وحنان .. ويولد من حوله ظلمة اليأس .
وحسن حمدي وسط أصحابه وقد اتكأ بكرسه إلى الحلف ووضع قدميه على
سور الشرفة .
وقال صلاح رئيس قرعة التمثيل في المدرسة محاولا إقناع حمدي بالانضمام
للقرعة .
— هذا العام ستمثل عطيل . وسندربا جورج أبهى . ما رأيك في أن
تفترك معنا منذ البداية ؟
وقال حلمى . أو الشيخ حلمى كما تعودوا أن ينادوه :

— دعك من حمدي يا صلاح . إنه يتعجل من حياته .
— أتركه لي أنت وأنا سأفعله . ما رأيك يا حمدي ؟
— أنا أمتل ؟
— ولم لا ؟
— ولماذا لا تأخذ الشيخ حلمى ؟
ورد صلاح في إقناع :
— ومن قال لك إلى لي أخذه ؟
ولفت طلعت وهو بالذ المدرسة في كرة القدم
— اسمع يا صلاح . لنكن نقضا بالانضمام إلى قرعة التمثيل .. قل لنا قطعة من
عطيل
— متى ؟
— الآن .
— ها في الشرفة ؟
— ولم لا ؟
— هل تريد أن تلم الناس علينا ؟
— ما رأيك يا حمدي ؟
وأجاب حمدي ضاحكا :
— إذا أفلح في لم الناس . مرض الكرامى في الشارع . وسأعسى على الكسار
في روض المرح .
وقال طلعت .
— ها يا صلاح .
ورد الشيخ حلمى :
— صيب يا جماعة ما تفرجوش الناس علينا .
وقال طلعت محاولا استئارة صلاح :

— انكسفا ؟

ورد صلاح وهو ينهض من فوق الكرسي .

ويراجع إلى الوراء قائلا :

— إن كان على الكسوف .. أنا ما انكسفت .. أنا أمثل في أي مكان ..

— طب .. يا لله ابدي .

واستد صلاح على سور الشرفة ثم مد ذراعه فجأة في عنف صائحاً بأعلى

صوت :

— وراء .. وراء .. إليك عنى لقد مددتى على خشب التعذيب .. أنفست

أنه خير للإنسان أن يخدع كثيراً من أن يعلم ..

وقبل أن يتم قوله اندفعت سيدة إلى الشرفة وهي تتسائل في جزع وقد اصفر

وجهها :

— خير يا سي حمدي ؟ .. سنى بتسأل حصل حاجة ببنكم ؟

وضحك طلعت وحمدي وهز الشيخ حلمي رأسه في أسف قائلا :

— تعجبك هذه الغضاض ؟ .. اجلس يا سي صلاح .. واعقل ..

وقال حمدي لسيدة :

— اذهبي ..

— وماذا أقول لسيدى ؟

ورد طلعت ببساطة :

— قولى لما إن عطيل سيقتل ديدموتة .

ورد الشيخ حلمي :

— استمر في مزاحك .. وودينا في داهية ..

ونظر إلى سيدة قائلا :

— قولى لما إن صلاح كان يؤدى دورا تمثيليا .

وردت سيدة متسائلة :

— دورا تمثيليا ؟

وقال حمدي محاولاً أن يصرفها :

— اذهبي وقولى لما .. لايتهم كثيرا بما يحدث هنا .. تعتبر هذه الشرفة خارج البيت ..

وقال طلعت مؤكداً :

— أجل .. تعتبرها مكانا للمجائين .

وخرجت سيدة ونهض صلاح عن مقعده قائلا :

— ما رأيكم في أن نذهب لنا كل جلاس من الرجل الذى عند الناصية ؟

وأحس حمدي بغزع من سيرة الجلوس .

كان يعرف أن الجلوس يحتاج إلى قرش .. وكان يعرف أن القرش لا يجد

طريقه إلى جيبه بسهولة ..

ورغم أنه كان وثقا أنه يمكن لأى من الأصدقاء أن يدفع عنه .. بل كان وثقا

من أن أحدا منهم لا بد أن يدفع للجميع .. ولكنه كان يكره أن يذهب إلى هناك

بغير قرش في جيبه .. يطمئن إليه .

كان يسأل نفسه :

— هب أن أحدا منهم لم يعزم بالدفع .. ماذا يفعل ؟ .. هل يطلب من أحدهم

أن يدفع له ؟ .. ولماذا أتى ليأكل الجلوس إذا لم يكن يملك شيء ؟ ..

إن أحدا لن يسأله هذا السؤال المخرج .. ولكنه هو سأل نفسه ..

وهم الأصدقاء بالفقر من الشرفة ولكن حمدي استوقفهم قائلا :

— لا .. لا .. لا داعي للجلوس .

وسأل الشيخ حلمي :

— لماذا ؟

— مشوار الوقت متأخر .

ورد طلعت قائلا :

— يا أخى .. لا تكن كسولا .. هيا ..

وعاد حمدي يدفع بسبب آخر :

— لا أستطيع أن أكل جلاس .. لأن معدتي متعبة .

— إذن تعال معنا ولا تأكل .

وقال الشيخ حلمي :

— ما دام لا يريد أن يأكل فلا داعي للذهاب .. دعونا تم سهرتنا هنا ..

تستذكر ثم تنسى .

وقال طلعت :

— فكرة طيبة ما رأيك يا أبو حميد ؟

ومرة أخرى أسقط في يد حمدي ..

لا يعرف ماذا يوجد من بقايا الغذاء ؟ .. ولا كيف ستكون وقع الدعوة على

والدته ؟ .. ولكنه لم يجد مفرًا من التسليم قائلا :

— إذا كنتم على استعداد لأن تأكلوا أى شيء .. فأنا على استعداد لأن

أعشيكم .

وصاح الشيخ حلمي :

— اتفقنا إذن .. أدعيني أنا للطبخ .. وترك الأمر لي .

وكانت الشمس قد مالت إلى الغيب .

وأقبلت سيدة مرة أخرى وأشارت لحمدى قائلة :

— كلم .

ونفض حمدي من بين أصحابه .. فوجد أمه وأخته ترتديان ثياب الخروج ..

وقالت الأم .

— سنذهب إلى بيت جدك .. صحة عمك متوحكة وسنذهب لنطل عليها .

هل تريد شيئا ؟

وتردد حمدي برهة ثم قال متسائلا :

— هل عندنا شيء للعشاء ؟

— عندنا بقية الملووخية والرز .

وتردد حمدي مرة أخرى قبل أن يقول :

— الجماعة سيتناولون العشاء معي .

وضربت الأم يدها على صدرها في جزع :

— يا ندامة .. إن الملووخية والأرز ليس بجانبهما شيء .. لقد أكلنا الأراب

كلها في الغذاء ..

— لا ضرورة للأراب .

— هل تريد أن تقضينا مع أصحابك ؟

— يا نية ليس هناك فضيحة .. يكفهم جدا الأرز والموخية .

ونظرت الأم إلى سيدة قائلة وهي تخرج من كيس نقودها قرشين :

— إذن ادعني يا سيدة واشترى بيضا نقله لهم بجوار الأكل الموجود .

وأمسك حمدي بيد أمه قائلا في إصرار وهو يعرف جيدا قيمة القرشين

عندها :

— لا داعي لأى شيء .. ادعني أنت إلى جدى واتركني في الأمر ..

ونظرت الأم إلى سيدة قائلة ؟

— عندما يطلبون العشاء يا سيدة .. سخني حلة الملووخية .. ثم ضعني

الصبوحة على الوابور قبل أن تضمي عليه حلة الرز .. وعندك طرشى من

الغذاء ..

ولم تبد المائدة مقنعة للأهم فعاتت نسم :

— يا دى الفضائح ..

ونظرت إليها سيدة في تعجب .

— هذه الأم يا سيدة .. مخلوقة عجبة حقا ..

مع كل التدبير الذى تضغط به المصروف .. تخرج من دعوة عشاء بتقديمها

ابنها لأصحابه .. ليس لأنها متكلفها شيئا بل خوفها ألا تسر ابنها مع أصحابه ..
وقبل أن توجه إلى الباب قالت سميحة :
— أنتظر أنا لأعد العشاء وتذهب معك سيده ؟
وردت سيده :
— وهل سأعجز أنا عن إعداد العشاء ؟
وخرجت الأم وسميحة متجهتين لبيت الجد .
وعاد حمدي إلى الشرفة ليجلس مع أصدقائه .. ولحقت الشلة الأم والأبنة
تغادران الدار .
وهطف طلعت :
— يا أبو صلاح .. الجو حار .. قم وأرنا كيف فعل عطيل ديمونة ؟
وهز صلاح رأسه قائلا :
— خلاص .. نفسي انسدت عن التمثيل .. المسألة تحتاج إلى اندماج ..
ولسنا على استعداد له .
وقال الشيخ حلمي :
— نبدأ الاستدكار .
— ما زال الوقت مبكرا .. أما السنة طويلة .. دعونا نفكر .. كيف نخرج
جملة المدرسة .. لقد أسند إلى رئاسة تحريرها هذا العام .. ماذا ستفعل لنا فيها يا
حمدي ؟
— كل ما تريدون .
— لقد كتبت قصيدة وطنية .. وسأقول ..
وقاطعه حمدي قائلا :
— قل لنا القصيدة التي قلتها في عبد المجيد القدي .
وقال طلعت :
— قل لنا أولا .. القصيدة التي قلتها في زكية المربربة .

والثقت صلاح إلى حمدي قائلا :
— أنا مستعد أقول قصيدة في سيده المربربة .
ورد عليه حمدي ناهرا :
— اختشي يا صلاح .. عيب .
وأجاب طلعت :
— استمر هكذا في الاختشا والعيب .. حتى يضيع عمرك .. هل تأق معنا
يوم الخميس ؟
وتساءل حمدي :
— إلى أين ؟
— إلى بيت دلال ..
وكانت سيده قد أقيمت إلى الشرفة وسمعت الجزء الأخير من الحديث .
وأحس حمدي بالخرج أمام سيده وساءلها قائلا :
— ماذا تريدن ؟
— هل أسخن العشاء ؟
— لا .. سنخبرك عندما نريده .
وفهمت سيده أن هذا الأمر بالآ تعود إلا إذا طلبت .
وعادت سيده إلى المطبخ وهي تسأل نفسها عن بيت دلال .
بيت يذهبون إليه كل يوم محبس .. ويدعون حمدي للذهاب معهم ..
ويشعر حمدي بالخرج .. عندما تصل هي .. خلال توجيه الدعوة .
من تكون دلال .. صاحبة البيت الذي يذهبون إليه كل يوم محبس ؟
— أيمكن أن تكون هي ؟! زوجة أبيها .. المُعلَب . التي تسرب من حجرتها
مبيض النحاس .. ليلة وفاة أبيها ؟
أيمكن أن تكون قد أصبحت صاحبة بيت .. يذهب إليه هؤلاء الصغار ؟
أي بيت هذا الذي تقتنيه دلال ؟

لا يمكن أن يكون بيتا ككل البيوت التي تراها في الطرقات .
بل أغلب الظن .. بعد أن سمعت من مبيض النحاس عن بيت أم دلال فوق
دخيرة المديح الذي كان يذهب إليه بعد أن ضربته المجاعة وهو يمارس العيب في
إحدى حفرات تلال زينيم .

أغلب الظن أنه بيت كبيت أم دلال .
ولكن هل يذهب الصغار النظار إلى بيت بدخيرة المديح ؟
لا بد أن يكون لدلال بيت في مكان أفضل .
ربما في هذا الشارع الطويل ذي الأعصدة الضخمة والأزقة الضيقة والسلام
العريضة .

ولكن كيف يذهب إليه الأولاد ؟
وكيف يدعون إليه حمدي ..
لا شك أنه لم يذهب معهم من قبل .. فالدعوة تعبر عن استنكارهم له لأنه
يقتضي ..

ولكنه قد يذهب في يوم ما ..
أمعقول يا سيده .. بعد كل هذا الوله في صمتك أن يتركك .. ويذهب ..
إلى دلال ؟ ..

دلال ؟

الآن ؟

ليس حمدي .. أبدا .. ولا حتى فيما مضى .

فهرس الجزء الأول

١	— من بعد ..	١
٢	— يوم حافل ..	٢
٣	— ماذا عدت ؟	٣
٤	— وحده .. يا سيده !	٤
٥	— ألا تحين الموز ؟	٥
٦	— نظرات تحترق الثياب ..	٦
٧	— في الطريق إلى امرأ ..	٧
٨	— طارت الحقة !	٨
٩	— ماذا نكذب ؟	٩
١٠	— وقعت .. ولم يسم عليك أحد ..	١٠
١١	— بارقة عطف ..	١١
١٢	— لو أن شيئا فيها .. يصحبه !	١٢
١٣	— وردة ..	١٣
١٤	— لا وقت للنعيم ..	١٤
١٥	— نمر التلامنة ..	١٥
١٦	— عطفية النج ..	١٦
١٧	— وجهان للموت !	١٧
١٨	— كلمات طائشة ..	١٨
١٩	— عرش من قش ..	١٩
٢٠	— منطقة نفوذ ..	٢٠
٢١	— رحمة ونور ..	٢١
٢٢	— صاحبة ثروة ..	٢٢

تم الجزء الأول ويليه الجزء الثاني